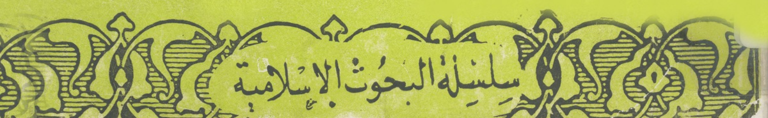
الأزهر

بين السياسة وحرية الفكر

تأليف الأستاذ

الدكتور محمد رجب البيومى

السنة الخامسة والعشرون ـ الكتاب الأول





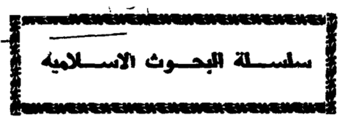
الأزهر

بين السياسة وحرية الفكر

تأليف الأستاذ

الدكتور محمد رجب البيومي

لفضيلة الأستاذ



السنة الخامسة والعشرون ـ الكتاب الأول

١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٣ م

تقـــديم

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد السيد أحمد سعود
وكيل الأزهر والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أمـــا بعـــد :

فمنذ عشرة قرون مضت ، وفى مدينـة القـاهرة ، عاصمة مصر ، كنانة الله فى أرضه ، والأزهـر الشريف يقوم على دراسة العلوم الدينية والعربية ، وجميـــع العلوم والمعارف ، ويحفظ التراث الاسلامى ، وطوال هذه القرون وهو يبلغ الرسالة ، ويؤدى الأمانة على خير وجه ، وينطلق علماؤه باسم الاسلام فى أعمالهـم الهادفة ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فى ثقة وإيمان ، يناضلون ويكافحون من أجل حرية الوطن ، ويقفون فى وجه الطغيان ، ويحاربون الإرهاب الفكرى .

وظل الأزهـر يعلـم من يفد الية من شتى البـلاد

الاسلامية ، ليجعل من الوافدين رسل علم يتفقهون فى الدين ، وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم .

وكان علماء الأزهر وسيظلون ألسنة الشعب المصرى، حين تهب العواصف ويطمع الطامعون .

ومواقفهم أثنـاء الحملة الفرنسية ، وغـيرها مما لا يخفى على أحد فقد قادوا الشعب ، وتقدموا صفوف المناضلين ، وسقط منهم الشهداء ، وتعـرضوا للسجن والنفى والعزل ، فكان ذلك مصدر فخر واعتزاز .

كما وقف علماء الأزهر فى وجه التيارات الثقافية الوافدة ، التى تمس المقررات الاسلامية فى أصولها ، ودضوها وأبطلوها بالحجة والدليل والبرهان .

وإظهارا لهذا الكفاح الذى قام به الأزهر ويقوم الى ما شاء الله ، فقد أخرجنا كتبا تنوه بذلك مثل : الأزهر فى ألف عام ، والأزهر جامعا وجامعة ، والأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة من ثلاثة أجزاء ، ومشيخة الأزهر فى جزأين كبيرين .

واليوم وبتوجيه من فضيلة الإمام الأكبر ، جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر ، نقدم للقراء وللعالم أجمع هذا الكتاب « الأزهر بين السياسة وحـرية الفكـر »

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى ـ وهو غنى عن التعريف ـ نقدم هذا الكتاب إتماما للنفع ، وتعميما للفائدة ، راجين من الله العلى القدير أن ينفع به ، وأن يتقبل هذا العمل لوجهه الكريم ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ٠

أحمد السيد أحمد سعود
وكيل الأزهر
والأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدمة الـــكتاب

من قرابة نصف قرن ، ونحن نقرأ في الصــحف عن ضرورة الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر ، فتعقد لجان وتعد اقتراحات لانجاز هذا الاحتفال الرائع ، ثم يمضي الوقت دون تنفيذ ، ولكننا اليوم نرى دعوة جادة صادقة لهذا الاحتفال ، ونرى اهتماما مشهودا ، يؤذن بالجدية المثمرة .

لذلك أردت تسجيل المآثر التي سجلها التاريخ ونسيها الناس، فتحدثت في ايجاز عن نضال الأزهر بين السياسة وحرية الفكر، لأن قوما تابعوا عن عمد الارجاف المغرض بالأزهر، فحاولوا أن يطمسوا زعامته السياسيةالواضحة لحاجات في نفوسهم ، وتعـدوا ذلك الى رميــه ظلما بمناهضته الفكر الحر ، ناسين أن الأحرار من زعماء الأمة قد تربوا في مهده ، ونشئوا بين أحضانه .

وفي هذه الصفحات من روائع أعمالهم ما يقدم الدليل الناهض والبرهان الصريح .

أما حرية الفكر الصحيح ، فقد كان الأزهر بأعلامه الكبار موئلها المانع ، وحصنها الحامى ، ومن حق الأزهر أن ينكر جريئا ما يراه باطلا بجانب رسالة الاسلام ، التى يقوم على حفظها ، ولكن هذا الحق قد وجد من أعداء الاسلام من يفسره على غير وجهه، فجاء هذا الكتاب ليدعوا الى الحق بالحكمة الصادقة ، والأثر الشاهد ، وليعلن فى وضوح كيف كان الأزهر الشريف لسان الصدق الصريح، وكيف تجرأ مناوئوه على الحقيقة حين وصفوه بما ليس فيه ، بل كيف كانوا أعداء الحقيقة وهم يتظاهرون بالدفاع عنها مرائين ٠

واذا استطاع هذا الكتاب أن يجلو موقف الأزهر بين السياسة وحرية الفكر بما لا يدع مجالا للبس ٠٠ فقد شارك مشاركة مخلصة فى الاحتفال بهذا العيد المجيد ٠٠

د ٠ محمد رجب البيومى

- ١ -

ازدهر مجد الأزهر بعد انتهاء الدولة الأيوبية ، حيث رأى الظاهر بيبرس ، أن يعيد الى المسجد الكبير دوره الدينى والثقافى من جديد ، فأقيمت به الصلوات ، وانتظمت الدروس ، ولا ننكر أن المدارس المجاورة بالمساجد القاهرية كانت تشاركه حينئذ فى دوره المجيد ، اذ أن حلقات العلم قد امتدت فى أكثر بيوت الله ، لوفرة من نبغوا من العلماء مصريين ووافدين ، حيث كانت مصر بعد سقوط الخلافة ببغداد شرقا ، وكارثة الأندلس غربا ، مصبا زاخرا لأمواج تتدافع الى الكنانة ناشدة الامن والنجاة .

وفى هؤلاء من له فى العلم قدم ذات رسوخ ، فرأوا فى مصر موطنا رحيما ، يسبل عليهم رعايته وتقديره ، إذ أن الاسلام وطن حقيقى لكل مسلم ، ومصر كعبة الاسلام الحاضنة لأبنائه على مدى العصور .

وبازدهار الحركة العلمية فى العصر المملوكى كثرت المؤلفات المستوعبة فى كل فن ، والموسوعات الجامعة لكل علم ، ولست فى هذه الصفحات مؤرخا للنهضة العلمية فى زمن المماليك (١) ، فلذلك مجال شاسع ،

---

(١) المقصود المماليك البحرية والبرجية ، أى التركمان والجركس ، أما مماليك العثمانى فسيجىء الحديث عن عهدهم .

برز فيه نفر من كبار الباحثين ، ولكنى أتحدث عـن بطولة نفر من كرام العلماء حملوا أمانـة الحق ، إذ جهروا بالصدق ، وكافحوا الباطل مكافحة من يعلـم دعوة الاسلام الصريحة للأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، فكانوا قادة شعوب ، ومصابيح ليل .

ونحن نعلم أن الحاكمين من المماليك كانوا كل شىء فى الدولة ، وكان أتباعهم من الأمراء ورؤساء الجند ، لا يتقيدون بدستور يلزم ويلجم ، إذ يكفى أن يكون الأمير موضع الرضا من السلطان حتى يبطش ويقهر ، ويفرض الأتاوة كما يشاء ، بل أن نهب المتاجر ، وسلب الأموال ، وتفتيش منازل من يتوهم لديهم الثراء للاستيلاء على كل ما يجدونه من مدخرات ، كان ذلك كله يمضى طبيعيا دون اعتراض ، وكأنه أمر مشروع ! أقول دون اعتراض من السلطان ومن بيدهم الأمر ، إذ أنهـم فى أكـثر الأمور كانوا محرضين موجهين ، فكيف يحرصون بعد ذلك على احقاق الحق ، ونصرة المظلومين .

فى هذا الجو القاتم الخانق كانت رسالة علماء الدين فى احقاق الحق تواجه من الصعوبات القاسية أشق مـا تواجه رسالة حق مجردة من السـلاح ! وكان العـالم فدائيا بالمعنى الـدقيق ، لأنه يصـدع بأمر الله بـين جبابرة مارقين .

نعرف جيـدا أن للعصر المملوكى فى مصر حسناته ، فهو الذى دفع التتار عن بلاد الاسلام بعامة ، إذ أنزل بهـم أقوى الهزائم الماحقة ، بعـد أن زحفوا كالسيول الساحقة ، تدمر ما تأتى عليه ، وبعد أن حولوا ممالك الشرق أطلالا تنعق فى آفاقها الغربان والبوم ، كمـا نعرف أن ابطال هذا العصر قد أنهوا الهجوم الصليبى، وقطعوا دابره قطعا لا رجعة بعده ، فأعادوا الى البلاد استقلالها الزاهر .

كما نعرف أن من السلاطين من رصد الأوقاف الكثيرة على وجوه البر والاحسان ، وتشجيع الدروس الدينية، وبناء المساجد ، واحياء العلوم والآداب ! ولـكن ذلك كله يضيع سدى أمام احتقار الحاكمين لأفراد الشعب . إذ يغصبون أموالهم كما يشاءون دون اكتراث ، كمـا لا يحاولون اشراكهم فى رأى ، أو الاستماع الى نصيحة مخلصة يبديها صادق غيور .

فاذا قاموا بتعمير مسجد ، أو بناء مستشفى ، فانهم لا يفعلون ذلك لأنه حق واجب ، بل ليكونوا متفضلين محسنين فحسب .

وفرق بعيد بين أن يتعلم الانسان لأن من حقه الطبيعى أن يتعلم فى وطنه ، وأن يعالج المريض لأن من حقـه

أن يعالج ، وبين أن يتعلم ويعالج احسانا وتفضلا من الحاكمين ، هذا الى غير ما ابتلى به الشعب من فرض الضرائب الفادحة ،وانتشار الأوبئة الماحقة ، وجفاف النيل فى سنوات تتعاقب ، فتحدث من المجاعات الفاجعة ما تقشعر لهوله الأبدان ، حين تقرأ ما دونه المؤرخون من فظائع القحط ، وأهوال الجوع ، وانتشار الغــلاء ، والشر يدفع الى الشر ، فقد جلبت هذه المجاعات مختلف الأوبئة القاتلة ، فانتشر الطاعون ، ودفن المئات من الموتى فى اليوم الواحد ، وتجرأ العصاة من شذاذ العربان وقطاع الطرق ، فنهبوا ما وقعت أيديهـم عليه مــن القوت الضرورى لأناس يكتفى أحدهم بالكسرة اليابسة فى اليوم الطويل ! والسلاطين والأمراء من وراء ذلك كله يبطشون بلا وازع ويحكمون بلا قانون .

فاذا استطاع علماء الأزهر من المدرسين والقضـاة أن يقفوا أمام الطغيان مطالبين بانصاف الرعية فهم أبطال مناضلون .

وقد كان من حظ العلماء فى مطلع هذا العصر ، أن يظهر بينهم رائد مثالى يصدع بالحق ، وهو العــز ابن عبد السلام ، وتاريخه السياسى أنبه من أن يدل عليه ، وقد بسطت طرفا منه فى غير هذا المكان (١) ،

---

(١) علماء فى وجه الطغيان للمؤلف (٦٤ ــ ٧٠) .

إذ قدر عليه أن يحمل راية الحق فى وجوه مخالفيه مهما أفزع سلطانهم ، وامتد جبروتهم ، كما قدر عليه أن يعيش حقبة حرجة من أصعب الحقب فى تاريخ الاسلام ! وأى حقبة أشد هولا من زمن الهجوم التترى والزحف الصليبى ، والاندحار الأندلسى •

ولعل مما أفزعه أن يعيش فترة فى دمشق ليرى صاحب أمرها يصالح الصليبيين ، ويستنصر بهم على أخيه الملك المسلم • ثم يحدق بعينيه فيشهد جنود الفرنجة يشترون السلاح من مسلمى دمشق ، ليحاربوا به اخوانهم فى الدين ! أيجوز أن يسكت عن هذه المآثم، كما سكت سواه ؟

انه ليخطب فى المسجد منددا بمن يتخذ أعداء دينه أولياء ، ومحرما بيع السلاح لصليبى يحارب الاسلام •

وكانت النفوس هائجة ، والأعصاب متوترة، فأحدث ضجة أفزعت الحاكم الضال ، وحاول أن يبطش بمن ندد به ، ولكن باطله السافر ، كان أعجز من أن يقف فى وجه العز داعية الحق ، وكل ما استطاعه أن حمله على الهجرة الى مصر ، فرحل اليها مستريح النفس ، ليواصل دعوته الحرة ، وليصطدم بأقوى سلطان عرفه العصر المملوكى ، وهو الظاهر بيبرس ، إذ خالف أمره

حين هم بفرض الضرائب على الشعب الكادح، وجواريه ونساؤه وغلمانه وأشياعه من الأمراء والجند يملكون من قلائد الذهب وحلى الفضة ما يكفى بعضه لأعداد الجيش وتهيئة السلاح .

وانتصر الرجل بعون الله فى أولى معاركه انتصارا دفعه الى معارك مماثلة كللت بتوفيق الله ! وضربت للعلماء مثلا باهرا فى العزة الاسلامية ، والحرية المثالية ، حتى رأينا من هؤلاء الأماثل من ينهجون نهجه فى شموخ واعتزاز ، ولا يتسع المجال للاحاطة بمواقفهم البارزة ، ولكننا نكتفى ببعض الأمثلة التى تصور دور علماء الدين فى مجابهة الطغيان ، ولن نعتمد على روايات ضعيفة ، أو أخبار مرجوحة ، ولكننا نستدل بما سطره مؤرخو العصر ، مجمعين على حدوثه ، دون أن يشذ واحد منهم بتشكيك يوقع بعض الريب ! واذا أجمع المؤرخون على تأييد هذه الأحداث، فذلك ما يسوء قوما يؤذيهم أبلغ الايذاء ، أن تذاع مآثر العلماء ، فيخضعون الرءوس محزونين .

- ٢ -

مات العز بن عبد السلام ، فنهض بعده من كبـــار العلماء من يحذو حذوه ، بل من يعيد دوره فى معضلات أيامه بأعيانها ، فقــد ظن الظاهــر بيبرس أن انتقال العز بن عبد السلام الى جوار ربه يبيح له أن يستحل ما حرمه العز حين نطق باسم الشريعة الاسلامية ، فاشتد فى جمع الضرائب والمكوس ، حتى جرد كثيرا من التجار من أموالهــم ، وسلط أعــوانه من العســكر يغصبون ويسلبون ، دون مراعاة لوجه العدالة ، بحجة أن الدولة ذات أعداء ، وأنها تتهيأ لحرب تتطلب السلاح .

وقد زاد هؤلاء الناهبون بغيا على بغى ، حين سلطوا سياطهم وأدوات تعذيبهم على الناس ، كى يستخلصوا ما يزعمون أنــه مستتر لديهم من الأمــوال ، فاضطر الامــام الورع ، محيى الدين النــووى ، أن يكتب الى السلطان بما شاهده من ظلم الجباة ، وارهاق الناس ، وعسف العمال من رجال السلطان ، مقررا أن ما أمر به السلطان جنوده عسف وظلم ، وأن الدولة لن تصان بغير العدالة والانصاف ، وكان الظاهر يخطىء وجهة نظره الى النووى ، اذ ظنه شــابا يتطلب حســن السمعة بين الناس بما يواجه به السلطان ، وأن العــز ذو أشــياع يسيرون خلفه ، ويبذلون أرواحهم فداءه .

أما محيى الدين فقد نجم من الأرض فجأة ، وعلى الظاهر أن يأخذ على يديه قبل أن يصير ذا شأن ! ذلك ما ظنه الظاهر ، فلجأ الى التهديد ، ورد على الشيخ بكتاب يحمل الانكار والتوبيخ ، وأنه يتدخل فيما لا يعنيه حين يدافع عن قوم بخلاء أشحة ، لا يعرفون سبيلا للخير ، وبالغ السلطان فى تهديده موعدا منذرا ، ومخوفا من بطشه الكاسح ، اذ لا يسمح لأحد أن يقف فى وجهه وهو صاحب الأمر والنهى فى مصر والشام ، وقد ظن أن المسألة قد وقفت عند هذا الحد ، وأن النووى سيحبس لسانه فلا ينطق ، ويمنع قلمه فلا يكتب ، ولكنه ينتظر أمدا غير بعيد ، فيجد محيى الدين النووى يرسل له الرد الواضح الصريح دون تهيب ، اذ يقول فى صراحة واعتداد .

« أما تهديد الرعية بسبب نصيحتنا ، وتهديد طائفة من العلماء فليس هو المرجو من عدل السلطان وحلمه ، وأى حيلة لضعفاء المسلمين فى الناصحين للسلطان ولهم ! ولا علم لهم به ، وكيف يؤاخذون به لو كان فيه ما يلام عليه ، وأما أنا فى نفسى فلا يضيرني التهديد ، ولا أكثر منه ، ولا يمنعني ذلك من نصيحة السلطان فاني أعتقد أن ذلك واجب على وعلى غيري ، وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله تعالى ، فانما هذه الدنيا متاع ، وأن الآخرة هي دار القرار ، وأفوض أمرى

الى الله ، إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رســـــول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنـــا ، وألا نخشى فى الله لومة لائم » .

جاء الخطاب الى الظاهر ، فأوقعه فى حـــيرة ، لأنه يعتقد فى أعماقه أن كلام الرجل صــائب ، فهو يعرف تمام المعرفة بطش الجبـــاة وقسوتهم ، وتأتيه أنباء السلب والتعذيب فيصم أذنيه عنها ! وقد قام النووى بواجب النصيحة الإسلامية متبعا أمر ربه الذى يســأله السلطان النصر ، ويترجى تأييده فى حوالك الخطوب .

وكان فى السلطان استجابة للخير فجمع الجباة وأشار عليهم بالرفق والملاينة ، وحذرهم غضب العلمـــاء ، ولكن الحاجة ـ بعد ـ الى المال لا تنفد ، فالسلطان يقيم المشروعات ويعطى الهبات ، ويعيش أتبــاعه فى بذخ مفرط ، ولابد من فرض الضرائب دائما ، بل لابد من سلب المتاجــر ، لأن الضرائب حق اذا حددت بقــدر ، وقيدت بزمن ، أما اذا كانت عملا مستمرا لا تحديد معه فى قدر أو زمن ، فهى نهب صريح ، وقد انتهز السلطان بادرة سفره الى تأديب بعض العصاة ، ومحاربة من هجموا على أطراف الدولة من الأعداء ، فاعلن أنه فى حاجة الى المال ، واستفتى بعض العلمــاء فى ذلك ،

بحجة أنه ذاهب الى نصرة الاسلام فأجابوه ، ولكن محيى الدين يمتنع عن الفتوى • فتسرع الظاهر ، وعقد اجتماعا عاجلا لأصحاب الوجاهة من الأمراء والقضاة، ليناقش النووى فى امتناعه ، ليظهره فى صورة المخذل عن قتال الأعداء ، ومجالدة الكفار ، وانعقد الجمع الحاشد ، وصاح السلطان بالشيخ : لماذا لا تجيز أن تجمع الأموال من المسلمين لننفقها فى الجهاد كما أجاز ذلك زملاؤك الأئمة والقضاة ؟

فدهش السلطان دهشة مفاجئة ، حين سمع النووى يقول : كلنا نعرف أن لديك ألف مملوك ، كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية : لكل جارية نصيب من الحلى ، فاذا أنفقت ذلك كله ، وبقيت مماليكك بالثياب الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى ، فهنا ـ فقط ـ أجيز لك أخذ المال من الناس !

صرخ الظاهر فى انفعال : أخرج من بلدى إذ لا يجوز أن تساكننى فى دمشق ، فقال النووى : ومن أدراك أنى سأقبل المقام لديك ، لابد من الرحيل ، ثم انسحب من المجلس فسار وراءه نفر من العلماء ، ووجم السلطان حين نظر قوما يسيرون مع الشيخ ! فتذكر العز بن عبد السلام ، وآثر الانقياد •

- ٣ -

لا زلنا فى العصر المملوكى ، نرسم بعض الأدوار المجيدة لعلماء الاسلام ، من رجال القضاء ، ومدرسى المساجد ، إذ ليس الأزهر وحده حينئذ هو المسجد الجامع ـ وأمامنا الآن فقيه شجاع ، من طراز العز والنووى هو العلامة الفقيه القاضى الورع ابن دقيق العيد ، وقد نشأ عزوفا عن المناصب البراقة ، مؤثرا للبحث العلمى وحده ، ولكن تهالك الأمراء على التدخل فى شئون القضاة ، وخضوع بعض الضعفاء لمآربهم الظالمة ، دفعه الى أن يقبل منصب (قاضى القضاة) وأن يجمع نوابه من قضاة الأقاليم ، ليحذرهم أن يستجيبوا لغير ما يؤذن الحق ، وقد كتب منشورا دوريا ، يحرم أن يحيد القاضى قيد شعرة عن حق الله ثم جاء الدور عليه شخصيا حين وجد نائب السلطنة الأمير (منكوتمر) يغتصب الأموال بغيا دون حق ، ويحتال لذلك بما لا يخفى على مثل ابن دقيق العيد .

وقد رفعت اليه قضية خلاصتها أن تاجرا كبيرا من التجار مات وترك وراءه ثروة كبيرة ، فرأى (منكوتمر) أن يدعى أن لهذا التاجر شقيقا عينه بنفسه ، ليكون

الوارث فى الظاهر ، ثم ليستولى الأمير على الميراث من بعد ، لقاء مكافأة يسيرة !

ورفع الأمر الى ابن دقيق العيد ، ظانا أن الحيلة ستنطلى عليه ، واختار أحد كبار خاصته ليبلغ القاضى رغبته فى التعجيل دون تأجيل ، وجاء الرسول ليبالغ فى التطلف ، وليبلغ ابن دقيق أن الأمير (منكوتمر) مهتم بإنصاف الأخ الشقيق ، وأنه يشهد بنفسه أنه أخوه ،وعلى القاضى أن يثبت هذه الاخوة ليأخذ كل ذى حق حقه !

ولكن ابن دقيق قال للرسول : وما قيمة شهادة (منكوتمر) فقال مأخوذا : هو عندنا وعندكم عدل يا مولاى ؟ فضحك ابن دقيق مستهزئا وقال : سبحان الله ! هو عندكم عدل ! ثم أنشد قول الشاعر : ـ

يقولون هـذا عـندنا غـير جائز

ومن أنتم حتى يكون لكم عند !

وقال أبلغ الأمير أن ذلك احتيال ! ! ولكن الأمير طامع ، والميراث كبير ، فعاود الوساطة ملحا ، فجمع ابن دقيق قضاة القاهرة ، وقال : أشهدكم أنى عزلت نفسى بأسم الله ، قولوا للسلطان يول غيرى ! ولزم بيته ، وانتشر الخبر بين الناس ، ووصلت الضجة الى السلطان ،

فجمع نائبه موبخا وقال : لقد تسببت فى سوء السمعة ! ماذا أقول للناس وقد اعتزل ابن دقيق ! ثم أرسل اليه محلفا أن يعود الى عمله ، وليس لنائبه معه أى كلام !

وتم ما أراد ابن دقيق ، فرجع نائبه الى القضاء ! وأرسل الى جميع نوابه فى ديار مصر ألا يستجيبوا الى غير الحق ، وأنه وقف موقفه من الأمير ليضرب لهم المثل وعليهم أن يعرفوا أن المنصب زائل ، وأن الله مطلع ، وأن متاع الحياة الدنيا قليل ! وأن الآخرة هى دار القرار .. وكانت رجة عالية الدوى بين الناس !

— ٤ —

أما ثورة قضاة المذاهب جميعا على الحاكم ، فتتمثل فى قضية ذات رنين ، شغلت المجتمع المصرى أمدا طويلا، وتدخل فيها السلطان الرهيب (قانصوه الغورى) تدخلا غير مشروع ، إذ حكم بنفسه بما يخالف فتوى العلماء ، ثم بادر بالتنفيذ ظالما غير منصف ، وذلك لا ينقص قدر هؤلاء الذين عارضوه وجابهوه ، ثم لم يجدوا الاستجابة من جبار يركب رأسه دون استحياء .

لقد نمى الى (صاحب الحجاب) وكان يقوم بمهمة مدير الأمن ، أن رجلا من الناس يأتى بيت صديقه فى غيبته ، وأنه على صلة منكرة بزوجته ، فراقب الحاجب المنزل ، وداهم العاشقين ، وما زال بهما ضربا وتبريحا حتى أقرا بالفاحشة ، فحملهما على حمارين ـ كالعادة حينئذ فى التجريس ـ وطيف بهما على الناس ، ووراءهما حشد من الرعاع لتعلن فضيحتهما على الناس وفرض عليهما ضريبة فادحة أدياها .

وكان من المنتظر أن يقف الأمر عند هذا الحد، ولكن السلطان الغورى علم بما كان ، فحول المسألة الى القضاء ! ونظر القاضى المختص ، وناقش المتهمين ، فعرف أن اقرارهما كان بالاكراه تحت سياط ظالمة ، وعلى ذلك فلا حد ، ثم أخذ رأى زملائه فأجابوا جميعا

بأن الرجوع فى الاقرار يسقط حد الزنا ، ولكن قانصوه الغورى لأمر فى نفسه صمم على أن يرجم المتهمان ، ودعا علماء مصر وقضاتها الى مجلس خطير تصدره بنفسه ! وكان العلماء على بينة من مكيدته ، فأجمعوا على أن يقولوا كلمة حق دون مبالاة ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام زكريا الأنصارى ، وهو مع سنه العالية ذو رسوخ وإيمان وعزيمة ، ولم يشأ الغورى أن يترك النقاش حرا يجرى على سنن مستقيم ، فيدلى كل عالم برأيه دون ارهاب ، ولكنه تنمر محتدا ، وصاح بشيخ الاسلام فى مبدأ الاجتماع يقول غاضبا :

كيف يا شيخ زكريا ، يضبط رجل فى منزل عشيقته ، ويقر بالجريمة ، ثم يتراجع فتقرون أنتم بالرجوع ؟

فسكت زكريا الأنصارى كمن يريد أن يهدىء السلطان قليلا حتى يراجع نفسه فلا يشتط ، فقلب الغورى عينيه فى الحاضرين ، وقال لهم ماذا ترون ؟ فانبرى أحد القضاة يقول : للمعترف بالزنا أن يرجع عن اعترافه ، وقد كان رسول الله ﷺ يراجع المعترفين فيقول لأحدهم: لعلك كذا ، ولعلك كذا ، ليفسح السبيل ويدرأ الحد بالشبهات !

فاحمر وجه الغورى ، وتوقدت عيناه غضبا ، وصرخ

يقول : أنا ولى الأمر ، ولى الحق فى اصـدار الحـكم بالرجم ، وليس لكم أن تقفوا أمامى باسم الدين !

وظن الحاكم المستبد أن قوله هذا سيقطع كل اعتراض ولكنه فوجىء بمن يصيح به من القضاة قائلا : لك الحق أن تصدر الحكم اذا كان متفقا مع الشرع ، فان أصررت على رجم المتهمين ، فأنت مذنب وعليك ديتهما ٠

ارتج المجلس ، وهاج الأمراء من المماليك ، وتطور أحمقهم فهجم على القاضى الجرىء ، وسحبه من ثيابه وأجبره على الخروج ، وأزبد السلطان مرعدا ، واتجه بحديثه الى شيخ الإسلام زكريا الأنصارى يقول له : مـا رأيك أيها الشيخ ؟

فقال زكريا : الرجوع بعد الاعتراف يسقط الحق ، وجمهور الأئمة على ذلك دون خلاف ٠

فتبسم الغورى تبسم المستهزىء وصاح متهكما ! أهذا ما يرضى ذمتك يا شيخ الإسلام ، فقال الشيخ زكريا فى قوة ، ويرضى ذمم العلماء جميعا ، وأولهم امام المذهب وسـاكن مصر الشـافعى رضى الله عنه ، وذمتـه فوق التجريح ٠

لم يتحمل الغورى سطوة الحق ، وخرج عابسا ، ودعا بالمتهمين فأمر برجمهما ، وأصدر قراره بتشريد القضاة الى أماكن نائية ، مع الاعتداء بالضرب على من جهر بالحق ، فاشتعل غضب العامة ، ولزم الفقهاء بيوتهم متذمرين ، وكانت قطيعة واجبة أمـــام متعسف يركب هواه ، ويتدخل فى القضاء دون مبرر ! ولم تمض أيام حتى فوجىء بهجوم خصمه السلطان سليم الأول على مملكته فهرع للدفـــاع ! ودارت الدائرة عليـــه فلقى مصرعه ، حين تلاقى ظالم جبار بظالم جبار فى مـــرج دابق ! ولـــكل شر انتهاء •

هذه صفحة من بطولات العلماء فى أســـود عهـــود الاستبداد ، ولها نظائر كثيرة يجدها القارىء فيما يلى هذا البـــاب •

فى العصر العثمـــانى

زاد انحدار الأحوال سوءا فى العصر العثمانى ، لأن السلطة فى العصر المملوكى كانت فى يد طائفة واحـدة هى المماليك ، ولكنها صارت فى يد فريقين متنابذين فى العصر العثمانى ، هما سلطة تركيا ، ويمثلها الوالى المختار من الآستانة ، وسلطة المماليك ، وهم ينظرون بعين الكراهية والحقد الى الوالى ، ويحاولون البطش به اذا أنسوا من الدولة العثمانية انصرافا عن الشئون المصرية ، اذ كان حالها كما وصفه الأستاذ محمد فريد أبو حديد بقوله :

« وبلغ الاضطراب معظمه فى أوائل القرن الثامن عشر ، إذ كانت الدولة العثمانية تعالج ما أصابها فى اسمها وكيانها ، وتتلفت الى عدو مخيف وهو روسيا، هبط عليها من شمال البحر الأسود .

فى حين كانت النمسا تطعن جانبها من ناحية الغرب، فكانت لا تستطيع أن تمد يدا الى ممثلهـا فى مصر ، لتنصره على الأمراء المماليك الذين ظلوا مع مضى السنين والقرون لا ينسون ذكرى موقعة (مرج دابق) ولا يغيب

عن أذهانهم أن سليمان العثمانى قد عدا على دولة أسلافهم المجيدة فاغتصبها ، ونقل عنها ما كان لهـا من عـز وعظمة ، وأصارها الى ما صـارت اليـه من التبعية والصغار ، فكانوا اذا رأوا ضعف الدولة واشتغالها بما أصابها فى أوربا لا يتركون الفرصة ، ولا يدعونها تفلت من أيديهم بغير أن يستعيدوا شيئا من الأمر الذى سلب من أسلافهم منذ قرنين » .

هذا النزاع بـين ممثلى الـدولة العثمانى وأمـراء المماليك ، كان ذا أثر سيىء على الشعب ، لأن الوالى اذا اشتد أزره بمعاونة من قد ترسلهم تركيا من جنود الحملات التأديبية لأمراء المماليك ! هذا الوالى ينتهز موضع قوته ، فيحاول الاثراء بما يفرضه من الضرائب والمكوس ، وقد تأتيه أوامر سلطانية من الآستانة تدعو ، الى جمع الأموال فينتهز الفرصة للغصب غير المشروع ، ليرضى دولته بقسط مما يجمع مدخرا القسـط الـكبير لنفسه ، لأنه يعرف جيدا أن مدته فى مصر لا تتجاوز العام أو العامين ، ولابد أن ينقلب الى أهله ذا ثراء بما سلب ، اذ كان من سياسة الدولة ألا تهمل واليا أكثر من أمد محدود ، كليلا يشتد قوة فيحاول الاستقـلال بالبلاد .

أما أمراء المماليك فيفتحون عيونهم جيدا الى مقدرة الوالى ، فان أنسوا منه الضعف ، وتراخت الدولة عن اسعافه لما يدهمها من الأحداث من أوربا ، فانهم يستأسدون ويعلنون جبروتهم ، ويرسلون عيونهم الى التجار ، وأصحاب الثراء متلمسين من تظهر عليه آثار النعمة كى يسلبوه كل خير !

وتلك حال محزنة حقا ، لأنها تجعل الشعب الأعزل بين شقى الرحى ، وقد تكالب عليه الشر من شمال ويمين ! ولكنه مع ذلك لم يهن ولم يتضعضع ، ووجد فى علماء الأزهر من أخذوا بناصره ، ومن قادوا غضباته المتوالية فعبروا عن سخطه فى مواجهة الوالى تارة ، وفى مغاضبته الأمراء تارة أخرى ٠

وتاريخ الجبرتى ملىء بأحداث رائعة تكتب بالذهب حين تسجل كفاح علماء الأزهر فى هذا الليل الحالك ذى الارهاب ! ومع أن كتاب الجبرتى قد تعددت طبعاته، وانتشرت نسخه فى الشرق ، وترجماته فى الغرب ، بأن من يكتبون تاريخ مصر بعين الهوى المغرض، يحاولون أن ينسوا كل ما ذكره هذا المؤرخ المنصف عن كفاح العلماء فى وجه الطغيان ، وكأنهم يستشعرون راحة نفسية حين ينتقصون الشعب ويرونه بمعزل عن أحداث

عصره ، بل يسرهم كل السرور أن يعلنوا أنه كان صاغرا مستكينا يرحب بالضيم ، ولا يرى وجها للمطالبة بحقه المشروع فى العدالة والانصاف .

ومنهم من يفترض الفرض الكاذب ويراه حقا صريحا ، يحاول تعليله بأنه مماثل ، وذلك حين يزعم هؤلاء المغرضون أن طبيعة الشعب المصرى أن يستكين، لأنه تعود الذلة منذ أجيال ، ولأن دينه يفرض عليه الرضا بالقدر خيره وشره ، وذلك باطل صريح ، لأن الشعب المصرى فى حكم الطولونيين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك ، لم ينظر للحاكم على أنه دخيل أجنبى ، ولكنه نظر اليه باعتباره مسلما يحكم شعبا مسلما فرضى به ! بدليل أنه أعلن الثورة الهائجة على نابليون فيما بعد ، وعده دخيلا أجنبيا لا طاعة له .

بل أن نابليون قد عرف ذلك حق المعرفة ، فتظاهر بالاسلام ، وادعى اعتناقه ، ليسكت الغضب الثائر ، فلم ينخدع الشعب اليقظ بشىء مما كان !

أما الرضا بالقدر دون أخذ للأهبة وتحفز للكفاح ، فليس من الاسلام فى شىء ، وتاريخ هذا الدين منذ ظهر نوره فى مكة سلسلة من النضال الباسل ، والوقوف أمام

الطغاة ، حتى استطاع أبناء الحنيفية أن يسيطروا على القارات الثلاث فى أقل من قرن واحد ! فكيف ـ بالله ـ يقال إنه دين تخاذل وانكسار ، إلا اذا أعمى الغرض العيون ، فضلت طريق الصواب •

ويطول القول لو حاولنا أن نتتبع ما ذكره ابن اياس والجبرتى من بطولات العلماء أمام الطغيان ، فلابد من اختيار وقائع ذات دلالة بارزة ، لتكون بشجاعتها النادرة مثلا لأمثلة كثيرة ، وسنلم بنماذج من كفاح العلماء للفريقين المتنابذين ، فريق الأمراء وفريق الولاة ، ليكون الدليل صريحا ملموسا لا يقبل أدنى مراء •

ونختار الشيخ أحمد الدردير ، العالم الورع الشجاع، وشيخ شيوخ المالكية فى عصره ، وصاحب الحواشى الشائعة بين الأزهريين ، لنكتب صفحة من كفاحه المتواصل ، إذ حمل أمانة الجهاد ، وقاد الأمة الى حقها دون نكوص ، ولم يخضع لعوامل الاغراء من قوم يظنون المال والمنصب مما يحرص عليهما ورثة الأنبياء الحقيقيون ، ولكن الحقيقة السافرة قد بددت هذه الظنون •

ذكر عبد الرحمن الجبرتي في أحداث شهر جمادى الأولى

من سنة ١١٩١ هـ (١) أن بعض الأوقاف الخاصة بطلبة العلم بالأزهر ، من فريق المغاربة ، الذين تركوا بلادهم ووسعتهم مصر بأوقافها ومساجدها ودورها وعلمائها .

بعض هذه الأوقاف كانت هدف اعتداء ظالم من أحد الأمراء الكبار ، ويدعى يوسف بك ، فاضطر المستحقون أن يلجئوا الى القضاء فحكم لهم بما يستحقون ، وعز على الأمير الظالم أن يمتثل لأمر القضاء فرفض الحكم ، وزاد فدفع شيخ المغاربة الى السجن جزاء مطالبته بالحق ، وفوجىء الطلاب بما نوى الأمير من شر ، فاتجهوا الى أستاذهم الدردير ، فلم يظن أن الأمير جاد فى تهديده ، وكتب اليه خطابا رقيقا يسأله أن يترك الطالب دون اعتقال ، وما كاد خطاب الشيخ يصل الى الأمير على يدى طالبين من طلابه ، حتى هاج وزمجر ، وأمر بالقبض على الطالبين اللذين يحملان الرسالة ، وزجرهما زجرا عنيفا وفاه بما لا يليق .

قال الجبرتى : « ووصل الخبر الى الشيخ الدردير وأهل الجامع ، فاجتمعوا فى الصباح وأبطلوا الأذان والدروس والصلوات ، وأوصدوا أبواب الجامع ، وجلس المشايخ بالقبلة القديمة ، وطلع الصغار على المنارات

(١) الجزء الثانى من تاريخ الجبرتى ص ٨

يكثرون الصياح والدعاء على الأمراء ، وأغلق أهل الأسواق متاجرهم » .

اضطر الأمراء الى أن يحسموا الشر حين رأوا علماء الأزهر يلتفون حول الدردير ، ويقودون حركة مقاومة ناجحة ، فأرسلوا الى يوسف بك فأطلق المسجونين ، ونادوا بالأمان ، لتفتح الحوانيت ، ولكن شغبا تجدد بين الطلاب وبعض الخصوم ، فقامت معركة دموية ضاعت فيها أرواح من الفريقين ، واستفحل الشر ، وزاد الهرج ، فتزعم الدردير ثورة الانتقام ، ووقف وراءه التجار وطوائف البلد .

فخاف الأمراء أن تصل الأنباء الى السلطان وأن يعجل بالانتقام ، واجتمعوا للتشاور ، فأرسلوا أحد كبرائهم الى الشيخ السادات ، فحذرهم من مواجهة العلماء ، ودعا بمن يرسله الى الثائرين كى يحضروا من يمثلهم ، والشيخ السادات ضامن كفيل ، وبعد رد وأخذ اجتمع الفريقان فى مسجد المؤيد ، وخضع الأمراء الى ما طلبه الشيخ الدردير من الرجوع الى الحق ، وأن يبتعد أتباع الأمراء عن المرور بحى الأزهر ، إذ هم مبغوضون منبوذون ، وكتبوا كتبا تشهد بالصلح وعدم الاعتداء ، وانتهت المسألة بانتصار الدردير .

يقول الأستاذ محمود الشرقاوى تعليقـا على هـذا الموقف .

« لم يكن فى هذه الفترة من تاريخ مصر من يستطيع أن يقف مثل هذا الموقف مع أحد من المماليك ، ولا مع تابع من أتباع المماليك ، ولم يكن أحد من العامة ولا من الخاصة مستطيعا فى هذه الفترة من تاريخ مصر ، أن يرد مبعوثا بعث به يوسف بك ، أو أن يصيح من فوق المنبر بالدعاء على المماليك ، أو أن يكتب الى أحـد منهم كتابا ينبهه فيه الى أمر يقضى بعدم التعرض لأهل العلم ومعاندة الحكم الشرعى » .

الى أن قال الأستاذ الشرقاوى (١) : « ولا يظن ظان أن أهل الأزهر كانوا فى غضبتهم نفعيين تحركهم الزغائب والمصلحة الخاصة حين يغضبون فى أمر أوقافهم إذ أن فيما يذكره الجبرتى فى صفحات كثيرة من تاريخه ، ما يظهرها على أن أهل الأزهر كانوا يغضبون أشد الغضب فى أمور الله لا لمنفعتهم الخاصة » .

وما توهمه الأستاذ الشرقاوى رحمه الله ممتنع ، لأنه يعرف جيدا أن الدردير وعلماء الأزهر لم يثوروا لانقطاع أرزاقهم ! ولكن الطلاب من المغاربة قد لجئوا

---

(١) مجلة الازهر المجلد ١٩ ص ٢٦١

اليهم فوجب عليهم أن يأخذوا بناصرهم ، فالأمر ليس أمــر الأساتذة ، ولكنه أمر نفر من الطلاب ، بدليل أن الشيخ الدردير قد تابع مواقفه النضالية فى ظروف لــم تكن أسبابها ترجع الى أحد من أبناء الأزهر ، بل الى نصرة الحق المهتضم على أيدى الغاصبين ٠

ففى بعض الأيام الأول سنة ١٢٠٠ هـ قام طاغية من طغاة المماليك ، ومعه طائفة من جنوده باقتحام دار آهلة ، رآى عليها معالم الثراء ، فنهب وأخــذ ما فيها عنوة ، فجزع الناس وتجمعوا طوائف ، واتجهوا الى الأزهر الشريف ، فقابلوا الشيخ الدردير ، فغضب غضبا شديدا ، وقال : أنا معكم ، ولابد من الانتقام ٠

ثم أوصد أبواب الجامع الأزهر ، وصعد المؤذنون الى المآذن يضجــون ويدقون الطبول ، وتــلك وسيلة الاعلام آنذاك لاذاعة الخبر الكريه ، فانتشر الناس من كل فج حتى ملأوا الأسواق ، وأوصدت المتاجر ، وخرج علماء الأزهر ، وعلى رأسهم الدردير ، وقال : لابد أن نسير الى بولاق حيث يسكن هؤلاء الأمراء ، ولابد من نهب بيوتهم وسينصرنا الله عليهم أو نموت شهداء ، وفزع شيخ البلد ابراهيــم بك ، فأرســل الوفود الى الدردير ، وطلب أن يرسل قائمة بجميع ما نهب حتى يرده ، وقد كان ٠

ولم تكد تمضى مدة يسيرة ، حتى جد حادث مماثل فى طنطا ، إذ كان أحمد الـدردير يزورها فى المولـد الأحمدى ، فجاء كاشف الغربية ، وفرض على الناس ضرائب ثقيلة لا طاقة لهم بها ، ثم استاق كثيرا مما أمامه من إبل وماشية وعروض تجارة ، غير عابىء بضجيج العامة وصراخ النساء ، فـركب الشيخ الى الـكاشف ووراءه حشود الناقمين ، وناداه لائما مهددا .

وخرج الناس عن طورهم فضربوا من بالمـنزل ، ورجموا أهله بالطوب ، وقامت فتنة كبيرة ، فتراخى الكاشف وفزع يطلب الصلح معتذرا عما كان ، وسافر الدردير غاضبا الى القاهرة ، فأذاع ما رأى وسارع الى ابراهيم بك يعلمه بما كان ، فأخذ يبـدى اعتـذاره والشيخ ثائر لا يهدأ .

لقـد كان علمـاء الأزهـر لسان الشعب حقا ، واذا غابت صحيفة جهاد هؤلاء من أخبار ابن اياس والجبرتى فقـد سـجل التاريخ عار الأبـــد على قـوم يظلمون فيستكينون .

ولكن الله قـد حفظ لهذا الوطن العزيز أبطاله الكبار ، فحملوا أمانة الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وهم بازاء همج لا يعرفون للكرامة معنى .

فالأمير من المماليك قد نشأ على حب نفسه فحسب، وقد خيل اليه أنه كلما ازداد مالا وأتباعا وعبيدا عـلا صيته ، وتمهدت الأمور الى رآسته الكبرى ، ومن أين يأتى الثراء إلا من عـرق الشـعب الـكادح ، فلينهب المتاجر ، وليقتحم المنازل ، وليسرف فى العدوان ! غافلا عن انتقام الله ! وقد كان الانتقام الساحق فى الحملة الفرنسية ، حين حصدت فلول الأمراء فى أول لقاء •

ونترك الشيخ الدردير ، الى عالم كبير ، هو الشيخ عبد الله الشرقاوى ، شيخ العلماء ، فقد كان يملك أرضا فى بلبيس ، وجاءه أقاربه يعلنون أن محمد بك الألفى قد داهم البلدة ، وأخذ ما وقعت يده عليه ، وفـرض الضرائب الباهظة •

فاستاء الشيخ ، وعمد الى الموقف المعتـاد ، حيث عطل الدراسة بالأزهر ، وصعد المؤذنون على المآذن ، فأعلموا الناس بما جد من خطر ، فتركوا متاجرهم وتعطلت الأسواق ، ثم تزاور الشيوخ ، وتناقش العامة فى الطرقات ، حتى تم الاتفاق على الذهاب الى بيت الشيخ السادات ، وهو قريب من بيت ابراهيم بك كبير المماليـك لوقته ، ونظـر فرأى الضجة ، وانتهى اليـه سخط العلماء ومن ورائهم العامة على ما يـكابـدون من البغى •

وجاءه الطلب الصريح من قادة الأزهر بضرورة رفع الجور واقامة الشرع ، وابطال المكوس الجائرة ، فاتصل بالناقمين كالمهدد ، فقوبل بهجوم لا عهد له به ، واحتج بكثرة نفقات الأمراء ، فجابهه العلماء بأن النفقة لا تأتى عن طريق السلب ، والأمير لا يكون أميرا لأنه يأخذ ويسلب ، بل لأنه يعطى ويمنح ، فاذا كان غاصبا ناهبا فهو قاطع طريق لا أمير ، وتأزم الموقف ، وقد رجع العلماء جميعا الى الجامع الأزهر ، واعتصموا به دون أن يفارقوه الى منازلهم ، واستمرت المتاجر موصدة ، والأسواق معطلة ، والصيحات الناقمة ترتفع من المآذن .

واتصل الأمراء بالوالى العثمانى ، فأخذوا يتشاورون ثم جاءوا جميعا يعلنون خضوعهم الى مطالب علماء الأزهر ، اذ يبطلون الضرائب المستحدثة ، ويمتنعون عن مصادرة الأموال ، ونهب المتاجر ، وجاء قاضى القضاة ، فكتب وثيقة بذلك على الأمراء ، لتكون موضع الالزام ، فسجلت حقوق الانسان فى وطنه ، اذ يعيش حرا آمنا على نفسه وأهله وماله ، وقد وقعها الوالى والقاضى والأمراء ، وحفظها علماء الأزهر لتكون موضع الاحتكام .

يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد معلقا على هذه الأحداث :

« ونحن اذا بحثنا حال فرنسا قبل ثورتها ، لا نستطيع أن نرى من بوادر ثوران النفوس فيها أكثر مما بدا في أواخر القرن الثامن عشر في مصر ،فان فرنسا ظلت على ما كانت عليه من سوء الحكم ، من العبث بالحريات الى أواخر ذلك القرن ، لا بل أن سوء الحكم فيها قد زاد في أواخر ذلك القرن عما كان في وسطه ، فكانت أفاعيل لويس الخامس ، وخليلته المشئومة في أواخر ذلك القرن ، جديرة بكل حنق وغيظ ، ولكن الفرنسيين لم يثورو عند ذلك ، وانما كانت ثورتهم في أيام الملك الطيب الذى جاء في عقبه » .

ونحن ننقل حديث الكاتب عن فرنسا ، لا لنتخذ منها القدوة ، بل لنقول للناس إن الظلم منتشر في كل مكان ، وإن العاصمة التى تسمى اليوم مدينة النور ، كانت ليلا ترزح الأهوال في دياجيره بالأمس ، فالذين يحاولون انتقاص المصريين حين قهرهم الظلم في عصر من الأعصار ، عليهم أن يعلموا أن هذا الظلم من طبيعة البشر ، لا يختص به قوم دون قوم ، أو موطن دون

موطن ! واذا ظلمت وثرت على الظـالم فقد حفظت كرامتك ! وهذا ما قام به علمـاء الأزهـر فى غياهب الأحداث .

فاذا تركنا أمراء المماليك ، الى بعض مظالم الولاة من الأتراك ، فاننا نجد علماء الأزهر لم يكستوا عما يرونه من ضيم ، وصحف الجبرتى تسجل لهؤلاء فى مقاومة الولاة بطولات ذات مجد ، ومنها ما حدث فى عام ١١٤٨ هـ حين أرسل السلطان العثمانى من يعلن أمره العالى بإبطال بعض ما يصرف فى بعض وجـوه الخير من مرتبات .

وقد قرىء الأمر على من حضر من العلماء ، فى اجتماع عقد لذلك ، فبدت الدهشة على الوجوه ، اذ كيف توقف نفقات المساجد والمستشفيات ، وقد رأى القاضى التركى دلائل الغضب فقال : هذا أمر السلطان، وهو واجب الطاعة ، اذ لا يعصى أمير المؤمنين ! !

فقام العـالم الأزهرى الشـيخ ابراهيم المنصـورى محتدا ، وهو يقول للقاضى : ماذا تقول يا شيخ ؟ أمر السلطان ينفذ اذا كان يتجه وجهة الخير ! وهذه المرتبات قد أحدثها نائب السلطان لضرورة يراها ، وأمر نائب

السلطان كأمره تماما ، فلماذا نلغى أمر النائب مع نفعه ، ونطيع أمر السلطان مع ضرره !

هذه النفقات مما جرت به العادة وتداوله الناس ورتبوه على المساجد والأسبلة ووجوه الخير فيهما ، فإذا بطلت بطلت هذه الشرائع ، وأمر السلطان لا يسلم فيما يخالف الشرع !

وناصر الحاضرون من يتكلم فى جرأة ، حتى بطل المشروع .

وثانية أخرى من هذا الوادى ! فقد جاء أمر السلطان بضرورة جمع المال لإيفاد كتيبة من جنود تركيا لتحارب المماليك فى الصعيد واجتمع مجلس من العلماء وذوى الرأى ، لاقتراح الوسائل لجمع المال ،فقام الشيخ العروسى كبير علماء الأزهر لوقته ، وجهر بمعتقد الشعب الصريح فى العثمانيين والمماليك حين قال : ماذا يهمنا من نزاعكم مع الأمراء ، سيروا اليهم ، إما أن تغلبوهم أو يغلبوكم ، فلن يعود علينا شىء ! !

وكان هذا القول أكبر من أن يحتمل ، إذ أن معناه الصريح أن العثمانيين ظلمة كالأمراء ، وأن الشعب بمنعزل عن الفريقين ، وهو قول صحيح لا مرية فيه ،

ولكن الجهر به فى اجتماع رسمى يحضره حسن باشا القبودان قائـد الجيش العثمانى ، ومبعوث السلطان الى مصر ، يدل على أن الصبر قد نفذ ، وأن المسألة لا تتطلب الاحتمال ، كما يدل على أن الحق يجد أنصاره من أفذاذ العلماء .

وفى كلام الجبرتى حديث طويل ، عن مظالم مراد الطاغية ، ومجابهة العلماء له ، وفيما تقدم ما يغنى عن التطويل بذكره ، لأن الرجل ظالم بغيض .

●●●

الأزهـــــر
والغــــزوة الفــرنسية

كان الأزهر وحده هو جامعة الثقافة المصرية ، حين تعرضت البلاد للغزو الفرنسى بقيادة نابليون ، ومعنى ذلك أن علماءه كانوا ذوى التوجيه الهادف ، والزعامة القائدة بين الجمهور .

ولئن كانت الثورة العرابية بزعامة أحمد عــرابى الأزهرى الباسل ، وثورة سنة ١٩١٩ بزعامة سعــد زغلول الأزهرى الغيور ، فان هاتين الثورتين قـــد جمعتا فى قيادتهما المخلصة أبطالا مصريين ، لا ينتمون الى الأزهر ، ولكنهم يشاركون رجاله حبهم لمصر ، وعملهم على انقاذ البلاد من براثن الطغاة .

أما الزعامة الموجهة أثناء الاحتلال الفرنسى ، فقد خلصت لعلماء الأزهر ورجاله ! أقول ذلك لأن بعض الكاتبين عن المقاومة المصرية ، أثناء هذا الاحتــلال الغاشم ، قد أجهد نفسه اجهادا شديدا ليبعد بالعمــل النضالى عن الأزهر ورجاله ! وليذهب به الى شخصية واحد لا نكاد نجد له ذكر أفعــال لدى الصــادقين من مؤرخى هذه الحملة !

وهذا هو الظلم الصريح المجابه لضوء الشمس فى رائعة النهار ، لينكر أشعتها التى تضىء الرحاب وتملأ شعاب الكون !

واحترام الكلمة يلزم الكاتبين فى ميدان التاريخ أن يبعدوا بأهوائهم الشخصية عن قدس الحقيقة ، فليس التاريخ قصة تلفق فى متاهات الخيال ، ولكنه وقائع ذات شهود وأنباء ورواة ومؤرخين !

ولن يصنع الذكاء الخـارق شيئا ذا بال فى طمس هذه الحقائق ، اذ أن الـذكى مهما بالغ فى اقتـداره الاحتيالى ، سيجد من يفوقه ذكاء ويزيـد عليـه غيرة وحمية فى نصرة الحقيقة ، ولابد أن ينكشف احتياله اذا تجلت الحقائق دون لبس ، وفى ذلك خزى لمن مارى ودلس عن غرضه ، ليشبع رغبة ذاتية ترضى حاجـة فى نفس يعقوب .

لسنا ننكر ـ شهد الله ـ جهود المواطنين فى كل مكان، لأن الثورة على الاحتلال قد عمت أرجاء البلاد ، ونهض فى كل إقليم بحرى وقبلى من قاد المعارك فى شراسة، ومن جمع الناس من خلفه ليجابهوا الزحف الفرنسى، وقد شهد كتاب فرنسا أنفسهم ببطولة هؤلاء العزل من

الأحرار ، الذين كانوا يهجمون على المدافع فى الريف مستشهدين ، وليس معهم غير العصى والهروات ، كل ذلك مـدون مسطور فيما كـتب الشرقيون والغربيون معا ! ! فاذا جاء كاتب ذو غرض ليسير بالأحداث سيرا معوجا ، فقد ضل الطريق .

قـدمت الحملة الفرنسيـة فى عصر أسود ، اذ كان الطاغيتان ابراهيم ومراد يحكمان البلاد حكما رهيبا لا يعرف معنى العدل ، وكلاهما جاهل لا يعرف شيئا من أمور السياسة الدولية ، ولا يظن الدنيا تجمع قوة أقوى من قوة المماليك الذين يتبعونه ، هذا الى تهور مراد وبطشه وسفكه للدماء دون مبرر ، حتى ترك كثير من الفلاحين أرضهـم وحملوا أطفالهـم الى حيث لا يعلمون .

وقد تعلل نابليون بما حاق التجار الفرنسيين من مظالم على يد مراد ، لأنه أثقلهم بالمغارم الفادحـة فى القاهرة والاسكندرية ورشيد ، اذ كانت لهم متاجر رابحـة فى هـذه البـلاد ، فوالى مـراد استنزافهـا ومصادرتها ، حتى شكت فـرنسا صنيعه الى الـدولة العثمانية ، وقامت تركيا بتحذيره فلم يهتم ! !

أقول تعلل نابليون بذلك أمام الشعب المصرى ليبدى ستارا خادعا فحسب ، لأن احتلال مصر كان سياسة ضرورية فى رأيه ، ليقف أمام انجلترا موقف من يسيطر على مستعمراتها فى الشرق ، ويحول دون اتصالها المطرد بهذه المستعمرات ، كما أنه متنفس لفرنسا ، كى تشعر بامتدادها الاستعمارى على نحو يرضى غرورها الجشع .

وحين علم مراد بالغزو الفرنسى استهزأ به ، وظن القادمين فلولا مرتعشة ، ترجف من سطوة المماليك ، وقد عبر بذلك لقنصل النمسا حين قال : إن الفرنسيين (فستق) للأكل لا للحرب ! ثم جمع لمقاومتهم جيشا ضم اثنى عشر ألفا ، منهم ثلاثة آلاف من المماليك ، وتسعة آلاف من الفلاحين والعرب ، الذين لا يعرفون بدائه القتال ! ولا نسرف فى وصف هذه المعركة الأليمة، فقد انتصر نابليون واحتل البلاد .

نزل القائد القاهرة واثقا مفتخرا ، ومال الى الكياسة فأعلن حبه للشعب المصرى ، وقد جاء لينقذه من بطش المماليك والعثمانيين ، فهو يحب الاسلام ويقدر شريعته ، ثم أنشأ ديوانا لحكم مصر ، جعل

أعضاءه عشرة من كبار العلماء ، ليوهم الشعب أنهم الحاكمون ، وجاءت مناسبة المولد النبوى فاحتفل به احتفالا باهرا ، كما احتفل بوفاء النيل احتفالا مماثلا، يفوق ما عهد فى أيام مراد ، اذ أطلق المدافع ، وزين السفن بالمصابيح ، وأظهر ابتهاج جنده بما يشاهدون! وظن بعد ذلك كله أن الأمر استقر ، وأن الريح ستجرى رخاء فى مقبل أيامه .

أخذ أبطال المقاومة يتجمعون ، وكان الأزهر محلهم المختار ، فكدسوا الأسلحة فى أروقته وزواياه ، حتى اذا استوثقوا من قوتهم ، صعد المؤذنون ينادون بالجهاد على المآذن ، وفى مذكرات نابليون ما يثبت، أن لجنة الأزهر كانت تسمى لجنة الثورة ، وأن رئاستها كانت للشيخ السادات ، وأن علماء الأزهر كانوا يطوفون بالشوارع محرضين ، كما قدرت المصادر الفرنسية عدد الذين تجمعوا بالأزهر تحت قيادة علمائه بخمسة عشر ألفا ! وقد التقى بهم الجنرال ديبوى فقتلوه حين أطلق عليهم الرصاص ، يقول الأستاذ محمود الشرقاوى (١) :

---

(١) تاريخ مصر فى القرن الثامن عشر ص ٥٣

« ثم جاء اليوم الثانى وقد أصبح الأزهر مقر القيادة يعج بالثائرين ، وأحيطت جميع الشوارع والمنافذ الموصلة اليه بالمتاريس ، كما أخذت القيادة الفرنسية أهبتها لتحطيم الثورة وقمعها ، وطلب القائد الجديد (بون) الى نابليون أن يأذن له فى اتخاذ أقصى الوسائل صرامة مع الأزهر وقيادة الثورة فيه ، وكان الفرنسيون قد نصبوا مدافعهم الثقيلة على التلال والأماكن العالية ، التى تحيط بالقاهرة ، فلما أصبح الصبح ، كانت آلاف كثيرة قد دخلت القاهرة قادمة لنصرة الثورة فيها من البلاد المجاورة لها ، وكان الثائرون قد اتصلوا بأهلها ، وأوقفوا على أبواب المدينة حرسا منهم يأذن لهم بالدخول ، ويوجههم الى أماكنهم لتعزيز الثورة ، فقدم من الجيزة وقليوب ، والزيتون والمطرية والقبة والمرج خلق كثير .

لم تكن الثورة شيئا يسيرا اذن ، وحسبك أن تعلم أن الثائرين قد بارحوا الجامع الأزهر الى مقر القيادة الفرنسية بالأزبكية ، ومقر القيادة هو عرين الأسد ، الذى تحوطه القذائف ذات الهول ، والرصاص ذو النفاذ ، ولكن الأبطال قد تسلقوا احدى المآذن القريبة من المقر ، وأخذوا يرسلون وابلا من الرصاص ، ودهش الفرنسيون لهول المباغتة ، فجاوبوا الثائرين نارا بنار ،

ولكن المهاجمين أصروا على الضرب وواصلوه فى شجاعة غير متوقعة ، فسقطت الشرفات وانهارت الجـدران ، وكان الانتقام رهيبا ، اذ تجمع الفرنسيون ليقتحموا المسجد ، وليصعدوا الى المئذنة ، وليسلطوا المدافع على كل من يجدونه ! حتى النساء اللاتى كن يقدمن الذخيرة للثائرين ، فذهبت أرواحهن مع الذاهبين .

ولم يهدأ نابليون بعد أن تحطم المسجد مبنى ومئذنة! بل اتجه تفكيره الى المسجد الأكبر ، الى الجامع الأزهر، فحول الكتائب الزاحفة اليه ، فواصلت الضرب الصاعق من الظهر الى الليل ، ثم اتسع ميدان التحطيم ، الى حيث شمل مناطق الغورية ، والفحامين والصنادقية ، والكحكيين وباب زويلة ! وكأن المراد أن يهدم كل حى يتصل بالأزهر من قريب أو بعيد ، وهى روح انتقامية تصور ما يعتلج فى نفوس الغزاة من الحقد والتشفى ، وما يضطرم بها من الغليل .

واذا أردت وصفا لبعض ما كان على لسان الغـزاة أنفسهم فاستمع الى ما دونه (ريبو) عن هذه المعركة، ونقله عبد الرحمن الرافعى (١) .

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ ١ ص ٢٩٧ .

« أوشك الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب، فتدفن تحت أنقاضه الجماهـير المحتشـدة به ، وأصبح الحى المجاور من الأزهر صورة من الخراب والتدمير ، فلم تجد إلا بيوتا مدمـرة ، ودورا محترقة ، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين ، كان يسمع لهـم أنين موجع وصيحات مرعبة » .

ان الذين يصفون الشعب المصرى بالاستكانة والرضى بالاحتلال ، يجب أن يقرءوا ما دونه قادة الفرنسيـين أنفسهم عن ثورة هذا الشعب ، ليعرفوا أن هؤلاء الذين أنهكهم حكم المماليك ، لم يسكتوا عن التضحية بأرواحهم فى معركة يعرفون جيدا أنها غير متكافئة الأقران ، بل نقول إنهم آثروا الاستشهاد المحقق ، على حيـاة يرى فيها الأجنبى شامخا باحتلاله ، فخورا بغزوه ، فجمعوا كل ما قدروا عليه من وسائل الدفاع ، ورموا بأنفسهم فى فوهة الموت ، ليريحوا عواطفهم أن تستفز برؤية دخيل بغيض ! .

وهل تكون الشجاعة فى أبهر صورها ، غير شجاعة انسان غيور غضوب ، يؤثر الموت على الحياة ، حين يرى تحكم العدو فى نفسه وأهله وذويه ! .

ولو كانت الاستكانة صفة حقيقة لهذا الشعب المفترى عليه ، لآثر الخضوع ، ونابليون يعده الأمانى، ويشاركه احتفالاته الدينية ، ويعلن حبه للدين الاسلامى، ويؤلف مجلس الحكم من كبار العلماء ! ويمنـع ما عهـد فى المتاجر والأسـواق أيام المماليك من السـلب والنـهب والاغتصاب ! ويبدأ فى تنظيم الشوارع ، ونظافة المسالك بما لم يعهد من قبل .

كل ذلك لا يساوى ذرة واحدة من ذرات الكرامـة المستباحة ،ولا يزن ذبابة فى ميزان الحرية المنشودة ، والاستقلال المراد ، وما يقال عن القاهرة يقال عـن المقاومة المستبسلة فى كل صقع ، على أيدى أناس بررة من ذوى النخوة المثالية .

ولسنا بصدد التأريخ للحملة الفرنسية حتى نستفيض فىتسجيل بطولاتهمالرائعة، ولكننا نشير اليها مستدلين على روح العزة الاسلاميـة التى تملأ نفوس الشـعب المصرى ، وترتفع به عن دركات المذلة والهوان .

وحين سكتت أفواه المدافع ، بعد أن أحدثت بشائـع التخريب ، وفظائع التدمير ، اتجه نابليون الى الجامع الأزهر ، وعواطفهم تلتهب سخطا وغيظا ، وقد أبيـد من فيه من المقاتلين ، فلم يجدوا انسانا يتحرك ، ولكن

كيف يشفون غليلهم منه ، وهو خلاء من العلماء ، قفر من الطلاب بلقع من المجاهدين الثائرين ، لئن فاتهم أن ينتقموا من القاطنين ، فلينتقموا من الجدران والأعمدة والنوافذ والمنابر .

لقد دخلوا المسجد الحرام ، راكبى الخيول شاهرى السلاح وأخذوا يتخطرون فى صحنه الواسع ، ثم ربطوا خيولهم بقبلته ، وداهموا الأروقة وخزانات الكتب ، ومصابيح السقوف ، وقناديل الاضاءة ، ونهبوا ما وجدوه ذا نفع من الأوانى والقصاع ، والودائع والمدخرات ، أما الكتب فقد نثرت على الأرض لتلتهمها النيران ! وأما المصاحف وهى أعز شىء فى الأزهر ، فقد ديست بالنعال ! .

لا أقول ذلك توهما أو جريا مع الخيال ، ولكنى أرجع الى الجبرتى فأجده يصور الكثير مما أعجز عن استيفائه ! والعجز عجز شعور يكتوى بالحسرة ، واحساس يلتهب بالغيظ ، لا عجز قلم يكتب ، وورق يسود ، فما أهون ما يجرى القلم سابحا مسطرا ، ولكن المجال الرهيب يعقل كل جامع سباق ! .

ولا يجب أن نقول إن نابليون قد عثر على أسماء الزعماء ، فأعدم منهم ثمانين بطلا فدائيا نجا من

القنابل ليواجه الانتقام ، وفيهم خيرة العلماء والتجار والصناع ووجوه البلاد وأعيانهـا ، ممن زحفوا مـن الأقاليم النائية ناصرين مسعفين ! .

وقد قال المسجلون للأحداث : ان الاعدام كان يتـم على فترات ، بحيث يفاجأ المصريون فى الصباح برؤوس ترمى فى الطريق ، لتكون عبرة لمن اعتبر ، وهو عمل تسأل عنه ما تسمى بثورة الحرية والاخاء والمساواة فى فرنسا ، وهى شعارات زائفة يكذبها الواقع الصريح ، ولا تعدم بين ذيول الناس من يتشدق بها ، وهو يعلم دواهيها الراعبة ، فى كل بلد محتل ، ولكن الآذان صم والعيون فى عماء .

ثارت القاهرة مرة ثانية فى عهد كليبر ، وأوجز مـا يقال فى هذه الثورة : أنها كانت حريقا التهم الأحيـاء الشعبية جميعها ، اذ كانت مبعث الثورة الممتد الى كل الجهات الأربع ، من الأزهر الى بولاق وأبو الريش ، ولا يستطيع أحد أن يملك دموعه وهو يقرأ ما سطره الجبرتى ، متحدثا عما شاهد من الأهـوال ، بـل أن الفرنسيين أنفسهم قد أبدوا الدهشة لما تم بعد أن سكتت المدافع وهدأت النيران ، يقول المسيو « جولان » بصدد ذلك :

« وقع الهجوم العام على القاهرة يوم ٢١ ابريل، وكان هولا هائلا شاملا جميع الحارات ، فصبت المدافع قنابلها على المدينة الثائرة ، ودوى صوت الضرب فى كل مكان ، وظل اطلاق القنابل والرصاص متواصلا طوال الليل، وشبت الحرائق فى جهات متعددة، وأخذت النيران فى كل لحظة تلتهم المنازل بعضها اثر بعض ، وأحدثت النار من الخرائب والحرائق ما لم يحدث مثله منذ بدىء الحصار ، وقد قتلنا عددا كبيرا من الناس فى تلك الموقعة .

وقد لاحظت أن الحصار أضر بالقاهرة أكثر مما كنت أتصور ، فقد عم الخراب أحياء بأكملها ، وتمثل لنا شبحه المخيف بالأزبكية ، وأثرت فى نفسى صورته المفزعة ، فليس فى الامكان أن تخطو خطوة الا على كثبان من الخرائب والأتربة ، وكانت رائحة العفونة تنبعث من الرمم المدفونة تحت الردم ، وزاد فى هذا المنظر فظاعة أن الجنود مدفوعين بفكرة النهب ، كانوا ينبشون الجثث من تحت الأنقاض والخرائب ، فكلما أظهروا جثة زاد المنظر هولا وفظاعة » (١) .

وقد ظن كليبر أن الشدة ستعقب له راحة البال ، ولم

---

(١) من تاريخ الحركة القومية للرافعى جـ ١ ص ٨١ بتصرف قليل .

يستشعر ندما على استفحال النقمة ، وتمادى الطغيان، بدليل أنه أباح لبعض عملائه أن يهدموا ما يشاءون من المنازل ، اذا امتنع ساكنوها عن سداد الضرائب ! ومن أين ؟ وقد نهبوا كل ما وقعت أيديهم عليه ! .

ولكن الموت قد ترصده من حيث لا يحتسب ، اذ وفد على الأزهر سليمان الحلبى ، وقد كان طالبا به من قبل، يعرف الكثير من أساتذته وطلابه ، ولم يكن التحريض من خارج مصر كافيا لاشعال روح الانتقام فى صدره .

ان الذى ضاعف اشتعالها ثواؤه بالقاهرة ثلاثين يوما ، يجتمع بالطلاب والأساتذة ، ويسير فى الشوارع والطرقات ، فيرى الخرائب الخاوية تنعى أصحابها ، وتبكى من ثووا تحت أنقاضها من الشهداء ، فأقدم على اغتيال كليبر ، وقد تمهد الطريق أمامه لمشيئة أرادها الله .

لأن مثل هذا القائد الأجنبى الطاغية ، لا يسهل الوصول اليه فى قصر يحوطه الحارسون المدججون بأفتك سلاح ، بل لا يستطيع شاب واحد أن يطعنه بخنجر لا يملك سواه! وقد تم مصرعه فى لحظات، ودار التحقيق ليثبت اتهام أربعة من طلاب الأزهر ، كانوا دائما فى

رفقة الحلبى قبل أن يقدم على الانتقام ، وقد أعدم الأزهريون بقطع رءوسهم ، واحراق جثثهم ، ثم وضعت رؤوسهم على العصى الغليظة ليطاف بها فى الأحياء ٠

واتجهت الريبة الى كل أزهرى ، فكان الشيخ من الطلاب لا يأمن على نفسه أن تتخطفه الجنود دون ذنب سوى أنه أزهرى ، لذلك تقدم شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوى ، ومعه الشيخان الصاوى والمهدى ، الى الجنرال مينو الحاكم الجديد ، كى يأذن باقفال الأزهر ، كيلا يكون موضعا للانتقام ، إذ لا يؤمه غير الطلاب والأساتذة والمصلين ، فأجاب مينو طلبة القوم، وسمرت الأبواب بعد أسبوع واحد من مقتل كليبر ، وظل الأزهر موصد الأبواب حتى رحلت الحملة الفرنسية الى وطنها ، غير مأسوف عليها من انسان ٠

ولا يتسع المجال لذكر من تعرضوا للبلاء قتلا وارهابا من أبناء الأزهر ! حتى الذين لا يقدرون على التنفيذ لمرض يعوقهم ، ومن هؤلاء الشيخ سليمان الجوسقى ، إذ كان شيخا لزاوية العميان ، وكان حريصا على أن تنجو البلاد من هؤلاء المستبدين ، فأخذ يلقى دروسه الوطنية داعيا الى الثورة، ومستشهداً بما قام به السلف من فدائية نادرة ، فألهب النفوس ، وتحقق لذوى الأمر

من الحاكمين دوره الكبير في اشعال الثورة الأولى ، وشهد الخونة أنه كان يخطب الجمهور مشجعا ابان العاصفة ، وأنه رغم فقد البصر كان ينتقل من مكان الى مكان ، دون قائد ليشعل الحمية فى الصدور .

يقول الأستاذ الكبير محمد فهمى عبد اللطيف ، بعد حديث مشبع عن جهاد سليمان الجوسقى : « ووقف الشيخ سليمان فى انفعال وقوة ، وأخذ يصرخ والدموع تنحدر على خديه هاتفا : والله ما قام عمود هذا الدين إلا بالجهاد ، ولا أزهرت شجرة الاسلام إلا بدماء الشهداء ، ولقد خاض رسول الله الحرب حتى شج وجهه ، وكسرت رباعيته ، وفى سبيل الله استشهد سادتنا من الصحابة والتابعين ، فلعنة الله علينا ان كنا من القاعدين بعد اليوم .

وبعد أن وصف الكاتب ثورة الأزهر وانتقام البغاة قال :

« وأصبح الصباح ، وكانت القوات الفرنسية كلها تجمعت فى حى الأزهر ، وفى جميع الأحياء التى عضددت الثورة ، وأخذوا ينهبون الدور ، ويبحثون عن السلاح فى كل مكان ، ثم أخذوا يبحثون عن الشيوخ ، الذين تزعموا الثورة ، واعتقلوا الشيخ سليمان الجوسقى ،

شيخ طائفة العميان ، والشيخ أحمد الشرقاوى ، والشيخ عبد الوهاب الشبراوى ، والشيخ يوسف المصيلحى ، والشيخ اسماعيل الشبراوى ، وحبسوهم فى بيت البكرى أياما ، ثم ذهبوا بهم الى القلعة .

وقصد الشيخ السادات ، ومعه بعض كبار المشايخ بالأزهر الى القائد الفرنسى ، وطلبوا منه العفو عن المعتقلين ، فأمهلهم بعض الوقت ، وفى كل يوم كانوا يذهبون اليه متشفعين ، فيمهلهم حتى يستقر الأمن ، وبعد مدة خمسة عشر يوما انكشفت الحقيقة فى صنع الاستعماريين ، فقد وجدت حثث الشيوخ الخمسة وراء سور القلعة ، بعد أن قتلهم الفرنسيون ومثلوا بهم أشنع تمثيل ، ذلك لأنهم ارتكبوا أشنع جرم فى حق أبناء المدينة الفرنسية ، حين طالبوا بحق أمتهم فى الحياة والحرية (١) .

والذين ذهبوا شهداء من أمثال هؤلاء ، فى حاجة الى أن تكتب قصص بطولاتهم فى روايات أدبية ، تظهر روعة الفداء وعظمة التضحية ، وتصور حقبة من الزمن كانت على قصرها موضع اضطرام متأجج فى الصدور والميادين معا .

---

(١) مجلة الأزهر : المجلد الثامن والعشرون ص ٨٥٣ .

والذين لم يرزقوا الشهادة من المناضلين ، فقد قاسوا محنا كثيرة ، سطرتها الصحف بإيجاز يحتاج الى إطناب كاشف ، واحصار هؤلاء المجاهدين من العلمـاء فوق الطاقة ، ولكننا نشير الى رجلين بارزين منهما ، هما الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ السادات .

أما عبد الله الشرقاوى ، فقد كان شيخ الأزهر لعهد الحملة الفرنسية ، وقد عمل رؤساؤها على ارضائه بكل سبيل ، فانتخبوه رئيسا للديوان ، ولكن حكمته المجربة أوحت اليه أن يعارض بالتى هى أحسن ، ليستطيع أن يكسب الخير لبلاده من أسهل طريق ، وقد أخذ ذلك عليه بعض المتحمسين .

ولكننـا نعلـم أن لـكل انســان نظـرتـه المختلفـة باختلاف التجربة والسن والحيطة ! وشيخ كـعبد الله الشرقاوى قد اعتقد أن الماء فى سهولته اليسيرة يطفىء النار المشتعلة ، فآثر أن يـكون ماء يجتث الجـذور الضاربة فى باطن الأرض ، دون أن يكون نارا لا تتجاوز ما ظهر فوقها من الجذوع ! على أنه رغم هدوئه الحازم لـم يملك نفسه ساعة الغضب ، فقـد احتفل نابليون ببعض المناسبات ، ورأى أن يكرم الشرقاوى ، فأهداه الشارة الفرنسية ، ووضعها على كتفه ، وهى ترمز الى

علم مثلث اللون ، فهاج الشيخ ورمى بالشارة على الأرض ، وجعلها تحت قدمه ! وغضب نابليون إذ أهان الشيخ رمز بلاده ، وقال انه لا يصلح لرئاسة الديوان، وقد خرج عبد الله دون انتظار ، وبعث اليه القائد مسترضيا كى يسكته عنه ، ولكنه رد فى عنف .

وحين ثارت القاهرة ثورتها الثانية ، تحقق القائد أن الثائرين يبيتون فى منزل الشيخ ، وأنه يوغر صدورهم ، وقد واجهوه بذلك فلم ينكر ، وقال أن بيته مفتوح دائما للمسلمين ! .

وحين قتل كليبر ، أثبت أحد الشهود أنه زار منزل الشرقاوى ، وبات به بعض الليلات ، ولم ينكر الشرقاوى .

وقد كادوا يهمون به لولا أنهم تخوفوا العاقبة حين يشيع فى الملأ أن شيخ الاسلام قد قتل ! وقد قرئت أوراق التحقيق فى مقتل كليبر ، فذكر اسم الشرقاوى بين من حامت عليهم الظنون ، وقد أخذ بالذنب من دونه ، وتحاموه مغيظين .

أما الشيخ السادات ، فقد كان ذا منصب روحى ، وصاحب نفوذ كبير فى المصريين، وقد هادنه الفرنسيون،

كما هادنوا عبد الله الشرقاوى ، وتحقق الفرنسيون من دوره المؤثر فى اشتعال الثورة الأولى ، وهم كـليبر باعدامه ، ولكن نابليون أشار بالتغاضى عنه كيلا يزداد الضرام .

وبعد الثورة الثانية ثبت دور السادات بما لا يقبل الشك ، فتعرض للتعذيب والسجن بمرأى من أتباعه، وسجن بالقلعة ، وكانوا يدفعون به الى الطريق حافيا مكشوف الرأس ، وفرضوا عليه ضرائب فادحة لا سبيل الى جمعها ، وزادوا بأن ضربوه بالعصا أياما متوالية أمام زوجاته وأولاده ، ثم هاجموا دوره ونهبوا ما بها من المتاع ، وسجنوا زوجته دون جرم ، ومات أبنه وهو سجين دون أن يراه ، وقد قيل لهم إنه يضع الذهب فى باطن الأرض بداره الكبرى ، فحفروا كل موضع منها، ولم يجدوا شيئا ! وقد سجن أربع مرات دون أن يتراجع عن عداوته الشرسة للأعداء .

ثم ذهبت الحملة الفرنسية ، فاسترجع عزه الغائب، بعد أن أدى ضريبة الوطن تضحية وافتداء .

ان عـلى الذين يكتبون تاريخ الحركة القومية أيام الغزو الفرنسى ، أن يعلموا أن الحق أبلج ، وأن مؤرخى

أوربا أنفسهم قد انصفوا علماء الأزهر انصافا لا يعرف الغرض ، فاذا جاء اليوم من يحاول أن يطفىء هـذه التضحيات الباسلة ، فان الحق يصدمه بما سجله التاريخ فى الوثائق والمصادر واليوميات .

●●●

فى عصر محمـــد عـلى

حين انقشع بلاء الحملة الفرنسية عن مصر ، كان على الساسة أن يبدلوا مسيرتهم فى الحكم ، وأن يعلموا أن المخلصين من أبناء الوطن هم الذين دافعوا عنه ، وأن أرواح الآلاف فى القاهرة والوجه البحرى والوجه القبلى قد ذهبت رخيصة هينة فى سبيـل الاستقـلال ، وأن هؤلاء الذين ضحوا بكل شىء فى حاجة الى اطمئنان نفسى ، ليواصلوا سعيهم فى الحياة ، زراعـة وتجارة وصناعـة .

ولكن الساسة من الولاة والمماليك لم يفكروا فى شىء من ذلك ، فالوالى العثمانى قد جلس فى القلعة ، ليواصل طريقة أسلافه فى الغطرسة والاستغـلال ، واستنزاف ما تبقى من مواد الثروة فى البلاد .

والمماليك الذين هربوا مدحورين بعد واقعة امبابة ، وطارت فلولهم الى الصعيد والشام ، قد رجعوا مسرعين لينهبوا الغنيمة الباردة ، وكأنهم هم الذين ضـحوا بأرواحهم فى الثورات المتتابعة بالقاهرة والأقاليـم ، وقد رأينا رئيسهم الطاغية مراد ، يهرب بأتباعه الى

الصعيد ، ثم يحاول استرضاء نابليون ، بالاستجابة الى كل ما يطلب ، فكشف عن جبن جزوع ، وعن مهانة مؤسفة ، كان الموت أفضل منها بكثير .

أجل ، كان على الساسة أن يبدلوا مسيرتهم أمام تضحيات هذا الشعب المناضل ، ولكن الرواية القديمة قد أعدت للتمثيل، وتهيأ للوالى التركى أن يقوم بالدور الأول ، وقد جاء من الآستانة متغطرسا متكبرا ، وكأنه اشترى ضيعة بماله الخاص ، يتصرف فيها كما يريد .

وكيف والشعب المتحفز ، المقتدى بعلمائه الكبار من شيوخ الأزهر ، قد شب عن الطوق ، وآلى على نفسه أن يدفع مظاهر الضيم والاستبداد ، لقد استعان الوالى (أحمد خورشيد) وقد جاء الى البلاد سنة ١٨٠٥ بفريق ممن يسمون بجند الولاة ، ليداهموا المنازل والمتاجر ، وينهبوا الأموال ، وتكررت حملات جنوده الباطشين دون رحمة أو ارعواء .

ولكن علماء الأزهر قد قرروا المقاومة ، وانضم اليهم الزعيم المصرى الشهير (السيد عمر مكرم) فألفوا جماعة تمثل الشعب ، واتجهوا الى القلعة ليعلموا الوالى بما يرتكب جنوده من عسف ! .

وكان الرجل الغشوم على جهل بما يقدح فى النفوس من غضب ، لأنه لم يكن يظن فى نفسه أن ما يقوم بـه من البطش مدعاة غضب ، بل انه حق مفـروض لكل من جاء واليا على مصر من الآستانة ! ولك أن تتصور غضبه على المجتمعين ، حين صاح بهم من أنتم ؟ أنا وكيل مفوض من السلطان ! البلاد بلاد السلطان ، أفعل ما أشاء ، وأعزل وأولى من أشاء ! .

هنا بدأت الانتفاضة الثائرة ، اذ تجمع الشعب خلف علمائه وجاء نائب الوالى ليرقب هـذا التجمع فهاج من رأوه ، واندفع فريق من العامة فرموه بالحجارة، وكاد يهلك لولا أن عجل بالفرار ، ولم يسكت القوم بل لجأت الجماهير الى بيت القاضى ، وكان تركيا ، ولكنه لم يؤيد الوالى الباطش ، ودارت مشاورات هادفة ، رمت الى عزل الـوالى وتخليص الـوطن من فسـاد جنوده ! .

ولم يكن (أحمد خورشيد) يظن أن مصريا واحـدا له الحق فى أن يطالب بعزله ! ولكن ذيوله قد نهضـوا اليه يعلنون أن الزعماء مصممون على القتال ، وأن وراءهم طوائف الشعب ، تذكى الوقود لتشعل النيران! فآثر أن يعمل الحيلة ، وكتب الى القاضى التركى يدعوه

الى التفاهم مع من يتزعمون الملأ من العلماء ، وكان السيد عمر مكرم حذرا ، فعلم أن مكيدة تدبر ، ورفض أن يذهب مع العلماء الى الوالى ، وجاهره بوجوب عزله ، وصعق الوالى فصاح (أنا مولى من السلطان ! عندى أوامر شريفة ، وكتب منيفة ، فكيف أعزل من الفلاحين) .

لقد دقت ساعة الصفر ، فتجمع الشعب بطوائفه يقيمون المتاريس ، ويحملون الأسلحة ، ويستعدون لمهاجمة الولاة من جنود خورشيد ، وقد بدءوا بحصار القلعة ، وذهب القاضى التركى حين هاله الأمر الى الوالى فقال له : إن نحو أربعين ألفا من المصريين يحملون السلاح أمام القلعة ، ويريدون أن تغادروا البلاد ، ولو فعلتم ذلك لنجوتم ، ولو تماديتم لا آمن أن يقتحموا القلعة ، وأن يفتكوا بكم ومعكم الأهل والأولاد ! وجاء الليل ، فضربت الطبول حول القلعة ، وأوقدت المشاعل ، وسمع دوى الرصاص .

لقد كان الجنود من أتباع الولاة أهل جبن وخور ، فهم يهاجمون أصحاب المتاجر فى الأسواق ، ويقتحمون المنازل لينهبوا العزل فى استبداد ، ولكنهم أمام تجمع الطوائف الكثيرة ، قد أحسوا رعبا هالعا ، وخوفا

مزعجا ، فلم يستطيعوا المقاومة ، ونظر الوالى فوجد نفسه فى وضع لا يحسد عليه ، فهو محاصر من كل مكان، واذا نفد الزاد والشراب من القلعة فلن ينقذه أحد ، بل إنه لا يأمن الوثوب الكاسح قبل أن ينفد الطعام والشراب ، فأرسل كبير رجاله ليجتمع مع السيد عمر مكرم ، وليقول له كيف تخالفون كلام الله عز وجل وهو القائل فى كتابه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » فقال له بعض الحاضرين من العلماء فى حدة : أولو الأمر هم العلماء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وليسوا الولاة الذين يبطشون وينهبون ويسرقون ! واذا كان الوالى يستشهد بكتاب الله فليطع أوامره ، وليعلم أنه فقد ولايته حين خالفها وعصى الله ! •

تأزم الأمر ، وظن خورشيد أن الثورة عليه تشمل القاهرة وحدها ، وأن رجال الأقاليم قائمون على طاعته ، وفى استطاعته أن يرسل الى قليوب من يحضر الجموع من هناك لينقذوه من حصار الفلاحين (صيانة لعرض السلطنة كما يقول) ، ولكن رسله لم تجد المستجيب ، حتى نفد الطعام والماء من القلعة ، وطارت الأنباء الى تركيا ، فجاء مرسوم صريح بعزل الوالى ، لأن أمورها السياسية لا تتحمل الالتفات الى مصر ، ولو

كان لدى أحمد خورشيد مسكة من حزم لعجل بالتسليم بعد مرسوم السلطان ، لأن معتمده الوحيد فى النقاش الجدلى مع الثائرين أنه معـــين بأوامر شريفـــة من السلطان ، وأن الفلاحين لا يملـــكون معه شيئا ، فإذا سلم الناس على سبيل الجدل بهذا الكلام ، فقد جـــاء المرسوم السلطانى بعزله ، وسقطت كل حجة يتذرع بها أمـــام النـــاس .

ازدادت الحوادث شدة ، فطلب العلماء من رســول السلطان أن يصعد الى خورشيد بالقلعة ، وأن يجبره على النزول قبل أن يداهم بالانقضاض ، وتيقن الرجل الخطر ، فأعلن التسليم ، وكان من مآثر عمر مكرم أنه آواه واستضاف أهله ومماليكه وجواريه فى منزله أياما ، حتى يتمكن من الرحيل فى سلامة ! .

ومكث الوالى بمنزل الزعيم خمسة أيام آمنا على نفسه وأهله ، حتى هيئت له سبل الرحيل ، واذ ذاك هدأ الشعب ، وفتحت أبواب الدراســة بالأزهــر ، لأن العلماء قد عطلوا التدريس ، وجمعوا الطلاب فى حشود الشعب ، ليكون مثار عزيمة وداعية تنشيط ، وقد أدوا واجبهم فى اذكاء الحماسة والهاب المشاعر حتى جنوا الثورة المشتهاة .

ولكن ماذا بعد عزل خورشيد ؟ وأى رجل يلى أمر البلاد ؟

يقول الجبرتى : بعد أن ألم بشذور من هذه الأحداث على طريقته الخاصة فى كتابة اليوميات : « فلما أصبحوا - أى العلماء وأعيان القاهرة - اجتمعوا ببيت القاضى ، وكذلك اجتمع الكثير من العامة ، فمنعوهم من الدخول الى بيت القاضى ، وقفلوا بابيه ، وحضر اليهم سعيد أغا والجماعة ، وركب الجميع وذهبوا الى محمد على ، وقالوا له : لا نريد هذا الباشا حاكما علينا ، ولابد من عزله من الولاية ، فقال : ومن تريدون يكون واليا ، قالوا له لا نرضى إلا بك ، وتكون واليا علينا بشروطنا ، لما نتوسمه فيك من العدالة والخير ، فامتنع أولا ، ثم رضى ، وأحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر مكرم ، والشيخ الشرقاوى ، فألبساه له ، وذلك وقت العصر ، ونادوا بذلك فى تلك الليلة فى المدينة ، وأرسلوا الى أحمد باشا الخبر » (١) .

والحق أن محمد على كان يرقب الأحداث من بعد ، ويمهد لنفسه بسلوك خاص لا يلحظه أحد ، فهو يعرف تنازع العامة مع الجنود من الأتراك ، إذ دأب هؤلاء

(١) الجبرتى ج ٣ ص ٣٥٠

على اقتحام المنازل والأسواق والمزارع ، ونهب ما تقع أيديهم عليه ، كما دأب الوالى وأمراء المماليك على الاغضاء عنهم ، فكان محمد على يتصل بالعلماء والتجار، ويعلن استنكاره لما يرى من المظالم، ويدعوهم الى الكتابة الى السلطان رأسا ، ليضع حدا لهذه الأهوال ثم يأتى الى الجند فيقول لهم أنا منكم ، ويشجعهم على ما يصنعون ليزداد الغضب ، وتشتعل الحقود ، وقد نقص النيل ، وانقطع الخير وحلت مجاعة قاصمة، والوالى وأمراء المماليك وجنود العثمانيين لا يقومون بجهد ما ، فى إنعاش الاقتصاد وتعمير الأسواق ، وكان عليهم أن يظهروا ما ادخروه من خزائن القمح والغلال الى الأسواق ، وأن يمنعوا الاحتكار ، ويقفوا دون غلاء الأسعار ، ولكنهم تركوا الأمر فوضى .

فاجتمع العلماء بالأزهر ، واحتشد من ورائهم العامة ، حتى النساء دخلن الى المسجد الجامع يلطمن الوجوه ، وقد صبغن وجوههن بالنيلة السوداء ، اعلانا لما يكابدون من جوع ، وما يغمر البلاد من قحط، وانتهز محمد على الفرصة فأرسل مبعوثا الى العلماء بالأزهر، ليبلغ الناس ما قرره من تخفيف الضرائب ، وتيسير الأقوات ، واكتسب بذلك رضا المجتمعين ، وشاع النبأ فى الملأ فرضى عنه الناس .

ثم رأت الدولة العثمانية إيفاد وال جديد هو موسى باشا ، على أن ينتقل محمد على الى ولاية سلانيك، وقد فهم محمد على أن المراد زحزحته من مكان يحاول الاستقلال بحكمه ، فجمع العلماء وأخذ يتزلف لهم ، حتى جمعهم على رأى واحد ، هو الاصرار على بقائه، لأنه الذى يستطيع أن يقف أمام المماليك وذوى الفساد والطغيان ، فكتبوا بذلك الى السلطان ، وزاد محمد على فاقترح على العلماء أن يقابلوا قبطان باشا رئيس البعثة العسكرية التركية ، ليحوزوا موافقته ، حين يعلنون اصرارهم على بقاء محمد على ، ليكون لسانهم لدى السلطان ، ورأى أن يستميل هو الآخر قبطان باشا، فأرسل اليه هدية ثمينة من الذهب الخالص ، وتم الأمر على ما يريد ، فرجع الوالى المختار كما جاء، ولم يترك محمد على البلاد الى سلانيك .

أما المماليك ، فقد كانوا شوكة فى سبيل الاستقرار، وقد بدأ بمعاهدتهم على الوفاق والسلام مستجيبا الى رغباتهم ، وخدعهم بما يسمى (عهد الدم) اذ كان يجرح يده ويجرح يد معاهده من أمراء المماليك، ويمص كل واحد دم الآخر ليحل من نفسه محل من اختلطت دماؤهما فى الكيان الواحد ، فلا سبيل الى الانتقاض ! .

وقد بحثت عن أصل تاريخى لعهد الدم هذا فلم أعرفه فيما سبق من العصور ، وليس من اختراع محمد على ، ولكن الظاهر أن العثمانيين قد ابتدعوه فشاع.!

أما نتيجة هذا العهد فهى مذبحة المماليك بالقلعة ، حين قتل منهم ما يزيد على الألف ، وتتبع محمد على من بقى فى القاهرة والأقاليم ، وأسر النساء والأطفال، واحتل القصور والدور .

وقد كانت حملاته العسكرية ، ومؤسساته المعمارية، فى حاجة الى مال كثير ، فعمد الى أن يسلك مسلك المماليك فى مصادرة الأموال ، ومضاعفة الضرائب ، وسلب المحصول الزراعى ، دون أن يبقى للفلاحين ما يأكلون ! وهو أمر هاج هائجة العلماء فتقدموا اليه يذكرونه بالعهد الذى أخذوه عليه يوم أن نصبوه واليا، فأسرها بنفسه ساعة الاجتماع ، ووعد خيرا ، وفى طريق عودتهم الى المنازل بادر باعتقالهم ، وأمر بنفى السيد عمر مكرم الى دمياط ! وقد كان صاحب الكلمة الأولى فى تعيينه ، وكان يتملقه حينئذ أمام العامة ويقول له: يا والدى !

والسيد عمر أزهرى ، تعلم فى الجامع الشريف، حتى وصل الى درجة العلماء ، ولكنه لم يشتغل بالتدريس

فى الأزهر ، بل انصرف الى تثمير أرضه فى بسطة عيش ووجاهة محل ، والتف حوله الناس ، إذ عين نقيبا للأشراف ، أقول ذلك لأن بعض الكاتبين لم يشيروا الى أزهريته ، بل ظنوه ثريا وجيها فحسب ، وليس له صلة بالأزهر ، والحق أن الأزهر قد تولى تثقيفه حتى صار به زعيم الشعب ! فاذا ذكر جهاده المخلص ، فهو حلقة فى سلسلة النضال الأزهرى دون نزاع .

فرغ محمد على من المماليك بعد المذبحة ! وفرغ من العلماء حين اعتقل نفرا ، ونفى من البلاد نفرا آخر ، وقد ظن أنه قطع كل لسان ، وأخمد كل معارض ، ولم يدر أن الله قد هيأ له عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ الأزهرى النابغة ، يرصد طغيانه ، ويسجل تجبره فى صحف تقرأ على الناس ، اذ كانت يوميات الجبرتى مما يعشقه العامة ، ويتداولونه يوما بيوم ، حتى ضاق الباشا بناقده ، فأصلاه ضروبا من الأهوال ، كان أشدها على نفسه اغتيال ولده الأوحد .

ويقول كثير من الباحثين : إن الجبرتى نفسه قد مات مقتولا بمكيدة من الباشا ، وقد بسطت ذلك فى فصل تاريخى ذى براهين (١) .

---

(١) من صفحات التاريخ للدكتور محمد رجب البيومى ص ٩٨ وما بعدها تحت عنوان « هل مات الجبرتى مقتولا » .

أخـذ الجبرتى يشهد شهادة الحق فيما يراه بعينه بالقاهرة ، وما يفد الى سمعه من أنباء الأقاليم ، على السـنة أصدقائه العدول ، فذكر أن محـمد على ألغى الديوان العام ، الذى أنشأه نابليون ، وجعل أعضاءه من العلماء ليسهموا بالرأى فى شئون البلاد .

ومهما كان الديوان خاضعا لرئاسة الحاكم، فوجوده شىء ضرورى ، لأنه ينقل وجهة النظر المخالفة ، وإن لم يؤخـذ بها ، كما يحـد شره الحاكم حين يجد أمـوره مكشوفة تطرح للبحث دون نقاب .

وفى تاريخ هـذا الديوان ما يدل على فاعليته ، إذ أبطل أمورا منكرة ، كانت موضع الاستياء ، وحين التزم محـمد على بالعـدالة فى وثيقـة تعيينه أمام الشـيخ الشرقاوى ، والسـيد عمر مكـرم ، كان معلوما أنـه سيخضع للشـورى ،وأن الديوان رمـز لهذه الشـورى المشتركة بين كبار العلماء والمخلصين .

ولكن محمد على لا يريد أن يقف أحد فى طريقه ، وقد احتج بأن الأعباء كثيرة ، وأن اجتماع الديوان يشغله ! وذلك خداع مكشوف ، لأن مناقشة الأمـور المعقدة مما يساعد على حلها ، والباشا يجتمع بخاصته وأصحاب هواه فى كل وقت ، أفيكون اجتماع الاسبوع شاغلا عن

جلائل الأعمال ! هــذا ما لحظــه الجبرتى ، وسجله فى وضوح واستيفاء .

وناحية أخرى تنحو هــذا المنحى المغرض فى سلوك محمد على ، وذلك أنــه حرص على أن يــكون جميع مستشاريه من غير المصريين ، فانك تجد نائبه أجنبيا ، وكذلك من يسيرون دفة الأمور ، من أمثال باغوص بك، مستشار التجارة ، وكرابيت الأرمنى ، مدير الجمارك ، وسليمان أغا السلحدار ، منفذ الأحكام ، ومحمود بك الخازنــدار ، مستشــار الماليــة ، ومصطفى أغــا كرد المحتسب ، ومن لا نستطيع حصر أسمــائهم لكثرتها ! أفلا يكون بين هؤلاء رجل مخلص كالسيد عمر مكرم ، أو عبد الله الشرقاوى ، وهما صاحبا مجــده ، ومؤثلا عرشه ؟

ويقول الجبرتى عن بعض هؤلاء الاجانب فى حوادث سنة ١٢٣٥ هـ : (أنهم ترأسوا ، وعلت أسفالهم ، ولبسوا الملابس الفاخرة ، وركبوا البغال والرهوانات ، وأخذوا بيوت الأعيان ، التى فى مصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجناين ، وذلك خلاف البيوت التى لهم بداخل المدينــة ، ويركب (الكلب) منهــم وحوله وأمامه عدة من الخدم ، والقواسة يطردون الناس من أمامه ومن خلفه) .

ويصف بعض مظالم سليمان أغا السلحدار فيقول : « كان يتمم عمائره فى أسرع وقت لعسفه وقوة مراسه على أرباب الأشغال والمونة ، ولا يطلق للفعلة الرواح، بل يحبسهم على الدوام الى باكر النهار ، ويوقظهم من آخر الليل بالضرب ، ويبتدئون فى العمل من وقت صلاة الفجر الى الغروب ، حتى فى شدة الحر فى رمضان ، واذا ضجوا من الحر والعطش أحضر لهم السقا ليسقيهم » .

كما واجه الجبرتى محمد على بكثير من فظائعه المنكرة ، حين دون مثل هذه الحادثة فى حوادث شوال سنة ١٢٣٤ هـ « كان الباشا - أى محمد على - بجهة الاسكندرية ، لحفر ترعة الأشرفية - المحمودية - فأمر حكام الجهات بجمع الفلاحين للعمل ، فكانوا يربطونهم بالحبال قطارات ، وينزلون بهم فى المراكب ، وتعطلوا عن زروعهم فى بلادهم ، وقاسوا شدة بعد رجوعهم فى المرة الأولى ، ومات الكثير منهم من البرد والتعب ، وكل من سقط أهالوا عليه من تراب الحفر « ولو فيه الروح » ولما رجعوا الى بلادهم للحصيد ، طولبوا بالمال ، وزيد عليهم عن كل فدان حمل بعير من التبن وكيلة فول ، وأخذ ما يبيعونه من الغلة بالثمن الدون، والكيل الوافر ، ثم يجىء الطلب للعودة الى الشغل فى

الترعة ، ونزح المياه التى لا ينقطع نبعها من الأرض ، وهى فى غاية الملوحة ، والمرة الأولى كانت فى شدة البرد ، وهذه المرة فى شدة الحر مع قلة المياه العذبة فينقلونها بالروايا على الجمال مع بعد المسافة » .

ولكى يكون الجبرتى منصفا ، نجده سجل لمحمد على ما راقه من اصلاحاته ، فهو يعترف بهمته فى انشاء مصانع البارود ، وسبك المدافع ، وصنع القنابل ، وتشييد السفن ، ومدارس الهندسة والطب ، ومصانع نسج القطن والحرير والصوف والجوخ ، واعداد المخارط والسندالات والمناشير ، والآلات الغربية التى يوجد أمثالها فى الغرب ! .

كما جمع أربعة آلاف غلام من أولاد البلد ليشتغلوا تحت أيدى المهرة من الأجانب ويتعلموا الصنعة ، ويأخذوا أجرا يوميا ، وقد عرفت « دار السد » بأنها مجمع صناعى للعمال ، تتسع لعشرة آلاف عامل ، كما أجبر الناس على زرع شجر التوت على ضفاف الترع والأنهار ، وأستقدم اللبنانيين ليعلموا الفلاحين تربية دودة الحرير ، فدعا ثلاثين أسرة من لبنان ، ووزعها على المديريات البعيدة ، فكانت النتيجة ممتازة ، شجعت على مضاعفة الأشجار فأثبت الباحثون أن مائة

وخمسين ألفا من العمال برعوا فى نسج الحرير وهيئوه للتصدير .

لقد وقف الجبرتى فى وجـه الطاغية موقف القاضى العادل فكان الأزهرى الذى دون الوقائع بلسان الحق ، دونها برهبتهـا المستنكرة أحيانا كثـيرة ، وبهجتها المحبوبة حينا قليلا ، وهو يعلم أنه يتصدى لدكتاتور لا يرحم ! وجـبار لا يعـدل ، ولكن أرتياحنفسه وهـدوء ضميره كان خير جزاء وأوفى ثواب .

●●●

الأزهـــر
وإرهاصات الثورة العرابية

لم ينهض بعـد وفاة الجبرتى من يسجل اليوميات بطريقته المستوعبة ، لذلك كان عهد عباس الأول ومن وليه ذا ضباب ، ولست أعنى بذلك أن التاريخ لم يعلم عنـه شيئا ، فقد سجل الكاتبون شرقا وغربا ما يعطى بعض الدلالات النافعة ، ولكن الاستيعات المتسلسل على النحو المعهود فى عصر الحملة الفرنسية ، وعهد محمد على ، لم يكن من نصيب هذا الزمن .

ومما أغفله المؤرخون ، ما قام به نفرمن العلماء دأبوا على أن يجهروا بالحق ، ولم يخـلمنهم زمن منذ عهد رسول الله - ﷺ - فكيف يخلو منهم عصر عباس الأول ، ومن وليه من خالفيه .

على أننا نجد فى سير ابراهيم البـاجورى ، وحسن العدوى ، وعبد السلام المويلحى ، وهم منعلماء الأزهر الكبار ، فالأول شيخ شيوخه ، والثانى علم بارز فى علمى الحقيقة والشريعـة ، والثالث تلميذ حلقاتـه ، وربيب أساتذته .

أقــول : نجد فى سير هؤلاء مواقف حرة ، تدل على كفاح الطغيان والجهر بالحق ، والاعتداد بالله وحده ، وفى الحرص على تسجيل ما نعلمــه من هذه المواقف الرائعة ، ما يمضى بالسلسلةمطردة فى حلقاتها المتتابعة، وإنى لأعلم أن لدى غيرى من الباحثين بعض ما فاتنى، فاذا كتب كل باحث ما لديه فقد وجد الكثير ٠

نعلم أن « عباس الأول » قد أوصد المدارس والمصانع والمستشفيات ، وعفى على آثار التقدم الناهض فى عهد محمد على ، وقد قيــل فى تعليل ذلك أنه استجاب الى رأى القنصــل الانجليزى ، لتظل مصر فى حــاجة الى مستوردات انجلترا ٠

ولئن تحقق ذلك فى اغلاق المؤسسة الحربية ، ومصانع النسيج والغزل ، ومدارس التعليم ، فما عــلة اغلاق المستشفيات ، وتشريد الأسر الــكثيرة من مزارعهــا ، وإهمال وسائل الرى والتثمير ! ان السبب يرجــع الى تصور حاكم مستبد ، يرى أن تظل البلاد بعيدة عن كل تقدم حضارى ، كيلا يقف فى وجهه من ينادى بالعدالة والمســـاواة ٠

ولم يكن عباس بقادر على أن يوصد أبواب الأزهر، فلا تنتظم به حلقات الدرس ، اذ وقــع فى روعه أن فى

ذلك محاربة لله وحده ، وهو القادر على أن يأخذه أخذ عزيز منتقم ، لذلك كان يفد الى الأزهر فى خشوع ، ثم يهيأ له كرسى من الخشب ، ليستمع الى ما يلقى استماعا صوريا ، لأن دروس المنطق والتوحيد والأصول والبلاغة والنحو حينئذ ليست مما يسهل تحصيله فى جلوس ساعة أو ساعتين ، ولعله كان يراقب سير الدراسة فحسب ، ليعرف هل يخوض الخائضون فى حلقاته فى غير حديث العلم ، وليطمئن على أن النقد لا يتطرق اليه فى حلقات هذا المسجد الوحيد ، وقد بقى وحده منارة العلم والتوجيه •

هذه النظرة المهادنة الى علماء الأزهر لم تجعل شيخ الأزهر الأكبر يغضى عن قول الحق أمام عباس ، وشيخ الأزهر هو العلامة الأصولى الفقيه المحدث الشيخ الجليل ابراهيم الباجورى ، وحواشيه العلمية على شروح العلماء فى فنون كثيرة ذائعة مشتهرة ، تدل على فضله الكبير ، وقد وصل الى علمه أن عباسا يضطهد بعض الأقباط (١) من المصريين ، زاعما بذلك أنه ينصر الإسلام ، فرأى الشيخ الأكبر أن يواجهه بالحق فيما يجور ، فذهب الى لقائه ، وأخبره بحكم الإسلام فى

(١) من صحائف التاريخ للمؤلف ص ١٣٥

الذمى والمعاهد ، وقرأ عليه آيات القرآن ، وأحاديث الرسول ، واستشهد بوقائع مأثورة عن الخلفـاء ، من أمثال : أبى بكر وعمر وعلى ! .

وقد وجد منه ترددا وشكا ، فانتقل من الماضى الى الحاضر ، فذكر أن الفرنسيين يحتلون الشعب المسلم فى الجزائر ، كما سبق أن احتلوا مصر ، ولئن جاءهم أن مصر تضطهد أبناء دينهم ، فلا بد أن يقوموا بالمثل ، فيكون الباشا بعمله هذا مسيئا الى أبناء دينه ، وقـد استجاب عباس بعد أن سمع كلام الشيخ ! .

واستجابة عباس هنا ذات دلالة حاسمة على قـوة اقناع الشيخ الباجورى ، لأن الباشا جبار يركب رأسه، وقد اضطهد نفرا من أبناء الأسرة الحاكمة ، وهم أهله وذووه ، وأخذ الوصوليون يتقربون اليه بالوشـاية الكاذبة عن هؤلاء ، فإذا استطاع شيخ الإسلام أن يصده عن ظلم المواطنين من الأقباط ، فقد نجح فى مسـعى حمـيد .

وثانية نذكرها للشيخ الكبير مع رجال الحكم فى عهد عباس (١)، فقد عرف أن طلاب الأزهر فى عهده كانوا

---

(١) كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر ص١٩٢ ، للشيخ سليمان الحنفى.

يعفون من الخـــدمة العسكرية ، لانقطاعهم الى طلب العـــلم .

وقد أراد نفر من مشايخ القرى أن يبطل هذا الإعفاء، فأوحوا الى رجال الأمن أن أكثر النازحين الى الأزهر لا يرغبون فى علم أو دين ، ولكنهم يبتعدون عن الخدمة العسكرية ، بحجة الانتساب الى الأزهـــر ، وفوجىء أساتذة الأهر ذات صباح بمن يهاجمون الطـــلاب ، ويقبضون عليهم ، كى يلتحقوا بالجيش ! وكان ذلك فى عهد سعيد باشا ، واتصل الأمر بشيخ الأزهر العـــلامة الباجورى ، فتقدم الى المسئولين ونهـــرهم فى غضب ! وهددهم بالثورة العلنية حين يدعو الجموع الى ذلك ، ورأوا اصرار الشيخ الغاضب ، فانسحبوا مخذولين !.

ولم تكن الخدمة العسكرية حينئذ حمـــاية للوطن ، بعد أن أغلقت المصانع الحربية ، ولكنها كانت وسيلة لتهيئة من ينفذون أوامر البطش ، ومن يتحكمون فى الفلاحين ناهبين غاصبين ، وطلب العـــلم حينئذ أولى وأرشـــد .

ونترك عباسا وسعيدا الى اسماعيل ! فنذكر موقفا رائعا لعالم جليل ، صدع بالحق أمـــامه فى اعتداد ،

والموقف مشتهر ذائع ، كتب عنه الأستاذ عباس محمود العقاد فصلا جيدا فى مجلة الهلال ، ونقله بعض كتب المطالعة للمدارس عنه ، وقد أسنده العقاد الى العالم الكبير الشيخ حسن العدوى ، ولـكن الأستاذ الشـيخ محمد سليمان ، وهو أول من سجله من الكتاب فى مؤلفه الحافل (من أخلاق العلماء) (١) لم يحدد اسـم ذلك البطل الصريح ، فلعل لدى العقاد فى تحديد اسم الشيخ العدوى ما جعله يجزم به عن يقين .

قال الأستاذ محمد سليمان عن محدثه الكبير ببعض التصرف اليسير : لما وقعت الحرب بين مصر والحبشة ، وتوالت الهزائم على مصر لوقوع الخلاف بين القـواد والجند ، ضاق صدر الخديو اسمـاعيل لذلك ، وركب يوما مع شريف باشا ، وهو محرج ، فأراد أن يفرج عن نفسه ، فقال لشريف باشا ، ماذا تصنع حينما تلم بـك ملمة ، فقال شريف : أعمد الى صحيح البخارى لأسمعه من عالم طاهر الفم ، فيفرج الله عنى ، فارتاح الخديو لما سمع ، وطلب من شيخ الأزهر أن يقرأ نفر من العلماء صحيح البخارى فى القبلة رغبة فى النصر ؟ .

وقرىء البخارى دون أن يحدث ما يرجو الخديوى من الانتصار ، فهاج هائجه وجمع العلماء ليقول ، إما

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٠ ط اولى .

أن الذى تقرءونه ليس صحيح البخارى ، أو أنكم لستم كعلماء السلف الصالح ، لأن الله لم يدفع بتلاوتكم شيئا ، فسكت العلماء دون رد ، ولكن شيخا فى آخر الصف صاح به « منك يا اسماعيل ، فإننا روينا عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » فوجم العلماء ، وانصرف الخديوى صامتا ! .

ولم يمض غير وقت يسير ، حتى حضر شريف باشا ، وطلب القائل ليذهب معه الى الخديوى ، فقابله فى أدب وجلس أمامه على كرسى مماثل .

وابتدأ اسماعيل يقول : وماذا صنعنا حتى ينزل بنا هـذا البلاء ؟ فقال العالم الحر فى صراحة : يا أفندينا أليست المحاكم المختلطة قد فتحت بقانون يبيح الربا ؟ أليست الخمر مباحة؟ أليس الزنا برخصة؟ فكيف ننتظر نصر السماء ؟ سكت الخديوى حائرا ، ثم قال فى أسف : وماذا نصنع ؟ وهذه مدنية الأجانب وقد عاشرونا ؟ قال الشيخ : إذن فما ذنب البخارى ؟ وما حيلة العلماء؟ فأطرق اسماعيل مفكرا ، وقال : صدقت صدقت : ثـم رجع الشيخ الى زمـلائه وقد يئـسوا منه كأنما ولـد من جديد (١) .

---

(١) من أخلاق العلماء ص ١٠٢

لا يغيب عن القارىء أن اسماعيل كان يحـكم دون دستور ، وأن كلمة منه تقذف بالآمن الى مهب الخطر ، وأنه تعرض لسماع ما لا يتصور أن يواجه به ذات يوم ، فاذا تـجرأ عالم على مجابهته بما لا يحب ، فتلك شجاعة لا تقف عند حد ، أذ لا يأمن على دمه أن يسيل .

أما عبد السلام المويلحى ، فقد قرأ فى الأزهر على كبار شيوخه اذ كان من أساتذته الأعلام الأشمونى ، والسقا والبحراوى ، وقد اسـتمر فى الدراسة حتى أجـيز له بالتدريس ! .

والإجازة حينئذ لن تكون الا بعد مجلس علمى حاشد ، يقرأ فيه المتقدم للإجازة درسا على مسمع من كبـار العلماء ، حيث يوجه كل عالم سؤالا أو أسئلة تظهر معدن هذا الممتحن ، وقد كان هذا المجلس من الشدة والدقة بحيث لا يطمح اليه غير من وثق فى نفسه أكبر الوثوق ، وكم زيد عنه من نبغاء لم يبلغوا الدرجة المنشودة لدى أساتذتهم الكبار ! .

نقـول ذلك لأن عبد السـلام المويلحى بعد أن أجيز بالتدريس ، ترك الأزهر الى الأعمال التجارية الواسعة بعد وفاة والده ، حتى أصبح كبير تجار القاهرة ، وقد

تتلمذ فى الوطنية على جمال الدين الأفغانى ، ففهم الصحيح من معانى الحكم الدستورى ، والعدالة والمساواة ، حتى إذا صار عضوا بمجلس شورى النواب، تزعم معارضة الحكومة الناطقة بلسان الخديوى ، وأعلن المخالفة التامة لكل استبداد يأخذ طابع الشورى المظهرى ، وانقل عن كتابى (من صفحات التاريخ) بعض ما يشير الى هذا الموقف مع ايجاز لامح (١) :

لقد تقدم رئيس الحكومة ، مصطفى رياض باشا ، الى مجلس الشورى ، يعلن شكره للمجلس على ما أبدى من نشاط ! ثم يتلو الأمر الصادر بحله لانقضاء مدته المقررة ، وظن أن أمر الخديوى لا يحتمل النقاش ، ولكنه فوجىء بعبد السلام المويلحى يقول :

لا أدرى معنى لشكر الحكومة ، فاننا لم نقم بعمل الى الآن يكون له شبه فائدة تعود على البلاد ،فما هى المآثر التى سنتركها وراءنا لتشكرنا الحكومة فيما لو فرضنا المستحيل وانفض المجلس ! .

(١) من صفحات التاريخ ص ١٣٩ للمؤلف .

فذعر رياض وعاجل يصيح :

ماذا تقول حضرتك ؟ ! مستحيل أن يفض المجلس ؟!
كيف يكون مستحيلا وقد أمر به سمو الخديو ؟ ! أفاهم أنت مسئولية ما تقول ؟ ! ..

ـ فرد عبد السلام المويلحى بكل ثقة : أنا فاهم جيدا ما أقول ، وأقدر مسئوليته دون انكار .

دهش رياض واتجه الى النواب يصيح : أتوافقون على هذا الكلام ؟

فارتفعت الأصوات من كل جانب بموافقة المويلحى، وصاح أحد النواب : أنا موافق على ما قاله المويلحى وما سيقوله من بعد ؟

فانفجر رياض يصيح: أنتم عصاة، وتقدم عبد السلام المويلحى يقول :

لا تغضب يا باشا ، لقد ظهر لك موافقة اخوانى لأقوالى ، وهم جميعا يعرفون مسئولية ما يقولون، أما أمر الخديو بحل المجلس ، فمبنى على غلطة واضحة ، لأن الحكومة تستند الى مضى ثلاث سنوات من بدء انعقاده ، مع أنه لم ينعقد الا بتاريخ ١٨٧٨/١٢/٢٦

فلم يمض عليه غير عام واحد ، فكيف أصبحت المدة ثلاث سنوات •

فأجاب رياض متلجلجا : ان مدة انعقاد المجلس هى من بدء النطق الكريم الذى صدر من مولانا الخديو فى حفلة طنطا !

فعاجله المويلحى يقول : ما لنا وحفلة طنطا يا باشا ! ما مقدار رسميتها الآن ؟ عزومة شرفها سمو الخديو وتناول فيها الطعام ، ولم يدون بها أى حوار قانونى، تكون بعد ذلك ابتداء للانعقاد ! ما هذا ؟ •

خرج رياض عن طوره وقال : اذن أنتم بعمائمكم وقفاطينكم تقلدون نواب فرنسا !

فارتفعت أصوات الاحتجاج الغاضب من كل مكان ! وتقدم عبد السلام المويلحى ليقول لرياض :

اعلم يا باشا أن أهل وطنك ليسوا بأقل شعورا بما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات من نواب فرنسا ، والمسألة ليست مسألة ثياب تلبس ، ولكنها مسألة عقول وأفهام ! ونحن جميعا قرأنا فى الأزهر

الشريف علوم المنطق والبلاغة والمناظـرة والجـدل ! فلسنا كما تتوهم !

وكانت فرصة تركت للشيخ الصباحى أحـد علمـاء الأزهر وعضو مجلس الشورى أن يقول : إن رياض باشا تعلم فى الأورطة العسكرية وجاء يفتخر !

لم يجد رياض بدا من الانسحاب ، فأسرع بالخروج، وقدم استقالته فسقطت الوزارة بقوة المعارضة ، وزعامة المويلحى .

لقد كان هـذا الأزهـرى الجـرىء ، أول معارض دستورى شهـدته مصر ، فى أول برلمان مصرى ! وحسبه ذاك !

●●●

دور الأزهـــــر

فى الثورة العـــرابيـــة

كانت الثورة العرابية ثورة شـعب ، يهب مطـالبا بحريته ، مستردا كرامته السليبة ، وان بدأ بها الجيش المضطهد فأعطى انطباعـا مبدئيـا بأن الثورة ثـورة جيش .

ولا نفكر أن الضباط الأحرار ، بقيادة الزعيم البطل، أحمد عرابى ، قد هبوا مدافعين عن اضطهادهم ، وسوء ما يلقون من معاملة الرؤساء ، ولكنهم لـم يطالبـوا بحقهم وحده، بل طالبوا بحرية الشعب جميعه، ووجدوا من التأييد الشعبى الساحق ما جعل الثورة ثورة شعب بأثـره ، فاذا كان اضطهـاد المصريـين بالجيش سببا مباشرا لاندلاع الثورة العـرابية ، فان سـوء الوضـع السياسى فى مصر قد أرث الحريق فانتشر فى كل مكان .

يقول الأستاذ عبد الرحمن الرافعى فى تحليل الأسباب الدافعة الى هذه الحركة الواثبة : فى كـتابه الـرائـع « الثورة العرابية » .

لم يكن ثمة عدل ولا قانون، ولا قضاء ينصف المظلوم، ويعطى كل ذى حق حقه ، ولا حرية ولا مساواة ، ولا ضمانات قانونية تكفل للناس حقوقهم وحياتهم ، وكان الضرب بالكرباج شائعا ، يتخذه الحكام وسيلة لتحصيل الأموال ، أو أداة للقسوة والتعذيب ، حقا ان رياضا أمر بابطاله ، ولكن أوامره فى هذا لم تنفذ تنفيذا تاما ، وبقى الكرباج فى كثير من النواحى أداة للحكم .

وكانت السخرة مضروبة على البلاد ، ولم تكن مقصورة على المنافع والأعمال العامة ، بل كانت تستخدم لاستصلاح أطيان ذوى السلطة والجاه ، من الحكام والأمراء ، وكان النفى الى أقاصى السودان عقوبة يعانيها الكثيرون لمجرد الشبهة أو النكاية ، ولم تكن المظالم مقصورة على طبقة دون أخرى ، بل كانت عامة ، يعانيها العامة والخاصة ، ولم ينج من شرها إلا من تشملهم رعاية أولى الأمر ، على أن هذه الرعاية لم تكن مضمونة البقاء ، بل كثيرا ما تنقلب غدرا لغير ما سبب سوى أهواء الطغاة وتقلباتهم » .

ولسنا بصدد البحث التفصيلى فى أسباب هذه الثورة ، ولكننا نتحدث عن دور الأزهر فى نصرة الحق، حين أيد الثورة واشترك فيها ، وتعرض لمصاعب كثيرة،

وقد كان زعيم الثورة أحمد عرابى أحد أبناء الأزهر ، الذين نشأوا فى الريف المصرى بالشرقية فى أسرة متدينة، اذ كان والده من علماء الأزهر ، قضى عشرين عـــاما من عمره يتلقى علوم الدين واللغة والمنطق فى رحابه، حتى صار موضع الافادة والتوجيه ، وحين بلغ ولــده أحمد عرابى الخامسة ، أرسله الى مكتب القرية ، فحفظ القرآن ، وألم بالمبادىء التامة للـــكتابة والقـــراءة والحساب ، فى جو دينى أزهرى ، ثم التحق بالأزهــر الشريف فدرس به مبادىء الفقه والنحو .

وصادف أن أمر الوالى سعيد بالتحاق أولاد المشايخ فى القرى بالعسكرية ، فترك أحمد عرابى الأزهر الى الحربية ، وانتظم فى سلك الأورطة السعيدية المصرية بقناطر فم البحر ، ثم توالت الأيام فأتم تعليمه العسكرى وعين بعد امتحانه فى درجة (بلوك أمين) ومنها الى (ملازم ثان) حتى انتهى الى ما انتهى اليه من نظارة الحربية ، وزعامة الثورة التى نسبت اليه ، وعــرفت باسمه ، ولا ريب أنه انتفع كثيرا مع زملائه الأحرار ، بما بعثه جمال الدين الأفغانى فى الشعب المصرى ، حين أخذ يجمع طلاب الأزهر حوله ، ليعطيهم الى جــانب دروس المنطق والحكمة والتاريخ ، دروس الوطنيــة الصادقة ، وليشرح لهم مساوىء الاستعباد الداخلى ،

والاحتلال الأجنبى ، ثم يشجعهم على الكتابة فى الجرائد ، لينشروا فى الشعب المصرى روح النقمة على الاضطهاد .

فطلعت الصحف المختلفة بمقالات متتابعة ، لتلاميذ جمال الدين ، تبعث ضوءه فى كل مكان ، وبعد أن كانت هذه الجرائد مقصورة على الأخبار المحلية والمدائح الخديوية ، وتنقلات الوزراء والحكام ، أخذ أمثال محمد عبده ، وابراهيم اللقانى ، وعبد الكريم سليمان ، وسعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى ، وجميعهم من طلبة الأزهر ، يتحدثون عن حرية الشعب ، وسلطة الحاكم ، وتدخل الأجنبى ، ويدعون الى تأليف حزب وطنى سياسى ، وتمكين مجلس شورى النواب من حقه الدستورى .

وبذلك أصبحت الجرائد مدرسة سياسية يديرها من بعيد جمال الدين ، ويقوم بالتدرس فى فصولها تلاميذ الأزهر ونجباؤه ، ومن ينضمون اليهم من خيرة المثقفين ولعل أظهرهم جميعا ، هو الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله ، إذ لفت الأنظار بمقالاته الجريئة فى صدر الأهرام ، ثم اختاره رياض باشا للقيام على تحرير الوقائع المصرية ، فجعلها منارة للتوجيه الدينى ، والارشاد السياسى ، وأخذ ينتقد كبار المسئولين من الوزراء وحكام الأقاليم ، ورؤساء الادارات ، إذا رأى

فى تصرفاتهم ما يوجب النقد ، حتى ضجروا من هذا الصوت الجديد ، فطالبهم محمد عبده بالرد على النقد ، بدل الضجر والاحتجاج ! يقول الأستاذ محمد عبده ، بعد حديث مفيد عن رسالته بالجريدة الرسمية :

« لم يضيع رئيس التحرير - يعنى نفسه - فرصة فى انتقاد نظارة المعارف ، وسير التعليم ، واظهار معايير التربية ، وما يجب أن يؤخذ به من وسائل الاصلاح ، فغضب لذلك ناظرها (ع ٠ أ ٠ باشا) وكان بطىء الحركة ، خامد الفكر ، بعيدا عن الاحساس بحاجة الوقت ، فاشتكى الى رياض باشا من احتفاء الجريدة الرسمية به ، وتنقيبها عن مواضع الخلل فى أعمال نظارته ، فلم يسمع له ، بل أجاب بأن الحق أولى بالتأييد ، فان كان ما ذكرته الجريدة غير صحيح فما على الناظر إلا اقامة الدليل على ذلك ، وهى مستعدة لنشره فسكت ، لأن ضوء الحقيقة كان هو المرشد للمنتقد فى سبيل انتقاده » (١) ٠

واذن فقد تعبأ الشعور الوطنى بما كتبه العلماء فى الجرائد ، وما أذاعوه فى المجالس ، حتى قامت الثورة

(١) مذكرات الامام محمد عبده « كتاب الهلال » ص ٩٥

فكانوا جنودها الأوفياء ، ولسنا هنا بصدد تدوين أحداثها المثيرة ولكننا نشير فى ايجاز الى بعض المواقف الهامة لأبناء الأزهر ، فى هذه الانتفاضة الواثبة ، لينكشف الحق الصريح .

انتشر الوعى الوطنى ، وأحس الخديو أن القوة الحقيقية ليست معه ، لأن الذين يملكون رأيه من سفراء انجلترا وفرنسا ، وبعض الشراكسة والأتراك ، يلقون تيارا جارفا من أنصار الحركة العرابية ، لا سيما والحكم فى أيديهم ، لأن وزارة محمود سامى البارودى وزارة وطنية ، ووزير حربيتها قائد الثورة أحمد عرابى ، ولا خلاص من الأزمة إلا بسقوط الوزارة .

وهذا ما أشار به سفير الدولتين الدائنتين ، انجلترا وفرنسا ، ولم تكن الاشارة شفوية هامسة ، بل تعدت المشورة الى الطلب الرسمى فى مذكرة تطلب ابعاد أحمد عرابى ، وعبد العال حلمى ، وعلى فهمى ، الى أى جهة من جهات القطر خارج القاهرة ، ويتبع ذلك سقوط وزارة محمود سامى البارودى وتعيين وزارة موالية للأجانب والقصر ! .

وكان المنطق الطبيعى أن يرفض أحمد عرابى وجميع أعضاء مجلس الوزارة هذا المطلب التعسفى ، ولم

يكونوا وحدهم فى الرفض ، حيث اجتمع قادة الرأى من العلماء والكتاب معهم للتداول ، ثم صمموا على المقاومة الصريحة للاستبداد ، وجاء الشيخ محمد عبده، فوضع قسما وطنيا أداه الجميع ، ليمثل عهدا أمام الله بالاخلاص للوطن .

ثم تطورت الامور ، فاستقالت وزارة البارودى ، وأصبح الضباط وجها لوجه أمام مؤامرة محكمة من الأعداء !.

وهنا يؤدى الأزهر دوره الوطنى الرائع ، حين يجتمع شيخ الازهر ، العلامة الانبابى ، مع فريق من كبار العلماء ، أمثال الشيخ محمد عليش ، والشيخ حسن العدوى ، والشيخ أبو العلا الحلفاوى ، ليتشاوروا فى المأزق الحرج، ولينتهوا الى وجوب تأييد الثورة العرابية بكل ما يملكون ، فدعوا الى عقد اجتماع عام فى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ م ، حضره كبار العلماء ممن تقدم ذكرهم ، مع كبار الضباط والنواب والسياسيين ، من أمثال : شريف باشا ، ليدرسوا طلب الخديو فى ضرورة قبول المذكرة الانجليزية الفرنسية .

ودار البحث الصريح فى جو عاصف ملىء بالحذر والاشفاق من التآمر والغدر ، ورأى الخديو أن يباغت

الحاضرين بوجوده ، ظانا أن تأثيره الشخصى سيحدث بعض الانقسام فى الرأى ، ما بين مؤيد ومعارض ٠

ولكن طلبة عصمت باشا استمع الى رغبة الخديو فى ضيق ، حين رأى قبول المذكرة الأجنبية ، والخضوع التام لما تمليه فرنسا وانجلترا ، فهب واقفا ليخاطب توفيقا بقوله الصريح : إننا مطيعون لجناب السلطان العثمانى وللجناب الخديوى ، ولكن لا يسهل علينا تنفيذ ما بالمذكرة الأجنبية ، اذ لا حق لانجلترا وفرنسا فى التدخل فى شئوننا الخاصة ، دون الرجوع الى الباب العالى ، ونحن متمسكون بقيادة أحمد عرابى ٠

وقام الشيخ محمد عليش ، شيخ المالكية بالأزهر ، وندد بالتدخل الأجنبى ، فذكر أن الوطن لا يثق بغير أبنائه المخلصين ، وأن أحمد عرابى هو ممثل البلاد وزعيمها الصادق ، وتطلع الخديو فى وجوه العلماء ، فرآهم على اتفاق تام ، وأن ما قاله الشيخ محمد عليش صادف منهم الارتياح ٠

وحين لم يستجب الخديوى الى ما قرره المجتمعون من رفض المذكرة ، بادر طلبة عصمت بالانسحاب دون استئذان ، وتبعه شيخ الأزهر ، ورفقاؤه من كبار

العلماء ، ومنورائهم القواد والضباط ! وأصبح الموقف سافرا لا يحتاج مواربة أو مداراة ، فقد عرف الخديوى أن الشعب قد دبت فيه روح اليقظة ، وأن عرابى باشا لا يقف وحده ، وأن الأزهر من أكبر مؤيديه ، فاستعان بانجلترا وفرنسا من جديد ٠

ورأت أنجلترا الفرصة سانحة لتثبيت أقدامها ، وتحقيق مطامعها الاستعمارية القديمة ، قد أخفقت حملتها السابقة فى عهد « محمد على » على رشيد ، فأرسلت أسطولها الى الأسكندرية ليضربها بالقذائف وليحتل جنودها أماكن متعددة منها ! ٠

وماذا يستطيع الأحرار غير المقاومة المستميته أيا كانت العاقبة ، وقد اطمأن الخديو الى حماية الأعداء، فأصدر أمره باقالة عرابى ٠

واجتمع المؤتمر الوطنى للمرة الثانية فى ٢٢ يولية ١٨٨٢ ، وقام الإمام محمد عبده بالقاء كلمة مستفيضة ، تسلسل الأحداث ، وتثبت خيانة الخديوى للثورة ، وتابعه على الروبى باشا ، أحد أبطال الثورة ، فألقى كلمة مماثلة ٠

وأمام هذه الحقائق السافرة ، أصدر علماء الأزهر

فتواهم الجريئة بمروق الخديوى وخيانته منذ التجائه الى عدو البلاد ، مما يوجب عزله وادانته .

وقد وقع على الفتوى كل المجتمعين من علماء الأزهر ، ونذكر منهم : الشيخ محمد الإنبابى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد الله الدرسنارى ، والشيخ محمد عليش ، والشيخ يوسف الحنبلى ، والشيخ عبد الهادى الأبيارى ، والشيخ محمد الأشمونى ، والشيخ خليل العزازى . والشيخ مسعود النابلسى ، والشيخ محمد القلماوى ، والشيخ زين المرصفى ، والشيخ حسين المرصفى ، والشيخ سليم القلعاوى ، والشيخ عثمان مدوخ ، والشيخ عبد الرحمن السويسى ، والشيخ أبو العلا الخلفاوى ، والشيخ أحمد الخشاب ، والشيخ عبد القادر الرافعى ، والشيخ عبد القادر الدليشانى ، وما انتهى الاجتماع حتى قامت حركة الدعوة الى الجهاد ، يحملها شباب الأزهر مقتديا بكبار علمائه .

وقد بذل الشيخ محمد عبده ، وعبد الله النديم ، وعبد الهادى الأبيارى ، وهم من حملة القلم ، وأرباب اللسان ، جهدا بارعا فى العمل على جمع الكلمة .

ومهما تكن النتيجة قاسية ، فإنها شهد الله كانت مشرفة

وضيئة ناصعة ، لشعب أعزل ، رفض الذلة والهوان ، وحارب بيده وجسمه حديد العدو وناره ، فعلم الناس جميعا ، أن الاحتلال لم يتكرس الا بالخيانة والتواطؤ، والا بعد أن فنيت آلاف الأرواح دفاعا واستشهادا .

وفى هذا أبلغ رد على من يحاولون الاستخفاف بهؤلاء الأبطال الكماة ، الذين زاروا مندفعين الى القذائف الحامية دون مبالاة ، حتى تناثرت الأشلاء فى التل الكبير شاهدة بالكرامة ، ناطقة بالاستبسال ، فجعلت الهزيمة شارة فخار ، ووسام إباء ، وهذا ما عناه الشاعر الوطنى الكبير الأستاذ فخرى أبو السعود حين قال فى معركة التل :

أعد ذكر ماضى النيل للجيل منشدا
فما أعذب المجد الأثيل المرددا
نتيه بماضينا القديم تفاخرا
وأحر بأن يروى الحديث فيحمدا
ولم أر يوم التل عارا وسبة
ولم أره الا أغر مخلدا
أنخجل أن قمنا نذود عن الحمى
ويسحب أذيال الفخار من اعتدى

تدفق من عبر المحيط مهـــددا
فما حفلت آباؤنا من تهــــددا

وقالوا شـــباة السيف دون عدونا
وان يك عرض البــر والبحر أزيدا

اباء تليد المجـد قـــر لـــه رضى
وقر له عظم الفراعين ملــحدا (١)

فيا من رأى أبنـــاء مصر اذا انبروا
الى غول الاستعمـــار صفا مجردا

على حين ماجت خـــيله وسـفينه
ولم يبصروا فى الشرق والغرب مسعدا

ســلام على شـــهم تولى زمـامها
أعف الورى قصدا وأنقاهموا يــدا

جـــريرته أن رام مصر عـــزيزة
وشاء لها أن تستقـــل وتســـعدا

ستذكره مصر الفتيـــة ما ابتغت
لدى الحق عهدا أو لدى المجد موعدا

عسى ذكرنا رغم الهزيمة أحمـــدا
سيبعث فينا للغنيمـــة أحمـــدا

---

(١) اى العظم فى اللحد ، وتقرا « ملحدا » بفتح الحاء .

وبعد انتهاء الثورة تعرض زعماؤها للمحاكمة ، فكان نصيب العلماء فادحا ، أذ منهم من سحب على وجهه واقتيد الى العدوان على كبر السن ووهن العظم، فمات بعد أن عذب ورمى به فى مستشفى بدائى ، وهو شيخ المالكية الشيخ محمد عليش رحمه الله ، ومنهم من عذب وصودرت أمواله ودياره ، ثم رمى به الى المنفى السحيق ، ومن هؤلاء العلماء الأبطال : الشيخ عبد الرحمن عليش وقد نفى الى الآستانه الشيخ عبد القادر الدليشانى ، ومحمد عبد الجواد القياتى ، وأحمد عبد الجواد القياتى ، ومحمد عبده ، وقد نفوا الى بيروت ومحمد الهجرمى، وقد نفى الى مكة المكرمة، ويوسف شرابة وقد نفى الى مكة المكرمة ، مع تجريدهم من الرتب والألقاب والمناصب وعلامات الشرف ! وهى أزياء خارجية لا قيمة لها عند العقلاء ، لأن هؤلاء العلماء الأفاضل لم يجردوا من كرامتهم وعلمهم وشجاعتهم ، فظلت كلها باقية ، تضفى عليهم لألاء السعادة ، وطمأنينة النفس ، وراحة الضمير .

وقد أبدت محاكمات العلماء خوارق باهرة حار لها أعوان الاستعمار أنفسهم وفغرت أفواههم دهشا واستغرابا ، وسأنقل عن كتابى « من صحائف التاريخ » (١) موقفا رائعا لعالم باسل أزهرى جرىء ،

---

(١) من صحائف التاريخ للمولف ص ١٣٦

هو الشيخ حسن العدوى ، قد مهدت له بكلمات يسيرة تكشف عن مناسبته أذ أقول :

« خيم على مصر ظـلام ظالم ، حين دخـل توفيـق القاهرة ، مدججا بالحراب الإنجليزية ، ومن فوقه العلم البريطانى يرمز الى احتلال بغيض يزهق الأنفس ، ويحرج الصدور ، وقد انقلب المسرح فجأة ، فأصبحت الادارة والرياسة فى أيدى خونة مرتشين ، تفيض أردانهم بالنتن الموبق ، وتسيل أكفهم بالمال الحرام .

وقد شـاءت السخرية المريـرة أن تقيم للابطال من أحرار الوطن محاكمة ارهابية ، تقتص من الـكرامة والحرية والعزة ، فتسوق محمود سـامى البارودى ، وأحمد عرابى ، وعبد العال حلمى ، وطلبة عصمت ، ومحمـود فهمى ، وعلى الروبى ، ومحمد عبده ، الى أقفاص الاتهام مكبلين مصدفين ، وتقدم للأوغاد الخونة ، من جواسيس الاستعمار ، وأذناب القصر ، كسلطان ، وخنفس ، والطحاوى ، أوسمة المجد ، ونياشين النباهة ، وذهب المعز ، فأى حق رفع ؟ وأى باطل يقام ؟

جاء دور الشيخ حسن العدوى فى المحاكمة ، وقد خيم

الارهـــاب فى كل زاوية ، وأخذ الطغيان بكل خنـــاق ، وتعاهــد الخونة على أن يذلوا كبرياء هولاء الأباة ، متوهمين أن الشجاعة ستذوب فى ساحة البطش ، فتنكس رءوســا كانت مرفوعة ، وتخفض أصواتا طالما جلجلت بالزئير ، وينظر القاضى متشامخا الى الشيخ الوقور ، وقد وقف أمامه فى ثبات وإقدام يصيح به ـ أأنت وقعت على المنشور ؟

فيقول الشـــيخ حسن العــدوى : أى منشور تريد ؟

ـ المنشور الذى يقضى بعزل الخديوى عن أمر البلاد .

فيرتفع صــوت الشــيخ الجــرىء : لو جئتم بمنشور جديد يقضى بعزله لوقعته فورا دون تأجيل ، لقد خان توفيق وطنه واسلامه ! .

وترتج المحكمة ارتجاج الباطل أمام زلازل الحق ، ويصيح القاضى متســائلا فى حيرة : أسمعتم ما يقول ؟ فيزأر الشيخ ثانية : الخديوى خائن خائن ! .

وينظر القوم بعضهم الى بعض ـ وأكثرهم مصريون للأســف ـ فيجــدون قطرات الخــجل تملأ وجوههــم الشاحبة ، وتمتمات الحيرة تعقد ألسنتهم ، فما يجدون

ما ينطقون ، وقد وقف المحامى الانجليزى (برودلى) موقف الاعجاب من الشيخ ، ثم رنا الى أصنام المحكمة الجالسين مجالس القضاة كالساخر المستهزىء ، وكأنه يقول لهم : هل تجرؤون أن تكونوا مثله ، هل تجرؤون ؟

●●●

بعد الاحتلال الإنجليزى

حين أخفقت الثورةالعرابية، وداهم الاحتلال البلاد، غمر الأمة المصرية شعور بالحزن الفاجع، وشعر كل مواطن أنه فقد أعز شى لديه، وكان شعور الانسان بينه وبين نفسه، وبينه وبين خلطائه ممن يبدى لهم سريرته، شعور من رجع الى داره بعد أن دفن خير أحبائه، فقد مات خيرة الشباب النضرة فى المعارك غير المتكافئة. ونفى سادة المصريين وكبار علمائهم الى حيث لا يراهم أحد، وأصبح الخونة، سادة يولون المناصب، ويتحكمون فى رقاب الأحرار، وأراد الله أن تعم النقمة نفرا من الأذناب الذين خانوا البلاد، حيث رأوا من المحتلين أنفسهم من ازدروهم، أذ عرفوا قيمتهم الحقيقية الهابطة فى دنيا الشرف والأمانة والفداء.

ولنا أن نشهد بسلطان باشا الذى ساعد على الخيانة مساعدة غادرة، حين وشى بالعرابيين الى أعدائهم، وقاد كتائب الانجليز ليدلهم على الطرق نحو التل الكبير وكفر الدوار، لينازلوا الأحرار من الثائرين، ثم أخذ يكاتب مشايخ العرب ليجمعهم فى صف واحد أمام

الوطنيين ، وكذلك بذل الجهد الجاهد فى استمالة ضعفاء النفوس من العمد والأعيان ، وقليل ما هم ، ثم حظى برضا الخديو توفيق عقب انتهاء المعارك ، وأخذ يبدى من الغطرسة والاستعلاء مادل على حقد أسود ، ولؤم بغيض ٠

ثم كانت كارثة مروعة حين انتدب الى الاشراف على الشواطىء ، ومراقبة مياه النيل فى الوجه القبلى أيام الفيضان ، انتدبه المحتلون الى هذا العمل ، بعد أن ظن أنه سيرأس مجلس النظار ، وسيكون الرجل الثانى بعد الخديوى محمد توفيق ، وقد صدع بالأمر على غيظ ، وحاول لقاء المعتمد البريطانى فلم يجد لديه بارقة احترام ! فزاد همه وتضاعفت أمراضه ، وأدركه الندم ولكن بعد ماذا ؟

وقد نفى علماء الأزهر مع المبعدين ، فما وهنوا ، بل كان منهم من ضاعف العمل لمحاربة الاحتلال وهو منفى عن البلاد ، وتلك جرأة ممتازة ، لأن الذى يقوم بمناهضة الاحتلال ، ومعاندة الخديوى وهو مبعد عن مصر ، ستسوء سمعته لدى الحاكمين ، وسيصرون على ضرورة ابتعاده الدائم ، دون أن يجد من يشفع له فى العودة الى البلاد ، ونذكر من هؤلاء : الأستاذ محمد

عبده ، فقد نفى الى بيروت ، فلم يسكت ، بل واصل المعارضة الغاضبة لأعداء الإسلام والمصريين ، ثم رأى أن يغادر بيروت الى باريس ، ليجتمع مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، فيعيدا ما بدءا به من مناهضة الاحتلال ، ولك أن تتصور جهاد غريبين فقيرين لا يملكان شيئا ذا بال ، ثم هما بعد ذلك يصدران مجلة العروة الوثقى لمحاربة الاحتلال ، ويقابلان أساطين الساسة من الوزراء والنواب ، ويكتبان فى الصحف العالمية منددين بفظائع الاستعمار فى كل بلد اسلامى دون ابطاء ، بل سافر محمد عبده الى انجلترا نفسها ليصارع الاستعمار فى عقر داره ، وقد كتب فى صحيفة « البال مال » يقول فى صراحة سافرة ، مخاطبا الانجليز (١) :

« اننا نرى انتصاركم للحرية انما هو انتصار لما فيه مصلحتكم ، وان عطفكم علينا كعطف الذئب على الحمل ، وقد قضيتم على عناصر الخير فينا ، لكى تكون لكم من ذلك حجة البقاء فى بلادنا ، فلم لا تغادرون مصر ؟ لقد علمتمونا شيئا واحدا ، هو التضامن فى مطالبتكم بالجلاء .

---

(١) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٢

شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن أوطاننا ، وأردنا لبلادنا اصلاحا وتقدما كتقدم الأوربيين فى طريق الحرية ، لكننا نعلم أن بمصر الآن ما هو شر من استبداد الحكام ، وشر من ظلم الأتراك ، ان لنا رجاء واحدا ، وهو أن تغادروا بلادنا الى غير رجعة » ٠

ولما سأله محرر الصحيفة عن الخديو توفيق ، قال : ان توفيقا أساء الينا أبلغ السوء ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، وانضم أيام الحرب الى أعدائنا ٠ ولا يمكن أن نشعر ازاءه باحترام ! !

نقل الأستاذ العقاد هذا الرأى الجرىء ، ثم عقب عليه بقوله (١) :

« قال هذا وهو لا يبالى أن يظل منفيا عن بلاده أبدا ، لأنه لن يعود على غير رضا الخديو صاحب السلطة الشرعية ، ورضا المحتلين أصحاب السلطة الفعلية ، وقد بقى فعلا غير ماذون بالعودة ، بعد انقضاء الموعد المحدد لنفيه ، وهو ثلاث سنوات » ٠

عاد الامام الى مصر ، فادرك أن واجبه الأول أن

---

(١) محمد عبده للاستاذ عباس محمود العقاد ص ١٨٣

يكون قائدا للتربية الصحيحة فى البلاد ، اذ أن سيطرة الاحتلال لا تسمح للشعب الأعزل بالمقاومة السريعة ! ولابد أن ينشأ جيل ناهض يعتنق مبادىء الحـــرية والكرامة والاستقلال .

وقد مات توفيق ، وجاء ولده عباس ، وكان شـــابا يتطلع الى الخلاص من قبضة الاستعمار ، ولكنه فوجىء بأغلال تعض يده ، وتكبل قدمه ، فلم يستطع شيئا ، ورأى أن يتصل بأصحاب الرأى ليساعدوه على المسير .

وكان فى طليعة هؤلاء الأستاذ محمد عبـده ، وقـد أخلص له المشورة ، ودعاه الى اصلاح الأزهر والأوقاف ، والمحاكم الشرعية ، وهى الجهات الثلاث التى بعدت عنها سيطرة الاحتلال ، لأن اتصالها بالدين الاسلامى جعل لها حساسية خاصة لدى قوم من المستعمرين ، لا يريدون أن يتدخلوا فى أمور لا يكسبون شيئا من ورائها . ثم هم لا يخسرون شيئا أيضا ، اذا تركوا للحاكم الشرعى أن يصلح ما يراه معوجا فى دائرته المحدودة .

ولو كان عباس الثانى صـادق النيـة فى الاصلاح ، لسارع الى تنفيذ ما أشار به الأستاذ الامـام ، ولـكنه اراد أن يكون ذا مصلحـة شخصية فحســب ، حين يولى

أمور الأزهر أناسا يأتمرون بأمره ، دون قدرة على المعارضة الناصحة ، والمجاهرة الصريحة ، وحين يجعل أعضاء مجلس الأزهر وسيلة لكسب مادى خطير ، يرسم له الخطط ، ويدبر له طرق الاحتيال ، وهذا ما عارضه الامام فى قوة صريحة .

لقد كان للخديو أرض زراعية فى احدى جهات الشرقية وللأزهر بالجيزة أرض بنائية ، تباع الأولى بالفدان ، وتباع الثانية بالمتر ، وان تساويا معا فى المساحة العددية فشاء أن يستبدل أرض الأزهر بأرضه ، وهى لا تبلغ فى قيمتها الشرائية ما يساوى واحدا من الثلاثين اذا قيست بأرض الأزهر ، فأوعز الى بعض مساعديه من أعضاء مجلس الأوقاف أن يتقدم باقتراح المبادلة بحجة أن المساحة متكافئة ، وظن أن منزلته العليا ستمنع كل اعتراض .

ولكن الأستاذ الامام مع نفر من المخلصين قد رفض المبادلة ، وأعلن أنها اعتداء على أوقاف الأزهر ، وأن على الخديو أن يدفع للأزهر الفرق المالى الكبير بين الصفقتين وقدره عشرون ألفا من الجنيهات اذا أراد الاستبدال ، وعشرون ألفا فى ذلك الزمن مبلغ خطير ، ندرك قوته الشرائية ، اذا علمنا أن ثمن الفدان الواحد حينئذ كان لا يتجاوز ثلاثين جنيها ! وضاق الخديو بصراحة الامام ، وهدد من تابعوه ! .

ثم شاء أن يتدخل فى شئون الأزهر ، ليحرم نابهـا من العلماء أن ينال رتبته ، حين يوعز بمنح الرتبة الى أحد خاصته من العلماء ، ممن لا يصلون الى مستواها! مريدا بذلك أن يصل صاحبه بهذا المنـح الى عضـوية المجلس الأعلى لشئون الأزهر ، فينضم الى مساليه ، ويصبح الخديو ذات أصوات راجحة ، يدير بها المجلس كيف يشاء ، مهما عارضه عالم صريح الرأى كالأستـاذ الامام ، وهى مسألة مشتهرة كتب عنها مؤرخو محمد عبده بإسهاب ، ولكن الدكتور أحمد أمين لخصها بإيجاز سريع فقال (١) :

« وحدث أن خلا مكان لكسوة التشريفة فى الأزهر ، فأراد الخديو أن يشغله الشيخ محمد راشد مفتى المعية (الخديوية) ولم يكن تنطبق عليه اللائحة الموضوعة ، فأوعز الشيخ محمد عبـده بعدم تنفيذ ذلك الأمر ، واعطاء الكسوة للمستحق ، وزاد الطين بله ، ان العلماء لما اجتمعوا عند الخديو فى التشريفات ، كـلم الخديو شيخ الجامع فى غضب وتوبيخ ، فرد عليه الشيخ محمد عبده فى حدة :

---

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث للدكتور أحمد أمين ص ٣٢٠.

« اذا شاء أفندينا أن تكون كســـاوى التشريفات بمقتضى ارادته الشخصية ، فليصدر بذلك قانونا ينسخ هذا القانون » ، فلما سمع الخديو هذا الرد أحمر وجهه ووقف ، ايذانا للحـــاضرين بالانصراف ٠ وآلى على نفسه أن يحرج المفتى ويكيـــد له ، حتى يخرجـــه من منصبه ، وينتقم من فعلته » ٠

ومن يومها والدسائس المنكرة اللئيمة تتابع الامام، وقد انحطت هـــذه الدسائس الى درك من القـــذارة والدناءة لا يطرق على بال ، ولعل أكثرها مدعـــاة للدهشة أن تلفق صورة للامام مع بعض حسناوات أوربا فى موضع شائن ، وأن تنشر فى الصحف مع حمـــلات التشهير ، لتلقى فى روع العامة أن الامام لا يلتزم بآداب الاســـلام ٠

وقد سارع الشيخ الى القضاء ، فعين الخبـير الفتى الذى أصدر رأيه بتلفيق الصورة ! كما صادف أن أفتى الامام بجواز لبس القبعة لمن يعيش فى بلاد الغرب ، فأعد الخديو كتيبة من منافقيه ليرجفوا بالامام ويعلنوا جهله وكفره ! مع أن الخديو يلبس القبعة فى فرنســـا وانجلترا ! ولكنه ينسى ذلك تشفيا وانتقاما من امـــام مخلص يدعو الى الاصلاح ! ولا نفيض فى تسلسل مواقف الامام من طغيان عباس ! لأن ما أشرنا اليه مقنع كاف٠

ننتقل الى دور الطلبة أنفسهم فى مقاومة الاحتلال ، والحق أن جميع طلاب المدارس العالية كالحقوق والهندسة والطب ودار العلوم ، كذلك طلاب المدارس الثانوية والفنية ، قد أعلنوا غضبهم على الاحتلال ، ووجدوا فى جريدة اللواء التى يصدرها الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل متنفسا لاقلامهم ، ومشجعا لحركاتهم الوطنية .

وقد قام المرحوم الأستاذ عبد الرحمن الرافعى ، بتدوين كثير من مواقف هؤلاء الناهضين، إذ كان طالبا بالحقوق ، ومعاصرا لما دون ، فهو ينقل عن عيان ماثل، لا عن سماع يروى ، أو تاريخ يقرأ .

على أن جنازة مصطفى كامل قد أظهرت روح الطلاب اظهارا أفزع المحتلين ، اذ رأوا عن يقين أن سياستهم فى أخذ الشبيبة بالشدة ، ومحاولة اقصائهم عن العمل الوطنى ، قد عادت بالإخفاق الذريع ، حتى رأينا السير غورست يهرع الى الخديوى عباس مستنكرا هائجا ، وقد قال له فى حدة : « اذا كانت أفكار الطلبة بهذا الشكل ، فماذا يكون منهم عند تقلدهم الوظائف العامة » (١) .

---

(١) مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢ ص ١٤٢ لاحمد شفيق باشا .

ومع وجود إشـــارات كثـيرة للنشاط الأزهرى فى الـكتب التى أرخت هذه الفـترة ، فإن ممـــا يؤسف الباحث المحايـد ، ألا يجد محاولة جـادة لتتبع هـذا النشاط ! .

ولا نتهم من تصـــدوا لتاريخ هــذه الحقبة بتعمد الاهمـــال ، ولكننا نقول : إنهم فى كليـــاتهم المدنيـــة لم يستطيعوا الإلمام بهــذا النشاط كما لمســوه عيانا فى كلياتهم ، ونحن بمراجعة صحف هذا العهد ، نجد أن جريدة اللواء قد نشرت بتاريخ ٢٥ ينايــر سنة ١٩٠٩ مقالا كبيرا يتحدث عن إضراب الطلاب بالأزهر ، إذ رفضوا العــودة حتى تجاب مطالبهــم الاصــلاحية ، وعقدوا عدة اجتماعات كثرت فيها الخطب الحماسية، التى لــم تقف عنــد حــدود الإصــلاح التعليمى ، بل تجاوزته الى المناداة بالحرية والاستقلال .

وقد هاج الخديو عباس متأثرا بما رأى ، اذ كان يظن أن حركة محمد عبده الإصلاحية قد ماتت بموته ، وأن الذين يسيطــرون على الطــلاب من مناوئى الأســتاذ الإمام قد عفوا على كل أثر تركه ! .

وها هو ذا يجد تعاليم محــمد عبده تذيع وتمتد ، وتصبح موضع الاتفاق التــام من الشبيبة الأزهــرية ،

فأضطر الخديوى الى تأليف لجنة برعاية وكيل الجامع الأزهر ، الشيخ محمد أبى الفضل الجيزاوى ، للبحث فى أسباب الإضراب .

وحاول أعضاء اللجنة أن يطمئنوا الطلاب بالوعود المعسولة ، ولكنهم لم يجدوا لديهم غير الكلام فقط ، فألفوا اللجان الداعية لمواصلة الجهاد ، واتصلوا بالحزب الوطنى ، فوجدوا من أعضائه ومن جريدته « اللواء » كل تأييد ، اذ دأبت الجريدة الوطنية على نشر أخبار الطلاب ، فلفتت أذهان زملائهم الطلاب فى المدارس العالية الى ضرورة تأييدهم ، وتجمع فى نادى المدارس العليا حشد غفير من الطلاب ، يعلنون تأييدهم لحركة الاصلاح الأزهرى ، ويدعون الى مظاهرة عامة ، تسجل هذا التأييد فى صورة حماسية لا تقبل الشك .

وقد قامت بالفعل هذه المظاهرة الرائعة ، فى ٢٧ يناير سنة ١٩٠٩ ، حيث تقدم طلبة الأزهر الجموع المحتشدة فى صفوف متوالية الى ساحة عابدين هاتفين .

ودعوا الى اجتماع عام فى الغد بحديقة الجزيرة ، يضم جماهير كثيرة من طلاب المدارس العالية ، ولم يتخلف أحد فى الموعد المحدد ، بل زاد عدد المتظاهرين فى غدهم زيادة ملموسة .

وقد توجهوا بعد أن ألقوا خطبهم الثائرة فى حديقة الجزيرة الى دار اللواء ، هاتفين بحياة الحزب الوطنى. واصطدم البوليس بهم اصطداما تبودلت فيه ضربات العصى ، وقذائف الحجارة .

وأذكر أن مجلة كلية الآداب (١) بالمنصورة نشرت فصلا قويا مؤيدا بالمراجع الدقيقة ، يشير الى ما كان من أمر هذه المظاهرة الأزهرية الخطيرة ، وقد مهدت له بتوطئة جيدة ، عن مكايد الاحتلال البريطانى ، وخطط غورست ودنلوب فى اجهاض التعليم بمصر ، ثم أوجزت ما قام به الطلاب فى مختلف المدارس من مظاهرات حماسية واجتماعات سياسية متعاقبة، ورأت أن تفيض فى حديث المظاهرات الأزهرية ، فتحدثت عن دوافعها وخطواتها المتتالية يوما بعد يوم ، الى أن قالت مستندة الى مصادرها الصادقة ومن بينها مذكرات الزعيم سعد زغلول (٢) :

« واذا كانت تحركات طلبة الأزهر قد بدأت حول

---

(١) بالعدد الأول من مجلة كلية الاداب بالمنصورة ما بين (ص١٢٥، ١٥٢)بحث تاريخى واف أعده الدكتور الفاضل على بركات تحت عنوان (دور الطلبة المصريين فى الحركة الوطنية قبيل الحرب الاولى).

(٢) مجلة كلية الآداب ص ١٣٥

بعض المطالب الخاصة بالأزهريين ، فانها سرعان ما تحولت الى حركة ذات طابع سياسى ، إذ اتجهت هذه الاضرابات الى هجوم على الخديو ، وطالب «الأزهريون» بأن يكون للأزهر السيطرة على أوقافه، التى كان يتلاعب الخديوى بمقدراتها فى اطار تبعيتها للأوقاف .

وازاء تفاقم الأحوال ، تم اجتماع خاص فى قصر عابدين ، ضم الخديو ، وشيخ الأزهر الشيخ حسونة النووى ، ورئيس النظار ، وناظرى المعارف والحقانية، وفى هذا الاجتماع تقرر رفض كل طالب أو عالم يمتنع عن تحصيل الدروس ، مع ايقاف كل من يريد منع غيره من مواصلة الدراسة ، وأمام هذا الموقف ، وأمام تشديد الحراسة ، قرر الكثير من الطلبة اخلاء الأزهر، والعودة الى منازلهم وقراهم .

وفى أول فبراير ، اجتمع مجلس الأزهر الأعلى برياسة الخديو ، وأصدر قرارا بحرمان الطلبة من دخول الأزهر فيما عدا طلبة السنتين الأولى والثانية، والطلبة الأجانب الذين لم يثبت اشتراكهم فى هذا الاضراب .

وأيدت جريدة اللواء موقف الطلبة الذين نفد صبرهم لسوء الادارة ، والاستبداد الذى يمارس تجاه الأزهر ، واتخذ الحزب الوطنى من اغلاق الأزهر مبررا للهجوم على بطرس غالى شخصيا .

وقد فوت الطلبة على الحكومة ضرب حركتهم ، حين تضامن الذين سمح لهم بالدراسة فى الاضراب مع اخوانهم الممنوعين من العودة للدراسة ، وانبثقت منهم لجنة الاتحاد الأزهرى الفرعية ، وهى التى أخذت على عاتقها مسئولية قيادة التحركات الطلابية » .

وطبيعى أن يتأزم الموقف ، وأن يميل الخديو للتشدد فيستقيل شخ الأزهر حسونة النواوى ، وتنكل الحكومة بالطلاب على يد بعض صنائعها الأذيال ، فتعتقل مائة وعشرين طالبا ، وترغم مئات على الرحيل الجبرى الى مواطنهم الأصلية فى القرى ، وتمنع العلماء من الصلاة بالأزهر ! !

ولكن سعد زغلول رحمه الله ، يعارض ذلك كله ، ويجمع معه عددا من الوزراء ، مطالبين بالعفو التام عن الطلاب ، والاسراع فى اصدار قانون الاصلاح ، ويستجيب الخديو مضطرا ، ويهدأ الطلاب ، ويبدعون

دروسهم ثانية ، ولكن قانونا آخر يعاجلهم دون مبرر، يمنع اشتراك الطلاب فى المسائل الوطنية ، ويحرم عليهم الكتابة فى الصحف ! •

وطبيعى أن يثور عليه الطلاب ، وأن يؤيدهم زملاؤهم طلاب المدارس العليا ! فتلجأ الحكومة الى اصدار قانون المطبوعات ، وهو الطامة التى أشعلت النار فى البترول ، فهاجت الصحف ، وتجددت المظاهرات ، وكثر التصادم الدموى بين الطلبة والبوليس ، ليصدق قول شوقى فيما بعد :

وللحرية الحمراء باب   بكل يد مضرجة يدق

هذه اشارات موجزة ، تدل على غيرها ، ولعلها تجد من يتهيأ لتاريخها تاريخا منهجيا ، لأن هذه الحقبة المظلومة تحتاج الى انصاف عادل ، يقوم به محقق أمين •

●●●

الأزهـــــــر

يقود ثورة سـنة ١٩١٩

تحدثت الصحف اليومية جميعها بإسهاب عن ثورة سنة ١٩١٩ ، فوالت الصفحات وراء الصفحات ، فى سرد أحداثها ووقائعها ، بمناسبة مرور نصف قـرن عليها ، وكان عجيبا أن يغفل دور الأزهر فى هـــذه الثورة إغفالا لا ندرى الباعث عليه ، الا ما ندر مـن أسطر ضئيلة لا تصور الحقيقة الكبيرة .

مع أن الثورة بدون جهاد الأزهـر تفقد الـرائـع الجليل ، ولا أقول ذلك تزيدا وادعاء ، بل أرجع الى ما ذكره الأستاذ محمود العقاد ، فى كتابه الشهير ، عن زعيم الثورة ، حيث أعلن أن سعد زغلول نفسه فوجىء بالمظـــاهرة الـكبرى ، التى انبعثت من الأزهـــر ، فأحدثت الشرارة الأولى فى الشعب ، ثم اندلع لهيبها فى سائر المـدن والقرى ، وقـد نص العقـاد صراحة ص ٢٢٦ وما بعدها على أن الثورة فى بدايتها لم يكن لها تنظيم من الوفـد ، ولم يـكن على رأسهـا مدبر مسئول عن رجال السياسة الرسمية ! حتى لقد تعجب

سعد رحمه الله فى معتقله حين واتته الأنباء بمظاهرات الأزهر ! .

ولكن ما أغفلته الصحافة هذه الأيام ، قد عـرفه الناس جميعا ، وأشاد به شوقى حين قال فى قصيدته الشهيرة :

المعهـد القـدسى كان ندبــة
قطبا لدائرة البــلاد ومحورا
ولدت قضيتها على محرابه
وحبت به طفلا وشبت معصرا
وتقدمت تزجى الصفوف كأنها
جاندارك فى يدها اللواء مظفرا

ولم يكن احتضان الأزهر لثورة سنة ١٩١٩ حـدثا غريبا على تاريخـه ، أو شيئا بعيـدا عن رسالته فى محاربة الطغيان ، إذ أننا نعـرف أن الثورة الأولى للشعب المصرى فى عهد الحملة الفرنسية ، كان زعماؤها الوطنيون جميعا من علماء الأزهر ، ومن يلوذ بهـم من التجار والأعيان ، وكان الشباب الفدائى فيهـا من طلبة العلم بالأزهر الشريف ! .

وأنت حين تقرأ تاريخها المنصف ، تلمس هــذه الحقيقة الكبيرة فى كل سطر تقرؤه ، فاذا انتقلت الى الثورة الثانية ، تجد زعيمها البطل أحمد عرابى ربيب الأزهر وتلميذ حلقاته ، وتجد أكثر أعوانه المخلصين، وموجهيه الصادقين ، من رجال الأزهــر ، وقــد ظل توفيق مكينا فى كرسيه لدى الشعب حتى لفظه قــرار الشيخ الانبابى بخلعه ، وفتوى الشيخ عليش بمروقه .

وحين أحبطت الثورة الباسلة ، كان صفوة المعاقبين سجنا ونفيا وتشريدا من علماء الأزهر وأبطاله، وفى مقدمتهم الامام محمد عبــده ـ رضى الله عنه ـ أمــا الثورة الثالثة ، فلا نقول ـ فقط ـ إن زعيمها الشعبى سعد زغلول هو ابن الأزهر وتلميذه ، بل نعلن أن الأزهر كان صاحب الدور الرئيسى فيها ، بما قام بــه من أحداث خطيرة ، تحيفها الكاتبون اليوم دون مبرر معقول ، فرأيت أن أشير اليها فى هذا المقال .

لقد تحدثت الصحافة عن انتهاء الحرب العالميــة الأولى ، وسجلت الوثائق المتبادلة بين وزراء الخارجية فى لندن ، ودار الحماية فى مصر ، بشأن ما تقدم بــه الزعماء من المطالبة بتقرير المصير ، ثم ما تهددهم به اللورد اللنبى من قمع وانتقام ، ولن نفيض فى شىء

من ذلك بل نخلص منه الى أن احباط الدسائس البريطانية لم يكن ليتم بدون نشاط الأزهر ووعيه الوطنى ، فقد أراد اللورد كيرزن وزير الخارجية البريطانية أن يسعى بالفساد بين عنصرى الأمة، فزعم أن الأقباط يؤيدون الاحتلال ويعارضون الثائرين، وأن الثورة حركة هوجاء ، يقوم بها الرعاع والغوغاء من المتطرفين ، فسعى أساتذة الأزهر ، وعلى رأسهم مصطفى القاياتى ، ومحمود أبو العيون ، وعبد ربه مفتاح ، ومحمد عبد اللطيف دراز ، وعلى سرور الزنكلونى ، الى كنائس الأقباط يجمعون الكلمة ويوحدون الصف ، ودخل القمص سرجيوس الأزهر بأمر الشيخ القاياتى ، ثم اعتلى منبره ليتحدث مع المتحدثين .

كما رأى علماء الاسلام من واجبهم أن ينهضوا لتشييع جنازة من يستشهد من المسيحيين ، كما يشيعون جنائز الشهداء من المسلمين ، دون تفريق !

وقد أرسل الشيخ ابراهيم سليمان قصائده الوطنية، داعيا الى الاتحاد الأخوى فى أراجيز سهلة ، قامت مقام الأناشيد الحماسية ، وقد زاع منها هذا البيت على كل لسان :

الشيـخ والقسيس قسيسان
وأن تشأ فقل هما شيخان !

وبهذه الخطوة الحاسمة من رجال الأزهر ، سقطت حجة وزير الخارجية البريطانى ، واضطر الى أن يلفق كلاما آخر يبرر فيه وجود الاحتلال البريطانى ، بعـد أن أصبح حديث التعصب الدينى لدى المسلمين مهزلة مفضوحة ينكرها الواقع الصريح !

هذا موقف رائع للأزهر، يذكرنا بموقف آخر لا يقل عنه روعة فى العمل على وحدة الصف ، ذلك حين أرجف المعتمد البريطانى بأن الموظفين لا يوافقون جميعـا على الثورة المصرية ، مستندا الى أن أقلية قليلة مـن الموظفين لم تضرب مع المضربين ، إذ واصلت العمل فى أحلك أيام الثورة عن رهبة لا عن رغبة ، فاستنكـر رجال الأزهر أمر هذه القلة ، وقامت مظاهرة كـبرى يحمل علمها الشيخ محمد الطنيخى رحمه الله ، ليتقدم آلاف المتظاهرين من شباب الأزهر ، وطلاب المدارس، ورجال الأمة ، متجهين الى أماكن العمل فى كل ادارة، كى يجمعوا الموظفين على كلمة سواء .

وقد تعرضت المظاهرة لرصاص الاحتـلال دون أن يستشعر رجالها الخوف ، وسقط عشرات المصابـين،

وهوجم حامل العلم ورفقاؤه ، فلم تزل لهم قدم، وواصلوا الثورة هاتفين ، وما انتهى اليوم حتى تحقق المرجو من المظاهرة ، فاتفق الموظفون جميعا على الاضراب، بل لقد هال المحجمين أن يشذوا عن اخوانهم فكفروا عن أنفسهم بالالتجاء الى الأزهر ، والانخراط فى سلك الفدائيين ! وأصبح الصباح فاذا الاضراب سائد عام .

هذان موقفان رائعان للأزهر فى احباط الكيد الانجليزى ، فاذا انتقلنا بعدهما الى الإلمام ببعض الروائع الذائعة للأزهر فى إلهاب الثورة ، وإذكاء الوطنية ، فاننا نجد ما لا نستطيع الاحاطة به فى مقال موجز يعتمد على التركيز ! وحسبنا أن نختار للقارىء من الأحداث ما يشير الى النظائر والأشباه .

لقد أعتقل سعد ورفاقه فى ٨ مارس سنة ١٩١٩ ، فلم يكد الأزهريون يتناقلون النبأ حتى سرت فى نفوسهم روح الغضب الناقم ، وتتابع خطباؤهم على منبره العالى ، يلهبون الحماسة ، ويدعون الى العمل الفورى من أجل البلاد ، ثم خرجوا يومى ٩ ، ١٠ مارس فى مظاهرتين رنانتين ، كانتا الأوليين فى تاريخ الثورة ، فأخذوا يطوفون الأحياء هاتفين بسقوط الحماية ،

ومن فوقهم رصاص الانجليز ، يتقاطر دون أن يستطيع أرهابا وتخويفا للثائرين .

وقد ذكر الأستاذ أمين الخولى وكان من الطـــلاب حينئذ ـ كما جاء فى كتــاب مواقف حاسمة ص ٤٨٩ ـ أن شباب الأزهر قد صاغوا للثورة شعارا عفويا هتفوا به جميعا ، حين نادوا فى مظاهرتهم الأولى بقولهم :

« الاستقلال التام أو الموت الزؤام » فحددوا مطالبهم فى عبارة موجزة ، تتسم بالوضوح الصريح ، وقد ريع المعتمد البريطانى لمــا حدث ، فأبرق لخارجية لنــدن بأنباء المظاهرة، وبان له بوضوح أن مازعمه للخارجية من قبل ، بأن حركة سعد طائشة ، لا تبلغ مبلغ حركة مصطفى كامل ، قد ثبت بطلانه الصريح بمظــاهرتى الأزهر !

هاتان المظاهرتان اللتان كانتا بعيدتين كل البعــد عن أدنى تأثير للوفد السياسى كما ذكر مؤرخ سعد ! بل ان أحد زعماء الوفد حينئذ قبــل الانشقـــاق ، وهو عبد العزيز فهمى ، ثار على المتظاهرين فى غضب ، وأعلن أن المسألة ليست لعب أطفال ، وصاح بالجموع دعونا نعمل فى هدوء ، ولا تزيدوا النار اشتعالا .

وقد ذكر العقاد فى وضوح صريح ! واذا كان سعد قد عجب لحدوث المظاهرتين اللتين لم يكن يتوقعهما ، واذا كان عبد العزيز قد استنكر المظاهرات أشد الاستنكار ، فالأزهر وحده المسئول عنها ، فهو صاحب الفضل الأول فى ايقاظ المصريين للمطالبة بحقوقهم ، وفى الجراءة الساحقة التى ضرب بها المثل للناس ، حين واجه رصاص الانجليز فى غير مبالاة ! .

وقد سجل الأستاذ الرافعى ، ان أول شهيد للثورة ، كان نجل أحد علماء الأزهر ، ممن يشتغلون بالمحاماة الشرعية ، ثم تتابع بعده الشهداء من شتى الطوائف والطبقات .

وقد حدثت فى المظاهرة الثانية خارقة عجيبة لأحد شباب الأزهر ، غفل عنها الذين يمثلون الصحف اليوم بيوميات السياسيين ، ومذكرات الخارجية البريطانية ومقابلات اللنبى وملنر ، وتاليف وزارات رشدى ووهبة وسعيد وزيور ، مما لاكته الأسماع ، واشتهر خبره لدى القريب والبعيد من القراء ، دون أن يذكروا للوطن بطولاته الرائعة ، فى تسلسل مطرد ، يشفعه التحليل المسهب والتشريح المطيل !

واذا كان التاريخ لعهدنا هذا يسهب فى دور الرسميين ، ويقتضب روائع الشعبيين ، فماذا قدمت الصحافة اذن يا قوم من الجديد ، وفيم شغل القراء بوثائق ذائعة ، يعرفها أكثر الدارسين ، هذه الخارجة العجيبة لا يزال يذكرها من عاصروا الثورة ، وقد كان الأزهريون يتناقلونها فى مجالسهم كاحدى الأساطير ، حتى سجل حقيقتها الواضحة عن مشاهدة وعيان ، الأستاذ محمد على غريب ، بجريدة الأخبار الصادرة فى ١٩٦٩/٣/٢١ فقال ما نصه : أذكر أن الانجليز نصبوا مدفعا أمام الأزهر ، وصوبوه الى قلوب الآلاف من المتظاهرين، وكان يدير المدفع جندى انجليزى ، سرعان ما تقدم منه شاب أزهرى بكل جرأة وشجاعة ــ بل ان الوصف بالجرأة والشجاعة لا يكفى ــ فان هذا الشاب الأزهرى قد اندفع الى الجندى البريطانى ، وضربه على رأسه فأوقعه أرضا، ثم استولى على المدفع ، ولكن ماذا عسى أن يصنع به، لقد أخذ يديره يمينا وشمالا دون أن يعرف كيف يطلقه ، الى أن اخترقت رصاصة من أحد الانجليز رأسه فسقط .

« كان هذا فى المظاهرة الثانية كما تناقل الرواة ، تلك التى أصدر القائد العام للقوات البريطانية قراره

بمنع المظاهرات عقبها ، فى ١١ مارس سنة ١٩١٩ ، مع تهديد كل متظاهر بالمحاكمة على وجه السرعة المستعجلة » !

ولكن المظاهرات تنتشر وتزيد ، دون اكتراث بمحاكمة أو تهديد ! وقد انشأت السلطة محاكم عسكرية فى القاهرة والأقاليم ، وأخذت تصدر الأحكام الجائرة بالإعدام والسجن المؤبد ، فكان ذلك الشطط فى التنكيل زيتا يضاف الى الوقود الملتهب ، فيتزايد الحريق ويمتد الى شتى الآفاق .

واذا كان من الانصاف أن نذكر أن الوطنيين فى كل مكان بعد أو قرب من القاهرة ،قد أعلنوا الثورة الصاخبة على العدو ، فان من الانصاف أن كثيرا من طلبة الأزهر قد رجعوا الى أقاليمهم فى القرى والعواصم يخطبون ويقودون ويشرحون القضية الوطنية فى غيرة وايمان ، فقالوا ما لا تستطيع الجرائد أن تقوله فى عهد الحماية، وحققوا قول شوقى الذائع فى تأثيرهم القوى، ونفوذهم الكبير :

هزوا المدائن كهفها ورقيمها
أنتم لعمر الله أعصاب القرى

وقد ثبت أن المظاهرة الصاخبة الكبرى فى طنطا، التى أسفرت عن مجزرة وحشية، قام بها رصاص العدو، قد خرجت بدءا من المعهد الدينى ، يتزعمها طلاب الجامع الأحمدى ، كما كانت مظاهرات الاسكندرية وليدة معهده الأزهرى .

واذا كان المرحوم يوسف الجندى ، قد استقل بزفتى بعض الوقت ، متحديا سلطة الاحتلال بالقاهرة، وذكر له المؤرخون ذلك فى اعجاب واكبار ، فان من الواجب أن نذكر أن الأستاذ الشيخ عباس الجمل ، العالم الأزهرى المعروف ، قد صنع هذا الصنيع عينه بالمنيا، فأعلن استقلالها عن الحماية ، ورفع لها علما تحريريا خاصا ، وجمع زعماء الاقليم تحت لوائه مكافحا !

وتسألنى بعد ذلك لماذا يحرص الكاتبون على تخليد صنيع الأستاذ يوسف الجندى ، ثم يتجاهلون صنيع الشيخ عباس الجمل ، فلا تجد الجواب المقنع الصريح، واذا كان الحق لا يعدم أنصاره ، فاننا نذكر أن الأستاذ محمد صبيح ، قد سجل ذلك الفخر لصاحبه فى كتابه، مواقف حاسمة ، مع مواقف أخرى للوطنيين .

وقد هال انجلترا ما رأته من عنف الاضرابات ، واشتداد المظاهرات ، فأصدرت أمرها بالافراج عن

سعد ورفاقه فى ١٧ ابريل ، وظننت أنها بذلك تسكن العاصفة .

ولكن الأزهر أثبت للناس جميعا أن المسألة ليست مسألة زعماء وأشخـــاص ، بل ان الموقف يتلخص فى شعاره الذى هتف به وهو الاستقلال التام ، فما كـاد سعد يطلق من عقاله ، حتى نظم الأزهريون مظـاهرة رنانة ، تحـدث عنها الشيـخ محمود أبو العيـون فى ذكرياته السياسية عن الثورة ، بمجلة المصور عام ١٩٥١ فكان مما قال :

« وفى ١٧/٤/١٩١٩ أفرج عن سعد وصحبه، فقامت مظاهرة كبرى اشتركت فيها طوائف الأمة من أزهريين وموظفين ، وقـد بدأت من الأزهـر ، ومضت تخترق شوارع القاهرة ، وفى مقـدمتها الأزهـريون ، حتى وصلت الى عابدين ، وكنت أنا ومصطفى القاياتى فى مقدمة المتظاهرين نحمل علما واحدا .

ولما وصلنا ميدان الأوبرا وامتلأ بنا ، سمعنا طلقات الرصاص تنبعث من شبابيك سور الأزبكية ، وتوجـه نيرانها الينا على غير انتظار ، وسرعان ما رأينا الدماء تجرى ، ونظرت فلم أجد من اخوانى إلا الشيخ عبد ربه

مفتاح ، والشيخ القاياتى ، والرصاص يمر بيننا حتى أصابت العلم فأحرقته ، وبينما نحن فى هذا الجو سمعنا من ينادينا ، يا قاياتى ، يا أبو العيون، ارحموا أنفسكم ولا تعرضوها للقتل ، ولكننا مرنا وراء المتظاهرين ، واجتزنا المكان والرصاص يدوى من خلفنا ، وظهورنا معرضة له ، ثم تشتتت المظاهرة ، وعادت فالتأمت فى شارع عابدين بعد جامع الكخيا ».

ووالى الشيخ أبو العيون حديثه عن ثورة الأزهر ، وعن اعتقالهم مع زملائه الأزهريين ثلاثة أشهر فى رفح ثم عودتهم لاستئناف الجهاد بما لا نستطيع بسطه لكثرته .

واذا كان الشيخ أبو العيون قد ذهب الى ربه دون أن يجد من ينصفه من الباحثين ، فانى وفيته حقه فى مجال آخر (١) ونحن نعلم محاولة اللورد ملنر وزير المستعمرات الانجليزية ، حين قدم مشروعا يراه أساسا للمفاوضة ، ونقطة لتحديد العلاقات المصرية الانجليزية محاولا استمالة بعض السياسيين ، بما يخدع به الأغرار من هؤلاء ! وقد كان يوقع الفرقة بين الوطنيين ، لولا أن أصدر المفتى الأكبر الشيخ محمد بخيت المطيعى

---

(١) الجزء الأول من النهضة الاسلامية للمؤلف .

فتواه بمقاطعة لجنة ملنر ، وقد وصمت بالخيانة كل من تحدثه نفسه بمفاوضة الاستعمار ، بعيدا عن زعماء مصر المناضلين .

وهى فتوى مجلجلة ، طرب لها سعد زغلول فى أوربا ، وأبرق الى المفتى الأكبر بقوله فى اعجاب : ان فتواه جديرة بأن تصدر عن أكبر مفت للاسلام فى عصرنا الحديث ! وهكذا رجع اللورد بالخيبة بعد كلمات معدودة سطرها أزهرى أمين .

لقد اعتقد المحتلون أن الجامع الأزهر مهد الثورة، ومجمع التقاءات رجالها ، وموضع التدبير والقيادة وزادهم ضيقا وحنقا ما شاهدوه من قيام طلبة الأزهر بتوزيع المنشورات الثائرة على جميع السفارات والقنصليات الأجنبية ، إذ كانوا جميعا يحرصون أشد الحرص على كتمان الحقائق الوطنية واخفائها عن الأجانب ، ثم رأوا أن المنشورات الثائرة لا تقف عند السفارات المحايدة وحدها ، بل تغزوا دار الحماية البريطانية مهددة متوعدة ، وموقعة بامضاءات رجال الشرطة الوطنية .

إذ أن الشيخ مصطفى القاياتى رحمه الله ، بادر بتأليف بوليس مصرى من طلبة الأزهر والمدارس

العليا ، تكون مهمته المحافظة على النظام أثناء المظاهرات ، منعا لما قد يحدث من تخريب يتعمده أعوان الاحتلال تشويها للحركة الفدائية الثائرة ، بحيث كان كل شرطى وطنى يضع على ذراعه قطعة حمراء ، كتب عليها ما يدل على انتمائه لبوليس الأمن الوطنى بالأزهر .

وكان من سلطة هذا النظام أن يتعقب من تسول له نفسه ممالأة الاحتلال ليقوم بأسره وتقديمه الى هيئة المحاكمة ، التى يرأسها الشيخ أبو العيون ، والتى كان مقرها مسجد المؤيد ، وقد بلغ من نفوذ هذه الهيئة ، أن من تحكم عليه بالخيانة من متهميها ، كان يسقط سقوطا يلحق العار بأسرته وعارفيه .

وقد ذكر الشيخ أبو العيون فى مذكراته بالمصور ، أن أحد هؤلاء قد لزم بيته ، وسعى أهلوه الى الشيخ بما يثبت براءته من ادعاء كاذب ، فاستأنف أبو العيون نظر القضية ، وحكم ببراءته ، فكان المصريون يهنئونه مغبطين ويحضنونه مقبلين ! فياله تاريخا مجيدا فقد المؤرخين .

أجل عرف المحتلون سيطرة الأزهر ونفوذه، فأغلقوا أبوابه ، ووضعوا الحراس الشداد من جنودهم أمامه

مسلحين ببنادقهم ومدافعهم ، كى يمنعوا الجمهور من الاحتشاد حول منبره ، والاجتماع فى رحابه !

ولكن الشمل كان يلتئم رغم أنوفهم ، إذ اهتدى الأزهريون الى باب خلفى يصلون اليه من زقاق ضيق وهو المعروف بباب الجوهرية ، تجاه الزاوية المشهورة بزاوية العميان ! فأخذوا يتمللون منه فرادى وجماعات ، حتى اذا التأم الشمل ، خرجوا يتظاهرون فى صخب ثائر ، بحيث يفاجأ الحراس بحشودهم المتراصة تندفع الى الميدان وهم حائرون .

ثم لم يعدموا بعد البحث الجاهد على من يدلهم على الباب الخلفى فأوصدوه ، ولكن الحيلة لا تعدم وجها للنفاذ مهما كبدت الأزهريين شتى الصعاب ، ففكروا فى شارع ضيق ، يسمى الآن بدرب الحلقة ، وبينه وبين الأزهر بيوت كثيرة ، وأخذوا يستأذنون أصحابها فى دخول المنازل ، ثم الصعود على مسطوحها ، والتنقل بسلالم خشبية ، تصل ما بين السقوف ، حتى تنتهى الى سطح الأزهر ، متعرضين الى أخطار هائلة ، تكلف الثائر حياته لو فقد انتباهه لحظة فزلت به القدم !

وقد فصل الأستاذ الطنيخى هذا الموقف الرائع فى

مقال صادق ، نشره بمجلة الأزهر ، ربيع الآخر سنة ١٣٧٥ هـ ، والرجوع اليه مما يفيد .

ولم يهدأ للثائرين بال ، فظلوا فى حركة نشيطة لا يقر لها قرار ، حتى عصف الخلاف بوحدة الزعماء ، فانشق عن الوفد من يعرفون بالأحرار الدستوريين ، وفرح المحتلون والقصر بهذا الانشقاق ، وظنوا أنهم وجدوا من يرتكزون عليه فى تفريق الجهود، وانفضاض الشمل .

ولما كان سعد هو العقبة الأولى أمامهم ، فقد بادروا باعتقاله ثانية ، مع رفاق آخرين ، وأرسلوا كتائبهم فى كل ميدان ، لقمع من تسول له نفسه أن يتظاهر ويحتشد ! .

ولكن الأزهر ! حيا الله الأزهر ! قد أفسد تدبيرهم الظالم ، اذ ما كاد نبأ الاعتقال يدوى فى الجمهور دوى الرعد ، حتى هرع الألوف الى صحن الجامع ينظرون ما ستقوم به الهيئة التنفيذية للثائرين !

وقد خطب أبو العيون ، والقاياتى ، وأبو شادى ، ودراز ، ومحجوب ثابت، معلنين استئناف المظاهرات، ثم بادر الشيخ مصطفى القاياتى ، بتأليف لجنة جديدة

للوفد ، تقوم مقام المعتقلين ، كان هو أحد أعضائهـا البارزين .

ولم يأل المحتلون جهـدا فى تعقب المتظـاهرين ، وتسليط قانون الأحكام العرفية الجائر على رقابهم ! فقدموا الى المحاكمة جماعات ، وقد سيق الى قسـم الأزبكية عشرات الأزهريين ، ليجدوا أحكاما تعسفية تفرض عليهم غرامات باهظة لا قبـل لهم بدفعها ، فتألفت فى الحال جماعات مخلصة ، برئاسة الشـيخ القاياتى ، تجمع التبرعات لانقاذ المواطنين جميعا من عمال وتجار وأزهريين .

وقد جلس الشيخ القاياتى ليحصى ما تجمع ، ثم يوازن بين ما يطلب من غرم وما نقص من مال ، وكان مشهدا يستدر الاعجاب ، حين خـلع بعض الطـلاب لباسه الخارجى ، لتباع فى مزاد وطنى يسعف المسجونين !

فيا لله كيف نغفل هذه الروائع ، لنسهب كثـيرا فى مفاوضات ملنر ، وتصريح كيرزون ، وتملأ الصحف بصور وزراء ومديرين ، كان بعضهم أصناما تتحرك فى يد الاحتـلال !

ان قيادة الأزهر للثورة المصرية يتطلب مؤرخا منصفا يختصها بالتحليل ، ولا أدعى لنفسى أنى أستطيع أن أقوم بمهمة هذا المؤرخ النزيه ، ولكنى ألفت النظر الى تدوين هذا التاريخ الشعبى الحافل ، متأثرا بمقال رائع كتبه أستاذى العالم الجليل ، محمد الغزالى فى العدد الأخير من لواء الاسلام ، متعجبا لإغفال دور الأزهر ، وكل دور اسلامى فى حركات التحرير ، لدى من ينكرون ضوء الشمس من رمد ، حتى لقد صدق عليهم قول المتنبى :

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

●●●

مـــوقف الأزهـــــر

من كتــاب الإســلام وأصول الحــكم

ما رأيت موقفا ظلم فيه الأزهر عن عمد مقصود ، كما ظلم فى موقفه من كتاب ، الاسلام وأصول الحكم ، لقد هوجم الأزهر ظلما فى مواقف كثيرة ، من أعـداء يبغضون رسالته ، ويضيقون بقيادته ، ولكن ما هوجم به الأزهر فى هذه القضية ، كان من الافتراء والبهتان واختلاق المتاعب ، بحيث يضيق له صدر الحليم ، اذ كل ما وجه اليه من الأراجيف وليد حقد موغل على الحق، وغرض صريح من الباطل .

وكان من فداحة الأمر، أن الذين قاموا باختـــلاق الأراجيف الكاذبة ، قوم يتشدقون بدعوى الحــرية ، وانطلاق الفكر ، والخلوص من الجمود ، ومحـــاربة الرجعية ، وهى عبارات تجد استهواء من الغافلين ، الذين لا يدركون كيف يسمى الكذب صدقا ، والخيانة أمانة ، والسفسطة فكرا ، والتطاول نقدا .

وأسوأ ما فى الموقف كله ، أن يتصدى للهجوم من لا يعرف شيئا عن حقائق الاسلام ، وهو فيما بينــه وبين

نفسه فحسب ، كاتب كبير يقود حرية الرأى ، ولـكنه عند الدارسين ، دخيل لصيق ، يهرف بما لا يعـرف !

وقبل كل شىء ، أعلن أن صاحب القضية ، الأستاذ على عبد الرازق، رحمه الله، باحث جاد اجتهد فأخطأ، اجتهد فى أصل من أصول الاسلام التى قام عليها بناؤه، فلم ينل حظا من التوفيق .

وكان على الأزهر أن يعلن للناس خطأ المجتهد ، فى أصول الاسلام بالدليل الناهض والحجة الواضحة .

وكان على الأستاذ أن يستمع الى الحجة الناهضة فى تواضع واذعان ، ولكن نفرا ممن يسيئهم أن يظهر الحق فى قضية اسلامية تمس أصلا من أصوله قد تعاووا من حوله ، وأخذوا يبذلون الجهد الجاهد فى تأييده وتسفيه معارضيه ، حتى خيل اليه أنه على حق .

الرجل بشر لا يدعى الكمال ، ولا يدعيه له أحـد ، وكان فى طور الشباب المندفع، فوجد من تاييدالمغرضين ما دفعه الى العناد ، بل ما دفعـه الى الاستعـلاء ! والاستعلاء حميد كريم اذا كان على الباطل ، أما أن يحاول عالم باحث أن يستعلى على الحق ، وأن ينظر شزرا الى من يهدونه اليه ، فذلك غيرالطريق المستقيم .

لو أن البحث العلمى سار فى هذه القضية على وجهه الهادىء المطمئن ، لظهر الحق سريعا لذى عينين ، ولأدرك المخطىء خطأه دون لجاج ، ولكن أعداء الفكرة الاسلامية لا يريدون للحق أن يظهر ، ولابد أن يلتمسوا من البهتان الكاذب ما يحول بين الناس وبينه ٠

لقد اعترف الأستاذ على عبد الرازق ، أنه بدأ يكتب كتابه عن الحكم فى الاسلام منذ سنة ١٩١٥ م حين عين قاضيا بالمحاكم الشرعية فى مصر ، اعترف بذلك فى مقدمة الكتاب ، فى ص ٢٥ الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٥، كما اعترف من هذه الطبعة ، بأنه يكتب هذا الكلام، والخلافة الاسلامية قائمة فى تركيا ، لم يفكر فى الغائها أحد ، والخليفة القائم حينئذ هو السلطان محمد الخامس !

هذا ما اعترف به الرجل صراحة فى كتابه اعترافا صريحا لا يقبل الريب ، ومعناه أنه اجتهد فى مسألة الخلافة ، قبل أن تسقط على يد مصطفى كمال بسنوات كبيرة ، وأن الغاء الخلافة لم يكن دافعه الى بحث قضية ، الاسلام وأصول الحكم !

ولكن الذين يؤيدونه بالباطل، لا يريدون أن يسمعوا

هذا الاعتراف الصريح ، إذ يرون أن يعلنوا للعامة أن الكتاب قد ألف بعد سقوط الخلافة ، وأن الملك فؤاد قد طمع فى أن يكون خليفة ، وأن الأزهر يحاول أن يؤيد الملك ، لا أن يؤيد الاسلام ، وأن الباحث الجرىء على عبد الرازق قد تصدى للملك بكتابه ، والملك لا يؤيده غير الرجعيين من علماء الأزهر !

فيالله كيف تخلق الأراجيف خلقا ، وكيف يذكر صاحب الكتاب صراحة ما ينكر هذه الأراجيف ويقتلعها من الأساس ، ثم يصر عليها من يؤيدونه بالباطل ، ليوحوا الى العامة أن علماء الأزهر مأجورون ، وأن الملك يحركهم حيث يريد .

ولنفرض أن الملك كان ذا هوى فى الخلافة ، فهل يمنع ذلك علماء الأزهر أن ينطقوا بالحق فى قضية تمس أصلا من أصول الاسلام ، حين يرون أحد علماء الأزهر يخطىء فى اجتهاده ، ويعلن على الناس ما يخالف هذه الأصول ، وهو فى رأى الناس جميعا عالم من علماء الأزهر ، وقاض من قضاة الشرع الاسلامى، له من منصبه ودرجته العلمية ما يفتن الناس بقوله !

لقد نشر الأستاذ على عبد الرازق كتابه بصفته

الدينية ، فوجب أن يقول علماء الأزهر رأيهم فيما ينسبه أحد أبنائهم الى دينهم الحنيف ، ولو سكتوا عن ذلك لكانوا آثمين ، ثم ان الكتاب قد وجد من الدوى والضجيج ما جذب الأنظار اليه ، إذ تكاتف أعداء الفكرة الاسلامية على تأييده ، أفيسكت علماء الأزهر حينئذ خوفا من ارهاب المتشدقين بعبارات الحرية والكرامة وائتمار الرجعية !

ثم أتكون الحرية فى أن يجهر المخطىء بخطئه : فيؤيده المبطلون ، ثم لا تكون الحرية فى أن يقوم الأزهر بتصحيح الخطأ ، بما يملك من الصواب ؟ فاذا فعل ذلك فهو عدو الحرية ، ووكر الرجعية ، وصنيعة الحاكم فى منطق هؤلاء .

ان أعجب العجب ، أن يظهر خداع هذه الأكاذيب بما لا يقبل اللجاج ، ثم يصر عليها بعض من يؤرخون لهذه القضية ، حتى بعد أن انقطع دويها وسكت نجاحها ، وذهب الملك فؤاد ومن بعده !

فيكتب الأستاذ أحمد بهاء الدين فصلا فى كتابه « أيام لها تاريخ من ص ١٥٣ الى ص ١٧٣ » يدور حول هذه الأراجيف ، وكأنها حق لا شبهة فيه ، ويقول

بصريح العبارة « أدرك القصة ـ قصة الخلافة ـ الأذناب وتجار الدين ، فبدأوا يبثون الدعوة للخلافة الجديدة، التى علقوا بقيامها شرف الاسلام ، والمدركون لهذه المؤامرة لا يتكلمون ، لا أحد يستطيع أن ينطق بكلمة ضد فؤاد ، ولا أحد يجسر على أن يحصب كهنة الدين بحصاة ! .

ثم يقول بعد صفحات من الكتّاب : « لم يكد يخرج الى النور حتى هبت فى وجهه الزوابع من جميع الاتجاهات ، الملك وأذنابه ، لأن الكتاب فيه حملة هائلة على الملوك ، وتحطيم لحلم شامل ، لحلم الخلافة البراق ! ورجال الدين ثاروا لأنهم رأوا فى هذا المنطق ما يزعزع سلطانهم ، ويعقل منافعهم فى الاتجار بالدين ويكشف عن حقائق هذه العمائم الضخمة ، التى لا ترتفع إلا لتستر وراءها الظلم والاستبداد » .

هذا بعض ما قاله الكاتب ، بعد انتهاء العاصفة بثلاثين عاما ! وانى لأسأله أين سلطان رجال الدين الاسلامى الذين يخافون عليه ؟ أكان فى الاسلام كما فى الكنيسة سلطان لرجال الدين ؟ ومتى كان ذلك لهم فى مصر حين صدر الكتاب ! أليس شيخ الأزهر وهو رئيس هؤلاء موظفا يولى ويعزل كسائر الموظفين ،

فاين سلطانه اذن ؟ ومتى اتجر الأزهريون بدينهم ؟ وفى أى قضية عاصرها الكاتب .

لا أحب أن أستطرد ، ولكن الحقيقة أن مناقشة علماء الأزهر للكاتب لم تكن بوحى الملك فؤاد ، لأن المؤلف نفسه اعترف بانه كتب الكتاب قبل أن يفكر أحد فى سقوط الخلافة من ناحية ، ولأن الكتاب ملىء بالخطأ الفقهى فى أمس القضايا بالاسلام ، فوجب أن يصححه المختصون !

أما الذى يؤاخذ عليه الكاتب وأمثاله ، فهو أنهم يتورطون فى الحديث عن قضية لا يفهمون أصولها ، واحترام هؤلاء لنفوسهم يوجب عليهم أن يتكلموا فيما يعلمون ، وأن يبتعدوا عن الحديث فيما يجهلون !

يقول الباحث الأستاذ الدكتور ضياء الدين الريس رحمه الله : حين استمع الى حديث اذاعى يدور هذا المدار ، من نفر لا يعلمون عن الحق شيئا !

« والذى بدا من المناقشة ، أن أحد المتحدثين ردد نفس الخطأ الذى وقع فيه ، وأذاعه أكثر الذين تعرضوا للكتاب ، وصار شائعا كأنه الحقيقة ، وهو أن

المؤلف الشيخ وضع هذا الكتاب وقصد به أن يكون هجوما على الملك فؤاد ، واحباطا متعمدا لمسعاه فى الخلافة ، مع أن هذا غير صحيح ، وهو خطأ محض ، لأن الكتاب بدىء فى تأليفه سنة ١٩١٥ أى قبل مجىء الملك فؤاد الى الحكم كما ينص على ذلك المؤلف فى المقدمة .

وقد أخطأ الذين أشادوا بمواقف الشيخ فى ذمه للملوك ، وحملته عليهم ، اذا ظنوا أنه يقصد الملك فؤاد وأمثاله من الملوك ، مع أن الحقيقة لو راجعوا نص الكتاب وفهموه ، أن الشيخ انما كان يهاجم خلفاء المسلمين ، الذين اعتبرهم ملوكا وسماهم كذلك ، حتى أن هجومه شمل الخليفة الأول للاسلام ، وهو أبو بكر الصديق ، ووصفه بأنه أول ملك فى الاسلام ، وبديهى أن الشيخ - أو من وضع الكتاب ، لم يعرف الفرق بين الخلافة والملك » (١) .

والدكتور الريس باحث متخصص ، وكتابه « النظريات السياسية الاسلامية » قد ناقش كتاب الأستاذ على عبد الرازق مناقشة ، كانت موضع اعتداد المفكرين ، إذ كشفت عوار هؤلاء الذين يصفقون لما

---

(١) مجلة الثقافة العدد «١٩» أبريل سنة ١٩٧٥م .

يجهلون ، مع انتفاخ متغطرس يصلون به الى درجة التورم المتفجر .

لقد كان الأزهر موضوعيا حين ناقش أفكار الكاتب مناقشة علمية تعتصم بالدليل ، وأصدر تقريرا مفصلا بنقاط الخلاف ، وقد نشر التقرير فى الصحف اليومية ، ردا على ما روجه المزيفون عن أوهام الكتاب ،ثم دفعت الغيرة بعض الفضلاء ، فنشر التقرير فى كتاب مستقل، طبعه بالمطبعة الوطنية بالمنصورة سنة ١٣٤٤هـ على حسابه الخاص ، ووزعه مجانا على القراء ، واليه أرجع فيما أسجل من نقاط ، أحاول إيجازها ما استطعت ، لأن الأصل يشمل ثلاثا وأربعين من الصفحات .

١ ـ قال المؤلف : « ان الشرعية الاسلامية شريعة روحية محضة ، لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ ، وأن الدنيا من أولها الى آخرها ، وجميع ما فيها من أغراض وغايات ، أهون عند الله من أن يقيم على تدبيرها غير ما ركب فينا من عقول ، وأهون على الله من أن يبعث لها رسولا ، وأهون عند رسل الله من أن يشغلوا بها وينصبوا لتدبرها » .

وجاء فى التقرير ملخصا : أن المؤلف يشطر الدين الاسلامى شطرين ، فيلغى منه شطر الأحكام المتعلقة بأمور الدنيا ، ويضرب بآيات الكتاب وسنة رسول الله عرض الحائط ، فهو يصادم آيات مثل قول الله « وابتغ فيما ءاتاك الله الدار الآخرة ولاتنس نصيبك من الدنيا» وقوله « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله » ، وقوله « وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم » ، وقوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، وقوله « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم » ، واستطرد التقرير الى ذكر آيات كثيرة مشتهرة، شملت صحائف ١٢، ١٣، ١٤ ، مما هو ذائع لدى المسلمين ، كما ذكر من أحاديث الرسول ما ينص على تطبيق الآيات دون لبس .

(ب) قال المؤلف : « وظاهر أول وهلة أن الجهاد لا يكون لمجرد الدعوة الى الدين ، ولا لحمل الناس على الايمان ، واذا كان الرسول قد لجأ الى القوة والرهبة، فذلك لا يكون فى سبيل الدعوة الى الدين ، وابلاغ رسالته الى العالمين ، وما يكون لنا أن نفهم إلا أنه كان فى سبيل الملك ! » .

وجاء فى التقرير ملخصا : علم من كلامه هـذا أن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى ﷺ كان فى سبيل الملك لا الدين ، وجوز أن تكون الزكاة والجزية والغنائم فى سبيل الملك أيضا ، وجعل ذلك خارجا عن حدود رسالته ، إذ لم ينزل به وحى ، ولم يأمر به الله تعالى ، والشيخ بذلك يصادم صريح الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، وينكر ما هـو معلوم من الدين بالضرورة ، فقد قال الله تعالى : فقاتل فى سبيل الله ، وقال تعالى : فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، وقال تعالى : وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، وقال تعالى : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وقال تعالى : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وقال تعالى فى بيان مصارف الزكاة : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ، وقال تعالى : قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وقال : واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسة وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

جـ ـ قال المؤلف : « إنك اذا تأملت وجدت أن كل ما شرعه الإسلام ، وأخذ به النبى المسلمين ، لم يكن فى شىء كثير أو قليل ، من أساليب الحكم السياسى ، ولا من أنظمة الدولة المدنية ، وهو بعداذا جمعته لم يبلغ أن يكون جزءا يسيرا لما يلزم لدولة مدنية ، من أصول سياسية وقوانين » .

وجاء فى التقرير : ما زعمه الشيخ مصادم لصريح القرآن ، فقد قال الله تعالى : إنا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، وقال تعالى : ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء ، وقال تعالى : فإن تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ، وقال تعالى : اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا .

د ـ قال المؤلف : « ان دعوى اجماع الصحابة على وجوب اقامة امام عادل ، لا تجد مساغا لقبولها على حال ، وليس لها من دليل صحيح ، وان حظ العلوم السياسية فى العصر الاسلامى كان سيئا ، حيث لم تجد من يبحثها على وجهها ، وأن مقام الخلافة منذ زمن الخليفة الأول كانت عرضة للخارجين عليه » .

هـذا موجز ما قاله الرجـل ، والرد عليـه يتطلب اشباعـا ، لأن النص القـرآنى ، والحديث النبـوى ، وحدهما يتطلبان ما بعدهما من مناقشة أحداث الخلافة الراشدة فى العهد الأول وقد رد تقرير هيئة كبار العلماء دعـوى انكار الاجمـاع ، ردا صريحـا اعتمد على التواتر الشائع ، الذى لا ينكره أحد ، ثم على نصوص جلية من كتب الأصول والتشريع ، تستند الى أحداث البيعة الأولى لابى بكر .

كما ذكر التقرير ما روى عن مسلم من حديث حذيفة ، وقد جاء فيه ، أن النبى ﷺ قال له : « تلزم جمـاعة المسلمين وإمامهم » فقال حذيفة : وان لم يكن لهم إمام فقال الرسول ، فاعتزل الفرق كلهـا ، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت » .

كما ذكر ما رواه مسلم من قوله عليه الصلاة والسلام: « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجـة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية» .
وما رواه مسلم من قول النبى ﷺ : انما الامـام جنة ، يقاتل منوررائه ويتقى به ، فإن أمر بتقوى الله عز وجل وعدل كان له بذلك أجر ، وإن أمر بغيره كـان عليه منه .

(هـ) قال المؤلف : « والخلافة ليست فى شىء مـن الخطط الدينية ، كلا ولا القضـاء ، ولا غـيرها من

وظائف الحكم ، ومراكز الدولة ، وانما تلك كلها خطط سامية صرفة ، لا شأن للدين بها ، فهو لم يعرفها ولم ينكرها ولا أمر بها ، ولا نهى عنها ، وانما تركها لنا لنرجع فيها الى أحكام العقل ، وتجارب الأمم وقواعده السياسية » .

وجاء فى التقرير : أن انكار القضاء قياسا علي انكار الخلافة باطل ، لأن المعروف فى كل الكتب الفقهية أن القضاء من فروض الكفايات ، وقول المؤلف إنه ليس خطة دينية باطل ، ومصادم لآيات الكتاب العزيز . مثل قوله تعالى : فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ، ومثل قوله : انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما . واستغفر الله إن الله كان غفورا رحيما ، ومثل قوله : فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق .

(و) قال المؤلف : « لم توجد بعد الرسول زعامة دينية ، والذى يمكن تصور وجوده ، هو نوع من الزعامة جديد ، ليس متصلا بالرسالة ، ولا قائما على الدين ، فهو إذن نوع لا دينى » .

وجاء فى التقـــرير : أن هذه جرأة لا دينيــة ، لأن زعامة أبى بكـر كانت من صميـم الـدين ، إذ لابد للاسلام ممن يقوم به ، وقد بايع الصحابة أبا بـكـر ـ رضى الله عنه ـ على أنه القائم بامر الدين فى هـذه الأمة ، وقد قام به خير قيام ، ومثله فى ذلك بقيــة الخلفاء الراشدين ، والذى يطعن فى مقام النبوة يهون عليه أن يطعن فى مقام أبى بكر واخوانه .

هذه أهم النقاط التي ناقشها تقـرير هيئـة كـبار العلماء ، وواضح أن المناقشة كانت تعتمد على الدليل المباشر ، من الكتاب والسنة ، لأن مجـال التحليـل العقلى ، والاستطراد الفكرى ، والاشباع التاريخى ، مما لا يتسع له تقرير يكتب للعامة والخاصة معـا ، لأن صحف ذلك العهد ، قد شغلت الجمهور بـكتاب الأستاذ على عبد الرازق ، شغلا لا فكاك منه ، حتى صار بعض أحاديث العامة فى الطرقات والمقاهى .

ولابد أن يقرأ كل من يعرف القراءة ليهتـدي الى رأى ، وقد أظهر كبار العلماء كتبا مستفيضة لمناقشة الـكتاب مناقشـة تفصيلية ، تشبـع رغبة القــارىء المتخصص ، نذكر منها :

كتاب الشيخ محمد بخيت المطيعى ، وكتاب السيد

محمد رشيد رضا ، وكتاب السيد محمد الخضر حسين، وكتاب الشيخ محمد الطاهر عاشور ، ومقالات الشيخين الكبيرين ، محمد شاكر ، ويوسف الدجوى ، فى الصحف اليومية ، وكل ذلك قد أوضح ايضاحا لا مزيد عليه ، ثم توالت فيما بعد بحوث قوية ، ورسائل جامعية ، تشبع هذا الموضوع اشباعا لا غاية بعده لقائل ٠

ولنا أن نقول لهؤلاء الذين يتهمون علماء الأزهر بالوصولية والرجعية ، فى موقفهم من كتاب الشيخ على عبد الرازق ، نقول لهم أكنتم تطلبون أن يسكت العلماء عن أمر فقهى أصولى ، يمس أصلا أصيلا من قواعد الدين ، فلا يجوز لهم أن يقولوا للمخطىء أخطأت ، وهو عالم أزهرى يعد منهم ، وخطؤه راجع اليهم ، واذا سكتوا كما تريدون ، أفيستحقون أن يقوموا على رعاية الدين فى أكبر هيئة علمية أنشأها القانون ، لتدافع عن مقررات الاسلام ، أم كنتم تطلبون منهم أن يسارعوا الى تأييد الباطل ، ليكونوا موضع الرضا ممن يشايعون الإلحاد ، لحاجة من حاجات نفوسهم المريضة ، واذ ذاك يكون العلماء تقدميين متطورين ! ٠

ولنفرض أن الدفاع عن الخلافة قد صادف هوى من نفس الحاكم ، أفيكون كل ما صادف هذا الهوى

مرفوضا منكرا ، وان كان هواه مع الحق الصريح ، وهل تتغير الأحكام الثابتة مراعاة لاعتقاد زيد، وانكار عمرو ! .

اننا نسائل محكمة الرأى العام ، بعد أن اتضحت الأمور على وجه لا يقبل اللبس ؟ أيكون من دافع عن نصوص القرآن الصريحة ، وأحاديث النبوة الصحيحة وصوليا ، مدلسا رجعيا ، يتهم فى أخلاقه وسلوكه ، ثم يكون من يحاول تحطيم الأصول الشرعية صادقا مؤمنا حرا ، لا يجوز أن يناقشه أحد ، واذا تجرأ عـالم على نقاشه فهو انتهازى ماجور ! أى ارهاب هذا ، وممن ؟ من قوم ينتفخون بدعوى حـرية الفكـر ، ونزاهـــة الضمير ! .

على أن الأستاذ على عبد الرازق رحمه الله ، قـد أدرك أخيرا بعض ما تسرع فيه ، فحاول الـرجوع عنه وأعلن ذلك فى مجلة رسالة الاسلام « العدد الثالث من السنة الثالثة » وقد صدر فى شهر رمضان سنة ١٣٨٠ هـ يولية سنة ١٩٥٩ م ، إذ قال تعقيبا على مقال كـتبه الدكتور احمد أمين فى هذه المجلة ، قال الأستاذ عـلى عبد الرازق ما نصه :

« قرأت بحثا قيما لحضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور أحمد أمين ، جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى ، فقلت إن دواء ذلك أن نرجع الى ما نشرته قديما ، من أن رسالة الاسلام روحانية فقط .

ولنا الحق فيما عدا ذلك من مسائل ومشاكل ، وقد وقفت أمام نظرى كلمة « رسالة روحانية » ولم تشأ أن تمر من غير أن تثير ذكرى قديمة لهذه الكلمة معى ، فقد زعم الباحثون أننى فى ذلك البحث قد جعلت الشريعة الاسلامية شريعة روحانية محضة ، ورتبوا على ذلك ما طوعت لهم أنفسهم أن يفعلوا ، أما أنا فقد رددت عليهم أننى لم أقل ذلك مطلقا ، لا فى هذا الكتاب ولا فى غيره ، ولا قلت شيئا يشبه هذا الرأى أو يدانيه ، أسوق هذا الحديث ليذكر الأستاذ الكبير ، أن فكرة روحانية الاسلام لم تكن لى رأيا ، يوم نشرت المشار اليه ، انى رفضت يومئذ رفضا باتا أن يكون هذا رأيى .

هذا تراجع صريح ، لأن الأستاذ على عبد الرازق، قد قال فى ص ٦٩ من كتابه « إن ولاية الرسول على قومه ولاية روحية منشؤها إيمان القلب ، وولاية الحاكم ولاية مادية ، تلك زعامة دينية ، وهذه زعامة سياسية » .

ولا أفيض فى نقل ما يشبه هذا القول ، وأذكر أنى كتبت بمجلة الثقافة (١) مقالا خاصا بهذا التراجـــع فليرجع اليه من شاء .

هذا موقف الأزهر من كتاب الاسلام وأصول الحكيم، أيكون بعد ذلك كله موقفا رجعيا يتحدى حرية الفكر ؟

●●●

(١) مجلة الثقافة العدد ٥٢ يناير ١٩٧٨

الأزهـــــر

وأيـــام طـــه حســـين

أسف المنصفون أسفا شديدا ، حين شاهدوا حلقـات الأيام، تعرض عرضا مغرضا مريباعلى شاشة التلفزيون حيث تتجافى الحقيقة الى مبالغات زائفة ، تهدف الى تشويه ما يتصل بالدين من مكاتب تحفيظ القــرآن الكريم أولا ، ومن موقف الأزهر من صاحب الأيـام ثانيا .

وهو تشويه يهز المعانى النبيلة فى نفوس من يعرفون لرجال الدين مكانتهم اللائقة بهم ، لا سيما وهــم فى حقيقة أمرهم برآء مما يقذفهم به المفترون ، إذ حملوا أمانة العـلم فى الحلقـات الدراسيـة ، وثاروا عــلى المستعمرين ثورة عاتية ، كان مصدرها الدائم أزهرهم الشريف .

وسنناقش فى هدوء موقف هؤلاء الذين شاءوا أن يمسخوا الحقائق ، لا لشىء سوى أنهــم لا يتقيــدون بمنطق العدل ، وأن القائمين على الاخراج المسرحى

لا يلتزمون بالحق الواقع ، بل لا يكادون يحسون لـــه أدنى التزام .

ان فقيه الكتاب كما صوره الدكتور طه حسين، ليس الصورة العامة للفقيه ، ولا يخلو الأمر من أحد شيئين، اما أن يكون شاذا فى أنانيته فهو لا يمثل طائفته ، واما أن يكون الدكتور طه قد بالغ فى تشويه سمعته، ليبرىء نفسه من اهمال الحفظ ، وترك التــلاوة ، حتى نسى كـتاب الله ! .

ونحن اليوم نعرف تمام المعرفة ، أن اختفاء فقيـه الكتاب قد ساعد على الأمية العلمية ، وجعل طـالب المدرسة ، وطالب الأزهر الذى لا يحفظ كتاب الله أقل منزلة فى لغته وثقافته ودينه وعربيته من زميله الحافظ لـكتاب ربه .

ماذا أريد أن أقول ؟ انى أعرف أن ضياع اللغـــة العربية على ألسنة من يلتزمون العامية فى أحـاديث الاذاعة ، وبعض مقالات الصحف ، فاذا حاولوا التزامها تقاذفتهم الأخطاء ، وتعاورتهم العجمة ، إن ضيـــاع اللغة على هذه الصورة كان من بعض أسبابه ابتعـاد المتحدثين عن حفظ كتاب الله ، ولو انتشرت كـتاتيب

تحفيظ القرآن كعدها السابق ، ما انحـدر مستـوى التعليم فى عصرنا الراهن عما نعهد من قبل ، ولو كان لدى المشرفين على حلقات الأيام التزام أدبى بمشكلات الدولة الثقافية ما تجاوزوا الواقع الى مبالغات تدعو الى التنفير من حفظة كتاب الله ، وهم بين شيئين إمـا انهم لا يعرفون اتجاه الأمة نحو ضرورة اعادة هـــذه الكتاتيب . فهم منقطعون عن رصد التيار التعليمى فى مصر ، واما أنهم يقرأون ما تكتبه الصحف ، مـن ضرورة قيام هذه الكتاتيب بدورها الثقافى ، ويريدون محاربة هذا الاتجاه ، إذ يساعد على إنشاء جيل مثقف يقيم لسانه ، ويحفظ لغته ودينه ، وأكثرهم عن ذلـك كله بمنأى بعيد .

أما موقف الدكتور طه حسين من الأزهر ، فاننـا سنجعل ما كتبه بنفسه فى الأيام قاضيا بيننا وبينـه ، سنأخذ من أقواله التى سجلها هو بمحض اختيـاره ما يدل على أنه جابه الأزهر بالانتقاص والتشهـير ، وملأ الصحف هجاء منكرا لأساتذته ، وقد عفوا عنـه فلم يكافأ بما يستحق ، ثم شاء صاحب الأيام أن يواصل هجومه عليهم دون مبرر معقول ، وقد بدأ وهو الطالب الناشىء بالتشهير بهم ما استطاع ، وسجل ذلك عـلى نفسه ليكون شاهدا ناطقا بمقطـع الـرأى فى غـرابة

موقفه ، فكيف يكون الأزهر قد ظلمه وضاق به ؟ وهو المتحرش المهاجم الجرىء ؟ !

فى الجزء الثانى من كتاب الأيام ، فصل يكشف نفسية الدكتور طه حسين ، ويفسر سلوكه الهجومى فى مجتمعه ، تفسيرا سافرا لا يقبل أدنى شك ، فقد سطر الفصل السادس عشر من الأيام ليقول ما ملخصه ، إنه رجع الى قريته للمرة الأولى بعد انتسابه للأزهر ، فلم يجد من حفاوة الاستقبال وبشاشة الترحيب ما يجده أخوه الكبير ، بعد رجوعه المتكرر من اغترابه فى القاهرة طالبا للعلم ، مبرزا بين قرنائه ، وقد غاظه هذا الاهمال فجعل يهاجم الناس فى أفكارهم ، فاذا تحدث فقيه الكتاب مثلا فى شىء من العلم ، وثب عليه واتهمه بالجهل ، واذا قرأ والده بعض المأثورات هز رأسه وقال عن قراءته إنها عبث لا غناء فيه ، واذا تحدث الناس عن علم القاضى بالمحكمة الشرعية قال طه : إنه أعلم من القاضى بالشرع ، وأفقه منه بالدين ، وأحق منه بالقضاء ، كل ذلك ولم يقض فى الدراسة غير سبعة أشهر ! .

واذا تحدثت العامة عن ولى شهير فى اقليمه ، رفع الطالب الناشىء صوته بما يدل على المعارضة الشديدة!

ثم أنهى الدكتور طـه تفصيل ذلك كله بقوله ص ١٢٨ من الفصل السادس عشر :

« وعلى كل حال فقد انتقم الصبى لنفسه ، وخرج من عزلته ، وشغل الناس فى القرية والمدينة بالحديث عنه ، والتفكير فيه ، وتغير مكانه فى الأسرة ، مـكانه المعنوى ان صح هذا التعبير ، فلم يهمـله أبوه ، ولم تعرض عنه أمه واخوته ، ولم تقم الصلة بينهم وبينـه على الرحمة والاشفاق ، بل على شىء أكثر وآثر عنـــد الصبى من الرحمة والاشفاق » •

هذا الذى كتبه الدكتور عن نفســه ، يفسر سـلوكه المهاجم للأزهر فى جميع مراحل حياته ، فقد اتسع لـه صدر الأزهر ، وتقبله مدرسوه ببشاشة وعطف ، ولكنه كان يريد أن يلفت الناس له ، فاصطنع الخلاف ، وآثر الشقاق ، وفزع الى الصحف ليهاجم من يعلمونه •

وماذا يبتغى بعد ذلك كله منهم ؟ وقد آذاهم بالباطل دون انصاف ، وسنعرض شذورا مما قاله هو وسجـله على نفسه ، ليرى اتساع الصدر الرحب لدى كثير ممن قسا عليهم دون مبرر •

لقد استمع الطالب الى مدرس النحو يشرح قـــول

المؤلف « وعلامة الفعل قد » قال طـــه : « وقد أتقــن صاحبنا ـ أى طـــه نفسه ـ ما أثير حول هذه الجمـلة البريئة من الاعتراضات والأجوبة ، وأتعب شيخه حوارا وجدالا ، حتى سكت الشيخ فجأة أثناء هذا الحوار ، ثم قال فى صوت حلو لم ينسه صاحبنا قط ، ولم يذكره قط الا ضحك منه ورق له : « الله يحكم بينى وبينك يوم القيامة » قال ذلك فى صوت يملؤه السـأم والضجر ، ويملؤه العطف والحنان ، وآية ذلك أنه بعد أن أتــم الدرس ، وأقبل الصبى ليلثم يده كمـا كان الطـلاب يفعلون ، وضـــع يده على كتف الصبى ، وقال له فى هدوء وحب : شد حيلك ، الله يفتح عليك ! .

فالصبى يحاول الاعتراض المجحف بعد سبعة أشهر فقط من انتسابه للأزهر ، وهى مدة لا تتيح له مهما كان عبقريا أن ينازل شيخا قضى فى العلم والتدريس أكـثر من أربعين عاما ! .

ومن المعلوم أن سبعة أشهر لا تجعل الطالب يحصل مضمون متن الأجرومية فى اتقان . ولكن طه يعترض ويسرف حتى يصيح شيخه « الله يحكم بينى وبينك »

ومعنى ذلك أن الأستاذ يتوجه الى من يعلم حقيقـة اللجاج ليثنى هذا المـكابر عن اسرافه ، لم ينتقصـــه

الشيخ ، ولم يغضب عليه وقد اتسع المجال للتبرم ، ولكن طه لا يرعوى بل يحاول اثارة أساتذته ، وهم راحمون ، فاذا تحدث عنهم فى هذا الفصل أخذ يصفهم بالغيبة والنميمة والدس، وينقل أقوال الطلاب عنهم، وقد نسى أن الأزهر مجتمع انسانى يجمع أمثال طه ، وأمثال من هم على نقيضه ! فاذا وجد الصالح فقد وجد معه الطالح ، ففيم اللجاج فى أمور مشتهرة ، لا يخلو منها مجتمع من مجتمعات الحياة ؟ ومن قال إن العلماء ملائكة لا يخطئون ! .

كان طه مع هذا التهجم ومقابلة الأساتذة بما يغيظهم موضع عطفهم ، يتحدث أنه أرسل للامتحان الأول ذات مرة ، ليعلو قدره إن نجح ، ويزيد عطاؤه من الجراية، قال طه ما نصه : « وأرسل الى الامتحان ذات مساء ، ومعه كتاب الى الممتحن ، فلما أدخل الفتى على الممتحن حياه ، وأخذ منه الكتاب فنظر فيه ، ثم ألقى عليه سؤالا ورد الفتى جواب السؤال خطأ أو صوابا ، لم يدر ، ولكن الممتحن قال له انصرف يا علامة ! فانصرف راضيا ـ ص ١٤٨ » فماذا تقول فى شعور الأستاذ نحو الطالب الضرير ، لم يرهقه فى شىء وقال له انصرف يا علامة ! .

« لأنه يرى مثله موضع العطف ، وهو أولى من سواه بالعطاء ، فنال الفتى ضعف ما يأخذ من الجراية، ونال خزانة فى الرواق لملابسه وكتبه بعد هذا الامتحان الهين ؟ .. والطالب بعد لجوج عنيد يعارض الأستاذة، ويسرف فى التهكم والاستنكار ! .

والشيخ بخيت المطيعى من كبار فقهاء عصره ، وقد رشح لمشيخة الأزهر أيام كان طه حسين فى عامه الثانى من الطلب .

هذا الفقيه الكبير لا يثبت لمناظرته فى الفقه طويلب صغير ، لم يكد يكمل عامه الدراسى ، لأن دروسه فى الأصول والمنطق والفقه والتوحيد ، وتصدره لدرس التفسير بعد الأستاذ الامام ، مما يجعل كل مناقش يقدر الخطو لقدمه قبل أن تزل ، ولكن طه يقول عنه « وكان الفتى ـ يريد نفسه ـ ربما جادل الشيخ فأطال الجدال ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى أن حسبك فقد نفد الفول ، فأجابه الشيخ فى غنائه الظريف : لا والله لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون ، ولم يكن بد للمجنون من أن يقتنع ، فقد كان هو أيضا حريصا على أن يدرك الفول قبل أن ينفد » ص ١٥٠ .

وقد تكرر الهجوم على الشيخ بخيت مرات فى الأيام ! وطبيعى أن نقاش طه بعد عام واحد من انتسابه للأزهر لأمثال الشيخ بخيت لا يتطلب ايضاح الحق ، فمهما كان معتزا بعقله ، فهو لم يبعد عن الشاطىء فى مسائل الفقه ، ولكن الفقيه الأصولى يفسح صدره ، ويصد المتضايقين من الطلاب ويقول فى ابتسام : لا والله حتى يقتنع هذا المجنون ! .

وأنا أسأل محبى الدكتور طه من طلابه : أكان الدكتور الكبير وهو عميد كلية الآداب ، يأذن لطالب فى القسم الابتدائى أن يقاطعه فى المحاضرة حتى يضيق طلابه ويتصايحوا منكرين ! ولو حصل ذلك حقيقة هل يصبر الدكتور على الفتى الناشىء ويدعه يسترسل فيما يجهل دون انكار ؟

لقد تعرض الدكتور مرات الى الشيخ بخيت كما قلنا ، وذكر فى ص ١٦٢ أنه مع نفر من أصدقائه لم يكونوا يسمعون للشيخ كما كان يسمع له غيرهم من الطلاب ، وانما كانوا يسمعون ليضحكوامنه وليقيدوا عليه اغلاطه ، وكانت كثيرة اذا اتجهت الى اللغة ، والأدب ، وليشنعوا عليه بهذه الأغلاط بعد الدرس ، وليعرضوا هذه الأغلاط على شيخهم المرصفى، فيقدموا

اليه مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيخ » .

ثم زاد طه فى اغتياب الأساتذة ، وفى التهجم على كبار العلماء ، وعلى أعضاء مجلس الأزهر ، بالذات تهجما سافرا أمام الطلاب فى ساحة الأزهر ، حتى تطايرت الأنباء اليهم ، إذ ذهب أحد الطلبة الى الشيخ الأكبر ، فأخبره بما قال طه ورفقاؤه عن أعضاء مجلس الأزهر الأعلى .

ومنهم : الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين العدوى ، والشيخ راضى ، وكانوا جميعا فى ادارة الأزهر حين بعث الشيخ الأكبر يستقدم هؤلاء الشاتمين الهازئين . فيحضرون الى مجلسه ليستمعوا ما قال عنهم الطالب ، قال طه ص ١٦٩ :

«وكان هذا الطالب ماهرا حقا، فقد أحصى على هؤلاء الفتية كثيرا جدا مما كانوا يعيبون به الشيوخ ، ومما كانوا يعيبون به الشيخ بخيت ، والشيخ محمد حسنين، والشيخ راضى ، والشيخ الرفاعى ، وكانوا جميعا حاضرين ، فسمعوا بآذانهم آراء هؤلاء الفتية فيهم .
وشهد طلاب آخرون بصدق هذا الطالب فى كل ما

قال ، وسئل الفتية فلم ينكروا مما سمعوا شيئا ، ولكن الشيخ لم يحاورهم ، ولم يداورهم ، وانما دعا رضوان ـ كاتبه ـ فأمره أن يمحو أسماء هؤلاء الطلاب الثلاثة من الأزهر ، لأنه لا يريد مثل هذا الكلام الفارغ » .

ثم قال طه بعد كلام متصل : « ثم لم يلبث أن تبين الفتى وتبين معه صاحباه أن شيخ الجامع الأزهر لم يعاقبهم ، ولم يمح أسماءهم من سجلات الأزهر، وانما أراد تخويفهم ليس غير » ص ١٧٣ .

فماذا يرى القارىء فى سلوك الشيخ الأكبر وزملائه الكبار ، أمام طلاب جاهروا بانتقاصهم ورموهم بالجهل وحب المنصب والرياء والجمود (وأقر الطلاب بما قالوا دون انكار) ثم مال هؤلاء الكبار حقا الى العفو والاغضاء ، لم يمحوا أسماءهم ولم ينكروا مقامهم فى الأزهر ، ورأوا فيهم ما يرى الآباء أمام نزق الأبناء ! غضب وغفران ؟

أما والله لو جرؤ طالب على انتقاص الدكتور العميد، ما احتمل بقاءه معه فى الجامعة ؟ وما حديث الدكتور زكى مبارك معه بمنسى مجهول ؟ وهو أستاذ مثله ؟ فأين هو من هؤلاء الأعلام ! اننا ننقل هنا ما خطه الدكتور بقلمه ، فلا سبيل الى الانكار !

ونأتى الى سقوط الدكتور طه حسين فى امتحان العالمية بالأزهر ! هذا الرسوب الذى عده السطحيون ظلما صريحا للطالب الشهير ، وباطلا متعمدا دبره الشيخ بليل ، فاذا حللنا أحداثه تحليلا صريحا، وجدناه نتيجة طبيعية لا محيد عنها ولا منصرف ، إذ أن الطالب طه حسين قد انصرف ـ كما قال عن نفسه ـ عن دروس الأزهر انصرافا تاما ، حين فتحت أبواب الجامعة المصرية لمثله ، ولنظرائه من عاشقى الطريقة الحديثة فى التعليم ٠

فهو إذن بعد انقضاء أربع سنوات من عمره بالأزهر لم يشأ أن يستفيد من دروسه شيئا ، وخص دروس الجامعة بكل اهتمامه ، وكان حينما يفرغ من دروس الجامعة لا يلم إلا بدروس المرصفى فى الأدب واللغة ، نائيا عن دروس المنطق والفقه والأصول والتوحيد ، والوضع والتفسير والحديث ، نأيا تاما لا اتصال من بعده ٠

بل إن الصحف اليومية قد اتسعت لقلمه كى ينقد دروس الأزهر الشريف وأساتذته نقدا متكررا ، تدفعه الى ذلك نفسه الناقمة ـ لا لشىء سوى الدوى والاشتهار ـ من ناحية ، ويدفعه الشيخ عبد العزيز

جاويش الى قسوة الهجوم المتكرر على الشيوخ من ناحية ثانية ، حتى عرف القاصى والدانى كراهة الطالب للأزهر والأزهريين ، وبعد انقضاء عشر سنوات عليه منذ التحاقه بالأزهر شاء أن يتقدم لنيل العالمية !

وطبيعى أن يستعد طالب هذه الاجازة لها ، فيتسلح بمعرفة كتبها المعقدة ، وفهم موادها العلمية ، لأن نيل العالمية بالنسبة لكل طالب - لا بالنسبة لطه حسين وحده - كان فى ذلك الحين أمرا شاقا عسيرا ، بحيث لم يكن يحصل على النجاح غير أربعة طلاب فى العام الواحد ، على حين يتقدم من هؤلاء عشرون طالبا فأكثر ، فالاختيار دقيق ، والمواد متعددة ذات صعوبة، والأساتذة الممتحنون من كبار العلماء فى الأزهر ، وممن لا يعلو على آرائهم رأى يوجه أو يشير .

وقد تهيأ الدكتور طه للامتحان وهو لايجيد غيرعلوم العربية وحدها ، إنه يجيد النحو والصرف ، والبلاغة واللغة والأدب ، ولكن هناك علوما صعبة عويصة ، لم يجلس الى الأساتذة كى يستظهرها ، أو لم يلم بمضمونها ، ويصل الى ما يبلغه طريق الفوز فى امتحانها .

هناك التوحيد والفقه، والأصول والمنطق، والحديث والتفسير ، والوضع والمقولات ، ولكل علم أبوابه الصعبة ، ولابد أن ينجح الطالب فى العلوم جميعها ، بحيث لو رسب فى مادة واحدة لاستحال عليه أن يظفر بالشهادة !

جاء الطالب الى لجنة الامتحان يسبقه تاريخه الأليم فى سب الأزهر والأزهريين ، واحتقاره الصريح لكل ما يدرسون ويتناولون من أساليب الشرح والتقرير ، وهو بعد لا يعلم فى غير دروس العربية شيئا غير ذى بال !

لقد كان عليه حين أراد أن يظفر باجازة الأزهر ، أن يستوعب علوم الأزهر ، أما أن يتعالى على هذه العلوم، ثم يشنع على أصحابها فى الصحف والمجتمعات ويرى من حقه أن يظفر بالنجاح فيها دون تعمق ، فهذا ما لا يرتضيه منصف ! .

قد يكون الدكتور صادقا فيما بينه وبين نفسه ، حين يميل الى التهوين من شأن هذه العلوم ، ولكن كان عليه ألا يتقدم الى الامتحان فى علوم لا يعتقد فى جدواها ولا يؤمن بالقائمين على تدريسها ، أما أن يسب وينقد

ثم يطلب النجاح دون استعداد ، فاذا تعذر عليه واصل الهجوم والتهكم ، وكتب مقاله الشهير « ساعة بين العمائم واللحى » فهذا ما لا يرضاه منصف محايد ، يضع الأمور موضعها الصحيح .

لقد كان الدكتور زكى مبارك أقرب الى الحق ، وآثر للانصاف من الدكتور طه حسين ، إذ تقدم الدكتور زكى مبارك لنيل إجازة العالمية مباهيا بمكانته المشتهرة فى الأدب والصحافة واللغة .

وانعقدت هيئة امتحان برياسة الأستاذ ابراهيم الجبالى رحمه الله ، وكان الجبالى على علم بمنزلة الطالب الممتحن ، فقابلته اللجنة بالابتسام المشجع ، وعرض عليه الشيخ الجبالى أن يختار هو ما يريد أن تناقشه اللجنة فيه من أبواب الفقه والأصول والمنطق والتوحيد ، فتحير الطالب ، ثم اختار فى قلق ما رغب فيه ، فأخذت اللجنة تسأله فيما اختار ، مترفقة، تسأله فى الأصول فلا يجيب ، وفى المنطق فلا يرد ، وكذلك فى الفقه والتفسير حتى اعترف بنفسه أنه لم يلم بعلوم الأزهر .

وخرج ليكتب مقاله : ذاكرا أن علوم الأزهر هذه لن

تفيده ، وأن الرسوب من حقه إذ لم يجد ميلا الى استيعابها ، أين موقفه من موقف طه حسين ! .

ثم ماذا ؟

لقد تعرضت الحلقات التليفزيونية الى قضية الشعر الجاهلى ، لتحمل على الأزهر وزرا لم يكتسبه ، حين صورت علماءه فى وضع منكر يدين بالوصولية، ويهادن فى أمور الدين ابتغاء عرض الدنيا ، ومع أن كتاب الأيام لم يلم بقضية الشعر الجاهلى .

وكان المعقول أن تقتصر الحلقات على ما جاء بالكتاب ، فإن المشرفين على الإخراج شاءوا أن يتحدثوا من لدن أنفسهم عن قضية الشعر الجاهلى ، حديثا يوهم المشاهد أنهم ينقلون عن طه حسين ، فعرضوا شيخا أزهريا يتشدد فى ضرورة مؤاخذة الدكتور طه ، ثم يتراجع حين يلوح له المسئولون بعرض زائل من أعراض الحياة ، وذلك محض افتراء صارخ لم يقل به أحد .

واذا أراد القارىء أن يعرف موقف كل مسلم يغار على كتاب الله ، كما سنبين ذلك فى المقال التالى ! .

فماذا كان ينتظر المسلمون فى بقاع الأرض من الأزهر الشريف ، حين يرون أستاذا جامعيا لا يطمئن

الى حقائق القرآن ، بل يعلن شكه فى هذه الحقائق على مئات من الطلاب المسلمين فى الجامعة ، ثم ينتقل بقوله الى آلاف القراء حين يصدر باطله الصريح فى كتـــاب يتداوله الناس ! .

ماذا كان ينتظر المسلمون من رجال الأزهر غير أن يقفوا فى وجه من يشك فى حقائق كتاب الله ، ويحـاول أن يزلزل عقائد الشبيبة الاسلامية فى الجامعة ؟ أكانوا ينتظرون أن يسكتوا عن هذا الإفك الجرىء ليرضـوا أعداء الاسلام ، أم أنهم ينتظرون أن يهب العلمـاء فى طليعة المستنكرين لما أريد من الطعن فى حقائق القرآن؟

أليس من العجب أن يثور البرلمـــان ، وأن يثور أساتذة المدارس الثانوية والابتدائية ، وأن يثور أرباب الأقلام فى الصحف اليومية ، على من ينــكر صــدق الحقائق القرآنية ، ثم يراد بعلماء الأزهر أن يلجموا أفواههم فلا تتكلم ، وأن يمنعوا أقلامهم فلا تنطق ، ليرضوا طائفة من الملحدين ، يسرهم أن يتزعزع الاسلام فى نفوس معتنقيه ! .

لقد قام علماء الأزهر بواجب الدفاع عن القرآن ، تأدية لفريضة محتومة ، أناطها الاسلام بأعناقهم ،

اذ كانوا حملة شريعته ، ومفسرى قرآنه، ورسل هدايته الى الناس ! .

ولم يكن من بينهم من تراجع عن موقفه لينال منصبا دنيويا حقيرا ، كما شاء المخرج أن يفترى على الشرفاء بغيا دون حق ، ولو علم هذا المتجرىء على الأطهار أن علماء الأزهر هم الذين أوقدوا ثـورة سنة ١٩١٩ وفتحوا صدورهم لنيران المدافع ، حين تزعموا الثورة المصرية أثناء اعتقال سعد وصحابته ، حتى كان منبر الأزهر اداة الاعلام خلال هذه الثورة العظيمة ، وحتى اشتهر أسمـاء خطبائه الـكبار من أمثال على سرور الزنكلونى ، ومحمود أبى العيون ، ومحمد عبد اللطيف دراز ، ومصطفى القياتى ، وابراهيم سليمان ، ومن لا نحصى من هؤلاء الأطهار ، ممن جاوزوا القول الى العمل ، فألفوا اللجان وجمعـوا الأمـوال ، وطبعوا المنشورات ، وقادوا المظاهرات ، ثم تلقفتهم ظلمات السجون ، فوجدوا من تلاميذهـم من حملوا الراية ، وواصلوا الجهاد !

لو علم هذا المتجرىء على الأطهار كم بذل هؤلاء الأخيار من نفوسهم وأموالهم ، ودماء أبنائهم فى نصرة الحرية ، ما أخرج هـذا المشهـد الآفك ، الذى ابتكره

خياله الضال ، ليؤذى حملة القرآن ! فكان من الآفكين المفترين ، وانى أحذر هؤلاء البغاة ، أن يعودوا لمثل هذا التخرص الـكاذب على العلماء مرة ثانية ، لأن الايغال فى الباطل لن يترك دون ثأر ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .

« إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخـرة والله يعلم وأنتـم لا تعلمـــون » (١) .

●●●

(١) سورة النور : ١٩

الأزهـــر

وكتاب الشعر الجاهلى

لا أريد فى هذا الفصل أن أتجنى على أحد ، ولكن الاخلاص للحقيقة يوجب أن نؤرخ الأحداث دون محاباة أو تحامل ، وقـد كان من قدر الدكتـور طه حسين أن يصبح أستاذا بالجامعة ، يدرس الأدب العربى، والأدب العربى بشعره ونثره ميدان رحيب الانحـاء ، متعدد الشعاب ، ولدارسه أن يجول فى كل منحى من مناحيه، دون ملامة تلحقه ، حتى ولو أخطأ سيجد من يتناوله بالتصويب .

ولو أن الدكتور طه حسين خالف كل معروف مشتهر من قضايـا الأدب الجاهلى فى كتـابه الـذى أحـدث الضجيج ، مااحتج عليه الأزهر فى شىء ، وما أندفع الى خصومته أزهرى يعلن الاحتجاج ، وقصارى ما كان يحدث ازاء خطئه أن يقـوم ناقد غيـور فيعرض رأيه المخالف فى مقال بجريدة ، أو أن يقصر على نقده الأدبى بعض المؤلفات المستقلة ، وتمضى الريح رخاء بليلة ، اذ أن النقد الأدبى أمر طبيعى لا يهـيج جمهورا ، ولا يدفع الى قضـاء ومحاكمة ، ولا يشغـل نوابا ووزراء وشعبا .

لو أن الدكتور طه حسين خلص فى بحثه عن الشعر الجاهلى لقضايا الأدب وحدها ما اتجه اليه الأزهـــر بالنقد الشديد ، ولكن الرجل ترك الأدب الذى يؤلف فيه ، الى الحـديث عن شخصيتين تاريخيتين نبويتين أثبت القرآن وجودهما ، ونسب اليهما رفع القواعد من البيت فى مكة ، ليعلن أنه لا يجزم بما جاء فى كتاب الله .

ولم يكن الدكتــور يخاطب علمــاء يعرفون موضع الخطأ من الصواب ، فيردونه عن تسرعه ، ويحكمون عليــه بالخطــأ الصريح ، ولكنه كان يخاطب طـلابا ناشئين ، يسمعون الطعن فى أخبار القرآن ، وكأنه كتاب بشرى ألفه انسان كالدكتور يخطىء ويصيب ! ثم ينشر ما كتب على الناس جميعا ! .

ويتضح بما لا يقبل الشك أن الدكتــور قد تورط فى افتراءات خصوم الاسلام ، لأن هــذا الرأى بذاته قــد ســاقه مبشر خصيم فى كــلام لا يمت الى البحث النزيه بشىء ! وقد ثار الطلاب أنفسهم على ما سمعوا ، وانتقلت الثورة الى الصحف اليومية .

وقام نفر من كبار علمــاء الأزهــر بالرد على هذا التهجــم ، ونادوا بضرورة اقصــاء قائــله عن التعليم الجامــعى ! ونحن نعــرف أنباء الجامعات الرسمــية

العريقة فى أوربا وأمريكا ، ونعرف أن أساتذة هذه الجامعات قد أوتوا أكبر نصيب من حرية الفكر واستقلاله ، ولكننا ما سمعنا عن أحد من هؤلاء أنه هاجم الانجيل فى كتاب يفرضه على الطلاب ، ويجعله موضع الدراسة والامتحان !

قد يشذ أحد الأساتذة برأى خاص يعلنه بعيدا عن المحيط الجامعى ، ولا يحمل طلابه عبء فهمه واستظهاره ، ولكن لا يجوز لاستاذ ما أن يهاجم مقدسات دينه ، مدعيا أنه يبحث! ! فاذا هاجم الدكتور طه حسين كتاب الله صراحة ، وهب المفكرون من ذوى الغيرة الدينية لمقاومته أفيسكت الأزهر ؟

ان كتاب الشعر الجاهلى يقوم على فكرة ليست بجديدة ! هذه الفكرة هى دعوى الانتحال فى هذا الشعر ، وقد ثبت لدى الدارسين أن نقاد العرب من لدن عهد ابن سلام الجمحى الى عصرنا هذا ، قد قالوا بانتحال كثير من القصائد .

وللأستاذ مصطفى صادق الرافعى فصل رائع فى الجزء الأول من كتابه عن تاريخ الأدب العربى، أشبع هذه الناحية بما لا مزيد عليه ، وقد قوبل الكتاب

عند صدوره باحتفال رائع ، وقد أفاد منه الدكـتور طه حسين ، إذ شاد به فى بعض ما كتب !

فلو أن الدكتور طه قصر حديثه على الانتحال مـا أوجد هذه الفرقعة الصاخبة ، ولكن الدكتور قد بالغ فى دعـوى الانتحال مبالغـة تابـع فيهـا المستشرق الانجليزى مرجليوث ، حيث نقل أكثر أدلته دون أن يعزو اليه شيئا مما أخذ عنه ! .

واذا كان الاسراف فى ادعاء الانتحال منقود منقود، فما كان ذا خطر يسبب هياج الناس بعامة ، والأزهريين بخاصة ، ولكن ترك القضية الى أشياء تمس كـتاب الله ، وتلصق بالبحث الصاقا دون داع علمى ، قد أوقد الصدور ، وحق لكل ذى غيرة اسلامية أن ينهض مدافعا عن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ! فمن الملوم حينئذ ؟ من جاء بالعيب ، أم من قـام بالملامة والاستهجان !

لقد نسى بعض المغرضين عن عمد ، محور الضجة التى نشأت عن كتاب الشعر الجاهلى ، وذهب بعـد انقضاء نصف قرن على دويها المزعج ، الى القول بأن الأزهريين قد ناهضوا الحـرية الفكـرية ، ممثلة فى

الدكتور طه حسين ، بل الى القول بأن الذين عارضوا الدكتور طه حسين ، كانوا أذنابا لبعض الساسة مـن الحاكمين ، وذيولا للقصر الملكى ٠

وهكذا تفترى الأراجيف الظالمة لتشوه الحقائق أمام المعاصرين أنفسهم ، لأن من زامنوا هذه القضية لا يزال بعضهم على قيد الحياة ، وقد عرف ما كان ، واذا امتد التدليس الى احداث رؤيت رأى العين ، فماذا نصنع بأحداث الزمن البعيد !

واذا كانت قضية الشعر الجاهلى قـد وصـلت الى النائب العام ، ففحصها الرجل الكبير فحص القانونى العادل ، مستعينا بخبراء ذوى نزاهة من الدارسين ، فان الرجوع الى ما دونه الرجل فى محضره يغنى كـل غناء ، فى كشف الحقائق دون تزييف ٠

قرأ النائب العام كتاب الدكتور ، وفحص ما قدم اليه من الشكاوى بسببه ، ولخص ما يمكن أن يكون موضع اتهام فى هذه النقاط ٠

أولا : أن المؤلف كذب القرآن فى ما قال عن ابراهيم واسماعيل عليهما الصلاة السلام ، حين قال فى ص ٢٦ :

« للتوراة أن تحدثنا عن ابراهيم واسماعيل ، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا ، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لاثبات وجودهما التاريخى ، فضلا عن اثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة اسماعيل بن ابراهيم الى مكة ، ونشأة العرب المستعربة فيها ، ونحن مضطرون الى أن نرى فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى اثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة ، وبين الاسلام واليهودية والقرآن والتوراة من جهة أخرى ، فهى حديثة العهد ، واستغلها الاسلام لسبب دينى وسياسى أيضا ، فيستطيع التاريخ الأدبى واللغوى الا يحفل بها عندما يريد أن يتعرف أصل العربية .

ونستطيع أن نقول : ان الصلة بين اللغة العربية الفصحى التى كانت تتكلمها العدنانية ، واللغة التى كانت تتكلمها القحطانية ، كالصلة بين اللغة العربية وأى لغة أخرى من اللغات السامية ، وأن قصة العاربة والمستعربة ، وتعلم اسماعيل العربية من جرهم ، كل ذلك أحاديث أساطير لا خطر له ولا غناء فيه .

هذا هو الاتهام الأول ، وهو صريح فى تكذيب القرآن ، واذا كان هدف المؤلف أن ينتهى الى أن

العدنانية غير القحطانية ، فقد كان فى وسعه أن يترك حديث القرآن عن ابراهيم واسماعيل ، وأن ينأى عن وصم الاسلام بالاحتيال ، ثم يعالج الموضوع عــلاجا يعتمد على نصوص ثابتة ، توحى باختلاف العدنانية عن القحطانية ! ولكنه لم يجد نصوصا تسعفه فى ذلك، وزعم مدعيا أن لديه هذه النصوص ، ولكنه كان يتسع فى الفروض الخيالية دون وثيقة ما ، بل إنه نقــل عن أعداء الاسلام ما افتروه دون تحقيق فى مسألة ابراهيم واسماعيل ٠

إذ أن بعض المبشرين وقع مقاله باسـم « هاشـم العربى » ليرى الناس أنه عربى غير دخيل ، وقد نص فيها على ما ردده الدكتور ناقلا مدعيا ! وكل ذلك ذاع واشتهر ٠

وأول من أعلنه الأستاذ عبد المتعال الصعيدى (١)، كما سجله الأستاذ محمد الخضر حسين فى كتابه الذى نقض (٢) به كتاب الدكتور ٠

وقد وجه الأستاذ محمد طاهر نور ، رئيس نيــابة مصر سؤالا صريحا عن هذا النقل فقال الدكتور طـه،

---

(١) كتاب القضايا الكبرى فى الاسلام ٣٩٩ للصعيدى ٠

(٢) كتاب نقض الشعر الجاهلى ص ٧٠ للخضر حسين ٠

اننى افترضت ذلك ، ولكنى أخبرت أن هذا الفرض موجود فى بعض كتب المبشرين بعد أن ظهر كتابى !

وتوافق المبشر مع الدكتور عجيب ، أما النقل عنه فأعجب ، إذ أن المبشر صاحب هدف مقصود حين يطعن فى القرآن دون تحقيق ، ومع استتار يعصمه من الخزى حين ينكشف افتراؤه ، ولكن الدكتور يحاضر الطلاب به مجاهرا ، ويطبعه فى كتاب ينشر على الناس متحديا ، وكأنه حق صريح .

أما مبلغ اعتقاد الدكتور فى آرائه الأدبية ، فيتضح مداه مما سجله محضر للتحقيق ، الذى أجراه رئيس النيابة معه ، ونحن ننقل منه هذا الحوار .

س : هل يمكن لحضرتكم تعريف اللغة الجاهلية الفصحى ، وهى لغة حمير ، وبيان الفرق بين لغة حمير ، ولغة عدنان ،ومدى الفرق ، وذكر بعض أمثلة تساعدنا على فهم ذلك .

ج : قلت أن اللغة الجاهلية فى رأيى ورأى القدماء والمستشرقين ، لغتان متباينتان على الأقل ، أولهما لغة حمير ، وهذه اللغة قد درست الآن ، ووضعت لها

قواعد النحو والصرف والمعاجم ، ولم يكن شىء من هذا معروفا قبل الاستكشافات الحديثة ، وهى مخالفة للغة الفصحى التى سألتم عنها مخالفة جوهرية ، فى اللفظ والنحو والصرف ، وهى الى اللغة القديمة أقرب منها الى اللغة العربية الفصحى ، وليس من شك فى أن الصلة بينها وبين لغة القرآن والشعر ، كالصلة بين السريانية واللغة العربية ، أما إيراد النصوص فيحتاج الى ذاكرة لم يهبها الله لى ، ولابد من الرجوع الى الكتب المدونة فى هذه اللغة .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا لنا هذه المراجع ، أو تقدموها لنا ؟

ج : أنا لا أقدم شيئا .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تبينوا الى أى وقت كانت اللغة الحميرية موجودة ، ومبدأ وجودها ان أمكن .

ج : مبدأ وجودها ليس من السهل تحديده ، ولكن لا أشك فى أنها كانت معروفة تكتب قبل القرن الأول من المسيح ، وظلت تتكلم الى ما بعد الاسلام ، ولكن

ظهور الاسلام ، وسيادة اللغة القرشية قد محا هـــذه اللغة شيئا فشيئا ، كما محا غيرها من اللغات المختلفة فى البلاد العربية وغير العربية ، وأقــر مكانها لغــة القــرآن .

س : هل يمكن لحضرتكم أن تذكروا لنا مبدأ اللغة العدنانية ، ولو على وجه التقريب ؟

ج : ليس من السهل معرفة مبدأ العدنانية ، وكـل ما يمكن أن يقال بطريقة علمية ، هو أن لدينا نقوشا قليلة جدا ، يرجع عهدها الى القرن الرابع للميـلاد ، وهذه النقوش قريبة من اللغــة العدنانيــة ، ولــكن المستشرقين يرون أنها لهجة نبطية ، واذن فقد يكون من احتياط العلم أن نرى أقــدم نص عــربى يمكن الاعتماد عليه من الوجهة العلمية الى الآن إنما هــو القرآن ، حتى نستكشف نقوشا أكثر وأظهر مما لدينا .

س : هل تعتقدون حضرتكم أن اللغــة سواء كانت الحميرية أو العدنانية كانت باقية على حالها من وقت نشأتها ، أو حصـل فيها تغيير لسبب تمادى الـزمن والاختلاط .

ج : ما أظن أن لغة من اللغات تستطيـع أن تبقى

قرونـا دون أن تتطـور ، ويحصـل فيها التغيـير الـكثير (١) .

هذا بعض ما جاء فى محضر التحقيق النيابى، ويظهر منه بوضوح أن الدكتور لا يملك دليلا حاضرا على بعد العدنانية عن الحميرية ، وأن ما رتبه على ذلك من اختلاق قصة ابراهيم واسماعيل لا يمت الى الحقيقة العلمية بصلة ! وقد كان فى وسعه أن يهتف عاليا باختلاف الحميرية عن العدنانية دون أن يثور عليه أحد ، اذا ترك النص القـرآنى بمنأى عن توهينه ، ولـكنه فعل !

والثانى من بنود الاتهام فى صحيفة رئيس النيابة العامة ، أن الدكتور أنكر القراءات السبع المجمع عليها، فزعم أنها ليست منزلة من الله تعالى ، وأن العرب قرأتها كما استطاعت لا كما أوحى الله بها الى نبيه .

والكلام فى القراءات بحث علمى لا يضر الكاتب أن يخطىء فيه ، لانه لم ينف به أن القرآن من عند الله ، ولكنه يريد أن يثبت اختلاف اللهجات فى اللغة الواحدة،

---

(١) نقلا عن كتاب (موقف النقد الادبى من الشعر الجاهلى ص (١٠١) للدكتور محمد رجب البيومى .

كما أراد من قبل أن يثبت اختلاف العدنانية عن الحميرية ! لينتهى الى التشكيك فى الشعر الجاهلى ٠

واختلاف اللهجات اذا تحقق لا يؤدى الى ما يريده من النتيجة ، لأن اللهجة هى طريقة أداء الكلمة الى السامع ، مثل امالة الفتحة والألف ، أو تفخيمها ، ومثل تسهيل الهمزة أو تحقيقها ، ولا تلازم بين اختلاف اللغات واختلاف اللهجات ، فقد تكون اللغة متحدة ، واللهجة مختلفة ، واذا كان ذلك كذلك فلا يوجب اختلاف اللهجة أن تكون اللغة مختلفة !

وكان على الدكتور ألا يتعرض للقراءات بشىء ، لان القراءات لا صلة لها بالشعر الجاهلى الذى يشك فيه ، ولكنه أراد الاثارة عمدا ٠

والثالث من بنود الاتهام أنه ذكر النسب النبوى بما يوحى بالاستخفاف اذ قال فى ص ٧٣ من كتاب الشعر الجاهلى « ونوع آخر من تأثير الدين فى انتحال الشعر ، واضافته الى الجاهلين ، هو ما يتصل بتعظيم شأن النبى من ناحية أسرته ونسبه فى قريش ، فلأمر ما اقتنع الناس بأن النبى يجب أن يكون من صفوة بنى هاشم ، وأن يكون بنو هاشم صفوة عبد مناف ، وأن يكون بنو

عبد مناف صفـوة بنى قصى ، وأن تكون قصى صفـوة قريش ، وقريش صفوة مضر ، ومضر صفوة عدنان ، وعدنان صفوة العرب ، والعرب صفوة الانسانية كلها !

وهذا الكلام على وجهه المسرود مريب سىء ، ولم يكن الشك فى الشعر الجاهلى بحاجة اليه ، اذ لا يوجد لدينا شـــعر يثبت أفضلية عبد منـاف وقصى ومضر وعدنان ، حتى نقول انه مختلق ! فلماذا أخذ المؤلف فى سرد السلسلة دون داع ٠

ان المسلمين جميعا يعتقدون ان محمدا أفضل خلق الله ، ويصدقون ما جاء به وما قاله وما زاد عن ذلك لا يعبئون به ! فكيف يأتى تأثير الدين فى انتحال الشعر ، اذا ثبتت أصالة العنصر النبوى ورفعته وطهارته !

ان أكثر القبائل الجاهلية تفتخر بأرومتها ، وأصالة معدنها ، بحيث لا يقاس ما قيل فى قريش عامة ، ببعض ما قيل فى تميم أو أسد أو طيىء ! فلم يسكت الدكتور عن فخـر هـذه القبائل بأصـولها ، ولا يعده سـببا للانتحال ، ثم يحاول أن يستخف بقبيلة النبى الكريم لأمر اذا ثبت على سبيل الجدل الفرضى فلن يخدم قضيته الأدبية فى قليل أو كثير !

ان مما يعزينا عن هذا التقحم البغيض ، أن الدكتور قد رجع عن ذلك كله حين كتب فصولا من السيرة الطاهرة، تغنت بمحمد الرسول الأمين ، وسجلت رفعة عنصره الكريم .

أما الاتهام الرابع ، فإن الدكتور أنكر أن للإسلام أولية فى بلاد العرب ، وأنه كان دين ابراهيم الحنيف ، وذلك حين قال ص ٨١ من كتاب الشعر الجاهلى وشاعت فى العرب أثناء ظهور الاسلام وبعده ، فكرة أن الإسلام يجدد دين ابراهيم ، ومن هنا أخذوا يعتقدون أن دين ابراهيم هذا كان دين العرب فى عصر من العصور ، ثم أعرضت عنه لما أضلها المضلون ، وانصرفت الى عبادة الاوثان » .

ويعزينا حين نسجل هذا الهراء ، أن الدكتور قد رجع عنه فى محضر التحقيق النيابى ، اذ ذكر فى المحضر أنه لا ينكر أن الاسلام دين ابراهيم ، فاستغلوا هذا الاقتناع وأنشأوا حوله بعض القصص والأخبار .

والسؤال الباقى بعد ذلك كله ، هل ورد فى الشعر الجاهلى الذى يحاول الدكتور انكاره شىء يتعلق بالاسلام ، ودين ابراهيم ، حتى يلجأ الى تسطير ما يخالفه الواقع ؟ واذا كانت الاجابة بالنفى لا بالاثبات ،

فلماذا يترك موضوعه الأصلى ليهيج المشاعر دون داع ! الا اذا كان المراد أن يحدث الضجيج ٠

هذا بعض ما تضمنه كتاب الشعر الجاهلى ، مما دعا علماء الأزهر الى الثورة عليه ، وقد ثبت أن جميع ما تورط فيه الدكتور من آراء مؤذية قد نقلت عن غيره ٠

وانى لاتساءل كيف يكون تصحيح الحقائق محاربة لحريةالفكر ؟ من ناحية الأزهر ، وكيف يكون تشويه الحقائق استجابة لحرية الفكر من ناحية الدكتور ومؤيديه ؟ حتى نرى فى كل حين كاتبا يدعى أن الأزهر قد هاجم كتاب الشعر الجاهلى لأنه يرفض الجديد الحى ، ويتمسك بالقديم البالى ! فى حين أن الأزهر بعلمائه وكتابه يناقشون القديم والجديد معا ! ويأخذون ما فيهما من الخير ، ويدعون ما بهما من الشر ! بدليل أن كتب الدكتور طه الخالصة للأدب ، من مراجع الأزهريين فى دراساتهم ، بل إن أدب الدكتور طه نفسه كان محور دراسات فى رسائل الماجستير والدكتوراه ، وقد أنصفه الباحثون مصيبا ونقدوه مخطئا ، واذا كانت حرية الفكر شيئا غير ذلك ! فأى شىء تكون ؟

الأزهـــــر

والســــلام الدينى

- ١ -

رددت بعض الصحف اليومية قولا قديمــا للــكاتب الفرنسى « موريس جودفرى دى موبين » يذهب فيه الى أن الأزهر بمصر لا يسهم إيجابيا فى السلام الدينى!

وأنا أعرف أن صاحب هذا القول المسرف ، قـــد أصدر كتابا سماه « النظم الاسلامية » حشاه بأخطاء كثيرة ، نسبها الى الاسلام خطلا دون صواب ، فاذا نسب للأزهر هذا الرأى الجائر فليس من المستغرب ، لأن من المستغرب فعلا أن ينصف الأزهــر من لا ينصف الاسلام .

وواضح أن الأزهر يمثل الاسلام فى كل رأى يبديه، فاذا دعا الاسلام الى السلام الدينى ، فهى الدعوة التى يحتضنها الأزهــر ويلتزمها أى الــتزام ، وليس رأى الاسلام فى السلام الدينى بعيدا عن كاتب يعالج شئون المسيحية والاسلام فى باريس ، وينقل عن الامام محمد

عبده رضى الله عنه آراء كثيرة سردها فى كتاب «الاسلام والنصرانية » كما يعرف سلفا بما كتبه الأستاذ الامام فى رده على المسيو هانوتو ، مبينا دعوة الاسلام الى السلام ، ومؤاخاة العلم ، واحترام الرأى المخالف !
فبالله كيف يتحدث مؤلف النظم الاسلامية ، حديث من لا يعرف الاسلام ، وقد تفرغ للبحث عن الشئون الاسلامية ، حتى غدا متخصصا فيها لدى معشره .

وها هو ذا يتحدث عن الأزهر دون دراية ، ولا نعذره فى خطئه المغرض ، لأن رأى الأزهر فى السلام الدينى ذائع مشتهر فى أوربا وأمريكا ، أذاعه شيخه الأكبر الامام محمد مصطفى المراغى فى مؤتمر الأديان ببروكسل عام ١٩٣٦ ، وأذاعه فى باريس عالم من ألمع علماء الأزهر ونابغيه ، وهو الأستاذ الدكتور محمد عبد الله دراز فى مؤتمر الأديان سنة ١٩٣٩ .

وما زال ممثلوا الأزهر يعلنون فى كل مؤتمر يلتمس فيه النفع ! أفتكون محاضرات مؤتمر الأديان فى باريس بعيدة عن كاتب متخصص ، يتحدث عن الشئون الاسلامية ، ويفرد المؤلفات الخاصة بها، ثم لا يأذن لنفسه أن يلتفت الى ما يدور حول تخصصه العلمى فى وطنه، بل الى ما قيل فى أمور يتصدى للبحث عنها مصدرا رأيه النهائى !

واذا كان ما قيل عن السلام الدينى والأزهر مما لا يقنعه ، فلماذا لا يرد عليه بالمنطق الصائب ، لنعرف أن للرجل أبعادا شاسعه يجهلها الباحثون ، أما أن يصدر الحكم عاريا عن أسبابه ، وغافلا عما قاله الفاقهون بشأنه ، فهذا هو الجور الصريح ٠

وقد يكون من المفيد أن نلقى بعض الضوء على ما قاله الامام المراغى ، والدكتور دراز ، فى موقفيهما الجهيريين ، لأن ما قالا منذ أكثر من أربعين عاما ، يدل على أن الأزهر لا يلبس أردية مختلفة ، تتنوع وفق الاتجاهات المتعارضة ، بل يلتزم بمنطق الاسلام فى مواجهة الأحداث ، وآية ذلك أن رجال الأزهر اليوم ، يقولون عن اعتقاد ما قاله أسلافهم الفاقهون ، لا لأن اللاحق يقلد السالف ، بل لأن المصدر واحد لا يختلف، وهو القرآن الكريم ٠

●●●

- ٢ -

انتشر التبشير بمصر فى الثلاثينات انتشارا أساء الى القائمين به ، ممن لا يراعون حرية العقيدة فى بلد اسلامى ، يرعى روابط الانسانية والوطنية ، وبحثت الهيئات الاسلامية أسباب هذا الاعتداء الصارخ على حريات المعتقدين ، وفى مقدمتها مشيخة الأزهر ، فأدركت أصابع الاستعمار المحركة للمهزلة المنكرة من وراء ستار ، فانبرت الأقلام المؤمنة تفضح ما استتر من الدسائس ، وتدين قوما يتظاهرون فى الخارج بالدعوة الى سلام الأديان ، ويقيمون المؤتمرات الداعية لهذا السلام ، ثم جاءت الدعوة الى شيخ الأزهر ليمثل الاسلام فى مؤتمر بروكسل .

ولو كان الأستاذ الأكبر أسير عاطفته الشخصية وحدها ، لرفض الدعوة من قوم ينضم اليهم من يكيد فى الباطن ، ويتظاهر بالمودة فى العلن ، ولكن الامام المراغى قد اهتبل الفرصة ، ليدعو باسم الأزهر الى سلام دينى حقيقى ، وليوجد أرضا مشتركة يقف عليها دعاة الأديان المختلفة غير متنابذين ، وهو فى ذلك يصدر عن دين أمر دعاته أن يهدوا الانسانية بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاذا كان جدال فبالتى هى أحسن .

وقد استعان الأستاذ الأكبر بثقافة العصر الحضارية، ومقررات العلوم الانسانية ، حين أشار فى بدء كلمته الى فكرة الزمالة بين المتدينين فكرة طبيعية ، وهى ليست نظرة فلسفية بل حاجة ضرورية ، تولدت فى النوع البشرى ، ومع الشعور بهذه الزمالة ، فان أسباب التفرق أيضا لها موجباتها الضرورية ، إذ أن الانسان لا يسير بالعقل وحده ، حتى تنحسم أموره مع المخالفين على وجه حاسم صريح ، ولكنه يخضع لغرائز قاهرة تضطره الى مجانبة المنطق فى بعض الأحيان ، ولذلك كان الاخاء الانسانى العالمى أمرا ميئوسا منه ، ما دامت هناك شهوات تمليها الغريزة ، ولن يقدر التقدم العلمى على التغلب على هذه الشهوات المتأصلة ، واذا أمكن بعامل من العوامل أن تخبو جذوة تلك النار المنبعثة من قوى الطبيعة فى الانسان ، فانه لا يمكن أن تنطفىء تلك النار ٠

والتدين - فى رأى الأستاذ الأكبر - أصيل فى كل نفس ، ولا يحجبه إلا غشاوات عارضة ، تنقشع أمام النظر البصير ، وفى هذا التدين ما يهبط بقوى الغرائز الهائجة ، فيخيف من شرورها الكثيرة ، فالشعور الدينى اذا عمق وتأصل ، فل من أسلحة الأنانية والتجبر، ورفع الانسان الى ما فوق الاعتزاز باللون والدم والجاه

والطبقة، ودعا الى طمأنينة وسكينة ، تهونان الرزايا والأحزان .

وبعد أن يحكم الامام المراغى فى مرارة على ما ارتكب من المآسى بسبب الخلافات الدينية ، والدين منها براء، عمد الى ايضاح رأى الاسلام فى السلام الدينى فقال(١):

وهذا ما جعل اغتباطى بهذا المؤتمر عظيما ، فإنه فضلا عن سعيه للبحث عن الوسائل الموصلة لتحقيق المثل العليا للإنسانية ، وهى الزمالة العالمية بين أفراد النوع الانسانى وأممه ، فانه بهذا السعى يحقق غرضا أساسيا من الأغراض التى سعت اليها الأديان ، وعنى بها الاسلام الذى أدين به .

فقد نبه القرآن على وحدة الأبوين الموجبة للتعارف والتعاون والتناصر ، والمبعدة عن التناكر والاختلاف، ولم يقم وزنا لشرف المولد ، وكرم الجنس ، ووضع معيارا للتفاضل لم يعرفه الناس من قبل ، وهو تقوى الله ، فى القرآن الكريم « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وفى القرآن الكريم « لا ينهاكم

---

(١) مجلة :الازهر . المجلد السابع ص ٦٥

الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم إن الله يحب المقسطين » .

ثم تحدث الامام المراغى عن الزمالة المنشودة بين رجال الدين ، داعيا الى الوئام الحقيقى ، وقد اضطر الى أن يدين فى وضوح ما يرتكبه المبشرون من منكرات، حين يلجئون الى ديار الاسلام ، ليغروا الضعفاء بالمال والمنصب والعقار ، كى يتركوا دينهم دون اقناع ، ثم وضع النقط على الحروف حين قال :

« ومما يثير العجب ، ويضاعف الألم ، أن أهل الأديان يحشدون جهودهم لمقاتلة بعضهم بعضا، مقاتلة أسرفوا فيها ، وجعلتهم ضعفاء أمام عدوهم المشترك ، وسلكوا طرقا فى التناحر مخالفة لأبسط قواعد المنطق، مما جعلهم سخرية أمام العلماء والفلاسفة ، وجعل كل جهودهم عقيمة النتائج ، فقد تركوا التأثير على الانسان من ناحية عقله الذى هو موضع الشرف، وموطن العزة والكرامة ، واستعملوا طرق الاكراه والاغراء بالمال وغيره من الوسائل ، وركن بعضهم الى القوى المادية للدول ، وقد نسوا أن الايمان لا يحل القلب بالاكراه ، وأن العلم لا ينال إلا بالدليل ، ونسوا أن

العدو جاد فى انزالهم من مكانهم اللائق بهم ، وأن شرور العالم تغمر الانسانية ، وتطغى على ما بقى فى النفوس من هيبة واحترام للنظم الالهية ، وكان عليهم بدل ذلك كله أن يتعاونوا على درء الخطر ، وأن يحاربوا هذه الشهوات الجامحة ، وهذه الإباحية التى يئن منها العقلاء » (١) .

ثم ختم الأستاذ الأكبر كلمته باقتراحات هادفة ، تدعو الى عدم تنمية الشعور الدينى بالضغائن والأحقاد وتوجيه الوعظ الدينى الى الطريق الانسانى المجمع لا المفرق ، وجعل الدعاية الدينية قائمة على أساس عقلى محض ، يدعمه حب الحقيقة ، واستشهد بما يؤيد فكره الناصح بأصول اسلامية من آيات القرآن ، مثل قوله تعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وقوله عز وجل « ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

وقد قوبلت كلمة الامام المراغى بما هى جديرة به من الاحتفاء ، وليس لدعى بعدها أن يعلن أن الأزهر يقف فى وجه الإسلام الدينى تخرصا دون برهان .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٠٨

- ٣ -

أما الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله ، فان قراءه الكثيرين يعرفونه باصابة القول وجزالته وجدته، وأشهد أنه ما قرأ له عارفوه مقالا أو كتابا ، أو استمعوا الى محاضرة علمية من محاضراته ، إلا انتفعوا بالجيد الطريف الزاهر .

فهم فى دوحة مورقة ، ذات ثمر وظل ونسيم .

وقد أحسن الأزهر اختياره ليمثل شيخه الأكبر فى مؤتمر الأديان بباريس حين انعقد سنة ١٩٣٩ ، فألقى محاضرة هادفة ، قال عنها السير فرنسيس رئيس المؤتمر : إن كلمة الأزهر هى الكلمة الرئيسية ، وقد وافق الحاضرون بالإجماع على اقتراحين قدمهما الشيخ دراز للمؤتمر ، فكان فوزه الباهر فوزا للسلام الحقيقى كما ينادى به مسلم داعية غيور .

وقد بدأ الدكتور محاضرته متسائلا عن سر العداوة والشحناء اللتين تعمان عالم اليوم ، وألمح الى أثر المادية فى التزاحم على الاستلاب والغزو والاستعمار

وقـد رأى فى الدين مرفأ النجاة ، وهو يعلم أن رجال الدين يتنازعون كما يتنازع الماديون ، وقد أعمل فكره ليجمعهم فى جبهة واحدة ، ينتفى معها النزاع ، وقال فى توضح ذلك (١) :

غير أنا اذا رجعنا الى الأديان نلتمس منها المعونة، هالنا ما نراه من اختلافها اختلافا طالما كان من أسباب الخصومـات والحـروب ، بدل أن يساعد على حسن التفاهم والتقريب بين القلوب ، فهل نستطيع أن نجد منوراء هـذا الاختلاف وحدة مشتركة فى المبـادىء والمطامح ، تصلح أن تكون محورا لتقرير السلام بين معتنقيها ، وتسهيـل تعاونهـم على الخير المشترك للجميع ، هـذه هى النقطة الاساسية الى تدور عليها أعمال المؤتمر ، وهذا هو الاشكال الذى يحاول المؤتمر أن يجد له حلا .

أما أنا ـ أى الشيخ دراز ـ فأميل الى أن يكون الحل على أساس الفصل فى الأديان بين ناحيتها الاجتماعية وبين نواحيها الأخرى ، وأعتقد أن افتراق الأديان فى عقائدها وشعائرها ، وكثير من تعاليمها ، لا يمنع أن

---

(١) مجلة الأزهر المجلد العاشر ص ٥٣٣

تلتقى من الوجهة الخلقية عند قاعدة واحدة ، هى أساس التعاون المطلوب • وذلك انها كلها تأمر بالعدل والاحسان ، وتنهى عن الظلم والعدوان ، وكلها تسوى فى هذه المعاملة الدنيوية بين أتباعها وبين أعدائها •

لقد نادى الأستاذ اذن بالحل العملى ، بعيدا عن الغوص الجدلى فى مشكلات لا تصل الى نتائج ، وبعيدا عن التظاهر بالعمق النظرى ، تظاهرا يعود على القائل بالمباهاة ، دون أن يفيد المجتمع الانسانى شيئا ذا بال، وقد ساعد الأستاذ اطلاعه المقارن الشامل ، على أن يتحدث عن الديانات المختلفة من : هندية وبوذية ويهودية ومسيحية واسلامية حديثا واعيا بصيرا ، ليأخذ من كل دين دعوته الى السلم المتسامح، فيعتدها حجر الزاوية فى لقاء هذه الأديان •

وكان من الطبيعى أن يفضل رأى الاسلام نظريا وعقليا فى قضية السلام العالمى ، فيرى أن دعوة الإسلام الى الائتلاف قد قامت من الناحية النظرية على دعامتين ، أولهما من طريق توحيد الغاية ، وذلك بدعوة الناس جميعا الى عبادة رب واحد ، وثانيتهما من طريق التوفيق بين وسائل هذه الغاية ، حين أرجع

القرآن الكريم الشرائع السماوية الى أصل واحد ، ودعا الى الايمان بجميع الرسل والأنبياء وكتبهم المنـزلة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـد منهـم ونحن له مسلمون » بل ان الاسـلام نفسه ـ فى اصطلاح القرآن الكريم ـ اسم مشترك يضعه كتاب الله على لسان أنبياء الله قبل محمـد ، فيقـول فى شـأن ابراهيم « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين» ويقول فى شأن يعقوب « إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك ابراهيم واسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون » ومضى الباحث يستعرض نظائر هذه الآيات .

أما الوجهة العلمية ، فالاسلام قد حذر من مناوشة مخالفيه أو مضايقتهم ما داموا مسالمين ، فاذا تركـوا السلم الى الحرب فان الاسلام يدعو الى اعـداد القوة دون أن يغفل الانصات الى دعوة المهادنة ، حيث تثمر خيرها دون عنت وارهاق ، فاذا لم تثمر وئاما يحفـظ الأرواح ، كان على المحارب المسلم أن يحصر القتال فى أضيق نطاق ، يقول الله تعالى « وقاتلوا فى سبل الله

الـــذين يقاتلونـــكم ولا تعتـــدوا إن الله لا يحـب المعتدين » (١) .

وفى ختام كلمته البارعة ، استخلص الأستــاذ نتائج ثلاثا تنحصر فى أن الأديان ـ أولا ـ يجب من الآن أن تكون سبب وفاق ووئام ، لا مدعاة نزاع وخصام ، كما أن السبب ـ ثانيا ـ فى الخصـــومات الدينيـة هـو الانحراف عن الدين لا اتباعـه ، أما العـلاج الحتمى ـ ثالثا ـ فهو العناية بين رجال الأديان جميعا بالجانب الخلقى العام ، لنمو العاطفة الدينية لدى المتدينـين جميعا ، فيعيشون فى سلام .

هذا بعض ما يمكن تلخيصه من كلمة الدكتور دراز ، فاذا ضمت الى كلمة الامام المراغى ، وقد ترجمتا معا الى الفرنسية ، ووزعتا على المؤتمرين من شتى ممثلى الأديان فى الشـعوب والقـارات ، فليس لأحـد مـن المتحدثين عن الأزهر أن يصمه بمجافاة السلام ، بـل أن المنصف ليقدر لممثليه تسامحهم الانسانى ، حـــين أغضوا عن اتهام خصومهم بما ارتكبوه فى ديار الاسلام شرقا وغربا من اعتداء صارخ على الحرية الدينيـة ،

---

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٥٣٧

وفى وسعهم أن يستشهدوا بما ذكرته الصحف الأوربية نفسها من هذه الفظائع المخجلة ، لأن الحق لا يعـدم أنصاره حتى من بين مناوئيه ، ولكن داعيتى الأزهر، قد أسدلا الستار على ما كان ، طمعا فى أن يميل الميزان الى الاعتدال، وارتقابا ليوم تنفع فيه النصيحة المخلصة والدعوة الصادقة ، فتغنى عن عناء كثير .

●●●

- ٤ -

وبعـــد : ـ

أفيكفى فى وقتنا العصيب أن يـكون السـلام بـين الأديان وهو المطمح الأمثل ، أم يجب أن يمتد بالسلام السلبى الى تعاون إيجابى أمام ما يتهدد الإيمان من خطر شيوعى يزحف الى كل مكان ٠

إن الذين ينكرون عالم الغيب مرتكنـين على شبهة تتسم بسمات العلم ، دون أن تؤسس على يقين جـازم، فى حاجة الى من يعارضهم بسلاح العلم نفسه ، ليثبت أن الايمان بالله حقيقة مكينة ، لها أثرها الحى فى طمأنة النفوس ، وبعدها من الهواجس المريبة ، ذات الفزع والاضطراب ٠

ثم أن دعاة الالحاد يجدون طريقهم سهلا هينا، لأنهم ينفون كل التزام جزائى فى ارتكاب الموبقات ، اذا لـم يقـدر لها أن تذاع عـلى ملأ من النـاس ، والنفوس بطبيعتها تميل الى التحـلل من القيـود ، فهى الى دعوات التحلل أسهل مقادة وألين عريكة ، مما يجعل الماديين يسبحون مع التيار العام ٠

أما دعاة الايمان فيحاولون اقامة السدود المنيعة أمام الأهواء ، ويدعون الى قوة الارادة والشدة، لحسم نفوس يسوءها أن تكبح بلجام ، فطريقهم شاق وعر، وعليهم أن يتعاونوا متساندين ، ليعلوا كلمة الله .

واذا كنا نرى دعوات الالحاد تمتد وتتسع ، بحيث تحتل معاقل جديدة ، على فترات متعاقبة ، فاننا نهيب برجال الأديان أن يحموا أوطانهم من الزحف الراصد .

واذا كنا بالأمس نركن الى الاغضاء عمن يحاربون الايمان استخفافا بأثرهم ، فقد أثبتت الأيام أنهم يتقدمون وراء خطة مدروسة ، ويقفون جميعا متأهبين للانقضاض ، ولن تندحر جموعهم إلا اذا قوبلت باعصار كاسح ، يستأصل الجذور الثابتة فى الأرض ، ويضع مكانها بذور الحب والايمان .

● ● ●

الأزهـــر

وحـرية الفـكر

أراد الأستاذ توفيق الحكيم ، أن يجمع ما لديه من خطابات شخصية ، وقصاصات صحفية ، فى كتاب خاص يكون شاهدا على جهاده الأدبى من عمـره الحافل ، فأصدر ما سماه « وثائق من كواليس الأدباء » .

وللأستاذ أن ينشر ما يشاء ، ولكن ليس له أن يجبر الناس عـلى أن يفهموا الحقائق على غـير وجوههـا الصحيحة ، كما يلوح ذلك فى كثير مما كتب ، إذ شاء أن يجعل نفسه نصيرا للحرية والفكر ، وهو ادعـاء سنعرف مقدار حقيقته فى نهاية هذا المقال .

وقد كنت أوثر أن أغض عنه لولا أنه تحرش بالأزهر فى صفحات من كتابه ، تحرشا لا يستند الى واقع قائم، فندد بما زعم من تدخله المتكرر فى شئون الفكر، مستندا الى وهم لا أساس له ، وقد ثبت له عن يقين أن الأزهر لم يناهضه فى شىء ، ولكنه سود ما سود وكأن الوهم المتخيل أصبح حقا واقعا ، إذ بلغه ـ كما ادعى ـ أن الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى رحمه الله ، قد

اعــترض على ما جاء بــكتابه « يوميــات نائــب فى الأرياف » خاصا برجال القضاء الشرعى ، فاهتبل هذه السانحة دون أن يتأكد من صحتها ، ثم أدلى بحديث ينعى فيه على الأزهــر تدخله المتكـرر ، فيما سماه بشئون الفكر .

وكأنى بالفارس المضطهد ، وقد سره أن يظهــر فى صورة المدافع عن الحرية ، فاندفع الى رد الهجـوم المتخيل ، ليعلم الناس أنه أحد ضحايا الرأى الحــر ، والفكر الجرىء ، وقد شاء أن يقرن الاسلام بالمسيحية ، والأزهر بالكنيسة ، كما يفعل أعداء الاسلام ظلما دون عدل ، فقال فى حماسة :

« وقد آن الأوان لنواجه الأمر فى صراحة فيما يتعلق بتدخل الأزهر المتكرر فى شئون الدولة الفكرية ، وأن نتدبر من الآن الخطر الذى يهدد حرية الكتابة ، وخطر التأليف ونهضة العلوم ، اذا سيطر على الحياة الفكرية فى هذا البلد العصرى بمثل هذه الروح .

فالمعروف عن ظلام القرون الوسطى ، أن الكنيسة كانت هى التى تتحكم فى عقول المفكرين ، مما أدى الى شل حركة العلوم والفنون ، فلما جاءت عصور النور ،

وتم فصل الكنيسة عن الدولة ، استطاعت الحضارة أن تزدهر هذا الازدهار الذى يسود العالم اليوم ، فلا شك اذن عندى أن مستقبل مصر متوقف على ضمان حرية العقل ، والأفكار الضرورية لكل نهضة حقيقية »(١) .

وقد توالت الصفحات فى كتاب الأستاذ الكبير، لتثبت له الحقائق أن الأستاذ الأكبر لم يتدخل فى شىء يتعلق بكتابه ، وكان عليه بعد ذلك أن يرفع هذه الصفحات الظالمة من الوثائق ، لأنها بنيت على افتراء باطل ، ولكن الكاتب أثبتها فى اصرار ، ثم نسى أنها دعوى كاذبة فقال فى نهايتها معقبا : « هذه الأحاديث والأخبار المنشورة فى صحف ذلك العهد ، تتعلق بأزمة الحياة الفكرية التى تعرضت لها، لما رأيت من خطورتها على نهضتنا العقلية (٢) .

وقارىء هذا الكلام يظن أن الأستاذ قد تعرض حقا لأزمة فكرية ، كما يظن أن الحياة الفكرية فى مصر بنوع عام قد تعرضت لهذه الأزمة بسبب تدخل الأزهر!؟ وكل ذلك خطأ لا يقوم دليل واحد على صحته لدى من يزنون الأشياء بميزانها الصحيح .

---

(١) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠

(٢) وثائق من كواليس الادباء للاستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٩

ولا نحب أن نمضى بالحديث الى آفاق شاسعة، تخرج بنا عن نطاق الأستاذ توفيق الحكيم الى سواه ، بل نحب فى هذا المقال أن نبين أن الأستاذ توفيق الحكيم تحرش بالأزهر فى مناسبات كثيرة ، دون أن يكون صاحب حق فى هذا التحرش ، كما نحب أن نذكره ببعض ما نسيه من بطولة الأستاذ الأكبر فى مواجهة العدوان المحتل بجبروته وطغيانه ، ليعلم من المدافع الحقيقى عن الكرامة الانسانية فى ميدانها الأصيل :

١ ـ يقول الأستاذ توفيق الحكيم ص ١٢٠ « إن الانتصار الذى تم (للأزهر) فى حظر كتاب (جان دارك) قد شجع على الاستمرار فى هذه الخطة » ، ولكى يكون القارىء على بينة من موقف الأزهر الصائب من قصة جان دارك ، وموقف الأستاذ توفيق الحكيم المخطىء منهما ، نوجز الحديث عنها فيما يلى :

لقد قررت كلية الآداب منذ أربعين عاما ، تدريس قصة جان دارك لبرنارد شو ، الكاتب الانجليزى الذائع ، فقرأها الطلاب ورأوا فى بعض ما جاء بها من الحوار على لسان أحد الأشخاص طعنا فى نبى الاسلام، فتحمس الطلاب المسلمون لكرامة نبيهم العظيم ، وطالبوا المسئولين بعدم تدريس القصة ، وكتبوا عن ذلك فى الصحف ، فاهتم وزير المعارف بالأمر .

وتحدث كبار علماء الازهر يؤيدون الطلاب ، وفى طليعتهم الامام المراغى ، والاستاذ عبد المجيد اللبان شيخ كلية أصول الدين ، ولكن الاستاذ توفيق الحكيم شـاء أن يدعى الحرية ـ حيث لا خوف على حريته هو من أحد ، فكتب ينتقـد الطلاب الذين ثاروا لـكرامة نبيهم ، والأزهر الذى قام بواجبه فى تأييد الطلاب ، وقال فى ادعاء غريب بعد أن تساءل فى دهشة عن فزع الطلاب (١) :

« ان الكتب التى عالجت المسيحيـة ، وتعـرضت للمسيح بالطعن والتجريـح ، تطبع وتنشر فى أوربـا المسيحية دون أن يخشى أحـد على كيان المسيحية ، ذلك أن الجميع يعلمون أن الأوان قد فات للخوف من مثل هذه الصيحات ، وأن المسيحية التى عاشت عشرين قرنا ، لا يهدمها عشرون كتابا ، كذلك نستطيع أن نقول فى الإسلام ، إن هذا الدين المتين الذى عمر نحو أربعة عشر قرنا ، وثبت لاحداث الزمان ، وشاهد دولا تدول وعروشا تزول ، وشعوبا تولد ، لا يمكن أن يتعرض للخطر امام كتاب يؤلف ، أو عبارات تقال ، ان هـذا الفزع منا لأكبر مسبة لدين عريق عميق ، كذلك يدهشنى أن ينشأ الفزع فى جامعة عصرية ، يؤمها شباب قد قطع

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٨ ؛ ١٩٣٩/٣/٢٠ م

مراحـل الطفولة والصبـا الأول ، وانغرست فى قلبه العقيدة الحارة ، فلا خوف عليه الآن من مناقشة المسائل المتعلقة فى جو الحرية » .

هذا ما قاله الأستاذ توفيق الحكيم ، وهو كلام ظاهر البطلان لدى صغار الطلاب ، فضلا عن أصحاب الأقلام من المفكرين ، وقد تعرض لدحضه أحد طلبة كلية اللغة العربية بمجلة الرسالة ، حين كتبه الأستاذ منذ أربعين عاما ، وهـو صديق الأديب الغيور أحمد عبد الرحمن عيسى ، فسأل الأستاذ فى قوة (١) : أى برنامج من برامج التعليم فى أوربا قـررت فيه كتب تطعن فى المسيـح ، وتجريح سيرته ، ثم قررت على الطلاب فى الجامعة ، وفرضت عليم فرضا لتكون من أسس ثقافتهم الرسمية ؟!

أن انجلترا حرمت دراسة نظريات علمية بالجامعات، احتراما لشعور الجماهير ، حين مست بعض أصـول المسيحية ، ولكنها لم تحرمها خارج الجامعة ، فللكتاب أن يتحدثوا عنها كما يشاءون ، ولكن ليس لأحـد أن يقرر على الطلاب ما يغرس فى نفوسهم الشكوك !؟

وسؤال الاستاذ الصديق ، يدل على أن الكاتب الكبير ،

---

(١) مجلة الرسالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م

لا يفرق بين تدريس كتاب يقرر غصبا على الطلاب ، وكتاب يؤلفه انسان ليقدمه للقراء دون أن تفرضه الجامعة فرضا دون اختيار !

وأزيد على ما كتب الصديق فأتساءل ، لماذا تكون أوربا والمسيحية دائما وجهة الكاتب الكبير فى المقارنة، كما قارن الآن بين الجامعة المصرية وجامعات أوربا، وبين المسيحية والاسلام فيما نقلناه عنه ، وكما قارن بين الأزهر والكنيسة فى حديثه بالمقطم ! ؟ ان هذه المقارنة توحى أن الأستاذ يعتقد أن الاسلام كالمسيحية، وأن رجال الاسلام يملكون من التحكم فى المصائر والعواقب مثل ما كان يملك القساوسة فى الكنيسة، وهى مقارنة تسىء الى الاسلام ، إذ تحمل عليه أوزارا لم يقترفها حماته ، ولا تمت الى أصل من أصوله ، وهذا ما عناه الأستاذ الدكتور محمد البهى حين قال فى الرد على دعوى الأستاذ توفيق الحكيم (١) :

« ان الأزهر لا يطلب سلطان الكنيسة فى القرون الوسطى ، وانما يؤدى مهمته الروحية فوق مهمته العلمية ، وهى المحافظة على الأمة وعلى شبابها المثقفين ، وشيخ الأزهر لا يحد من حرية البحث

(١) مجلة الازهر : المجلد العاشر ص ٢٢١ سنة ١٩٣٩ م

الجامعى اذا ما حاول أن ينزع الأمــة من تحكم فئــة تدعى لنفسها من الألقاب الثقافية ما تشاء مستغلة جهل الشعب ، وعدم سمو المستوى العلمى فيه » .

ثم قال الدكتور البـــهى : « حددوا الألفـــاظ قبل استخدامها ، وضعوا المقارنة بين نهضات الأمم عــلى أسس صحيحة ، وتخلوا قبــل كل شىء عن عقيـــدة وجوب تقليد الغرب ، أما الايمان أولا بوجوب تقليــد الغرب فى خيره وشره ، ثم إلزام القارىء بنتائج مــا يسمى « البحث » المبنى على هذا الايمان ، فذلك هو هدم حرية التفكير ، والتحكم الذى هو أقرب الى تحكم الكنيسة فى القرون الوسطى » .

فاذا تركنا ما كتبه الأستاذان الدكتور البهى، وأحمد عبد الرحمن عيسى ، الى ما كتبه غير الأزهريين، فاننا نجد الكاتب الغيور ، الأستاذ محمد أحمد الغمراوى، يفرد للرد على كلام الأستاذ توفيق الحكيم ، مقــالا ممتازا بالرسالة (١) تحت عنوان (أما لهذا الليل من آخر) قال فيه :

أن الذى يقرأ كلام توفيق الحكيم ، يظن أن الطلبة

---

(١) مجلة الرسـالة العدد ٢٩٩ ، ١٩٣٩/٣/٢٧ م

قد أكرهوا اكراها على ترك القصة المقررة ، ولكنهم لم يكرهوا فى شىء ، بل دفعتهم غيرتهم الدينية من تلقاء أنفسهم الى رفض هذا التهجم ، وأبلغوا شكواهم الى العميد ، فلم يفعل شيئا ، فاهتم بالأمر شيخ الأزهر ووزير المعارف ، فاذا كانت هذه قيامة ـ كما تصور الحكيم ـ فمن الذى أقامها ! ؟ أمن طلب تغيير الكتاب ، أم من فرض على الطلاب شيئا يمس جوهرهم الايمانى فلفظوه ؟ ؟

وأزيد على كلام الأستاذ الغمراوى فأتساءل ، هل تضمنت القصة نقاشا علميا وتحليلا فكريا فيما تعرضت فيه لنبى الاسلام ، أو هو حوار على لسان بعض الأشخاص لم يعن فيه بتقرير الحقائق ! ؟

على أن ما يتباهى به الأستاذ الحكيم من الدعوة الى الحرية الفكرية ليس أبا عذرته ، بل سبقه اليه كل مفكر اسلامى درس أصول هذا الدين الحنيف، والأستاذ المراغى الذى لم يرض الكاتب موقفه من القصة ، ونسب اليه انتقادا مفترى على بعض ماجاء فى « يوميات نائب فى الأرياف » قد خطب أكثر من مرة فى طلاب الأزهر، ليعلن لهم رأى الاسلام فى تقرير حرية الفكر ، وليرد على من يخافون من تدخل الأزهر فى شئون الكتابة

كما وهم الأستاذ الحكيم ، فقال رحمه الله من حديث مستفيض (١) :

« ان الناس فى مصر يخشون خطر الأزهر على الحياة العامة فهم يقولون إن الأزهر اذا قوى واشتدت عزيمته يدخل فى الحياة الاجتماعية فيكدر هذه الحاة ، إذ يحظر حرية الفكر ، ويقف حجر عثرة فى طريق الأفكار العلمية الحرة ، هذا ما يقوله الناس .

أما الحياة الفكرية فلا أظن بحال أن الأزهر حظر عليها ، لأن الأزهر يساير أسلافه من العلماء الأجلاء، ومن الأئمة الذين كان عندهم من سعة الصدر ما احتمل هذه المذاهب المتعددة ، التى تقرؤها فى علم الكلام .

وقد حمى الاسلام أديانا تخالفه ، وحمى علماء الاسلام مذاهب غير صحيحة ، واجتهدوا فى أن يردوا عليها بالدليل ، فليس الأزهر من المعاهد التى تكره حرية الرأى ، ولكن الأزهر يكره شيئا واحدا هو تعمد الاستهزاء بالدين ، وتعمد الاستهزاء بأئمة المسلمين، يكره هذا ويكره أن يشكك العامة فى دينهم ، وأن يشكك النشيء فى عقائدهم ، أما الآراء العلمية فى حدود العلم ودائرته ، فانها تدرس فى المعاهد الكبرى دون أن يخطر للأزهر ببال أن يقاومها » .

---

(١) مجلة الأزهر المجلد العاشر ص (و) من الجزء الرابع ١٩٣٩م

فاذا تركنا موقف الأستاذ الحكيم من قصة برنارد شو وثورة الطلبة فى كلية الآداب على بعض ما جاء بهـا خاصـا بنبى الاسلام ﷺ ، الى موقفـه من رسالـة « القصص الفنى فى القرآن » فاننا نجد المفكر الكبير يتسرع فى مؤاخذة الأزهر ، ومن ساروا سيره فى معارضة الرسالة ، دون أن يعرف حدود المسألة ، وكان له فى تسرعه الأول ما يدعوه الى التؤدة فى الاعتراض ، فقد ظن المسألة مسألة حرية رأى ، لا مسألة فوضى جامعة .

وكان فى تجربته السابقة عبرة عاصمة ، حتى لا يقع فى خطأ يضطر الأستاذ العقاد الى أن يصححه لـه ، كما يضطر عميد كلية الآداب أن يوضح للجمهور أن الذين يتدخلون فى شئون الجامعة ليسوا على شىء من الدراية العلمية تؤهلهم لهذا التدخل .

وموجز القصة أن أحد الطلاب تقدم لنيل الدكتوراة برسالة تبحث فى « الفن القصصى للقرآن » وقد عرضت الرسالة للفحص ، فرفضها الأستاذان أحمد أمـين ، وأحمد الشايب ، وقال عنها الأستاذ أحمد أمـين فى تقريره العلمى : « وقد وجدتها رسالة ليست عـادية ، بل هى رسالة أساسها أن القصص فى القرآن عمل فنى خاضع لما يخضع له الفن من خلق وابتكار ، من غـير التزام لصدق التاريخ ، وأن محمدا فنان بهذا المعنى ،

وعلى هذا كتبت الرسالة من أولها الى آخرها » (١) .

ومن حق الأستاذان الفاحصان أن يرفضا كلاما يريان بطلانه ، ولكن الأستاذ المشرف على الرسالة ، قد أيد الطالب ، ولم ينتظر الحكيم حتى يقرأ الرسالة ، بل أرسل صيحته المضرية فى احترام حرية الفكر ، وخالف الجامعة فيما اتجهت اليه من رفض الرسالة ! ؟

ومن البديهى أن الجامعة لا تستطيع أن تمنح الدكتوراة لطالب مخطىء ، فلها الحرية كل الحرية أن تقول للمخطىء : أخطأت ، ولكن هذا البديهى ينكره الأستاذ توفيق ، ويسير فى ركب المندفعين باكيا على حرية الرأى ، حتى يضطر الأستاذ العقاد أن يأتى بعصى موسى فتسكت المعارضين جميعا حين قال (٢) :

« حرية الرأى مكفولة لكل انسان ، ولكن لا حرية بغير تبعة ، فكل ذى رأى مسئول وحده عن رأيه ،وعليه وحده أن يحمل جميع تبعاته ، وليس له أن يلقى التبعات على غيره ، لأن حريته تنتهى عند انتهاء التبعة التى يحملها باختياره ، فلا اختيار له فى حريات الآخرين ! ؟

(١) مجلة الرسالة : العدد ٧٤٩ ١٠/١١/١٩٤٧ م .
(٢) المصدر السابق .

من حق الباحث أن يبدى ما يشاء فى حدود القانون، وليس من حقه أن يحمل غيره « يريد الجامعة » على تزكية رأيه وترويجه أو الإذن بأجازته ونشره ، ولا سيما إذ يكون ذلك الغير هيئة رسمية مفروضة بقوة الدولة على جميع أبناء الأمة ، كالجامعات المصرية ، وما جرى مجراها .

فالجامعة المصرية جامعة حكومية ، ومعنى أنها جامعة حكومية : أن الزامها لطلابها هو الزام يقوم به القانون ، وتحميه الدولة ، وليس فيها للطالب أو ولى أمره خيار ... فليس لأحد أن يطلب من هذه الجامعة أن تجيز دورسا تحتاج الى احتمال تبعة ، وليس له أن يلقى عليها تبعاته وينتظر منها أن تقرها وتزكيها ، وهو يزعم أنه حر فيما يصنع ، وأنها هى المقيدة أمامه فلا حرية لها ، فى رفض هذا الصنيع .

وقد سبقتنا الى النظام الجامعى أمم كثيرة .. فلم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة أكسفورد مثلا ببحث فى ميلاد السيد المسيح ، هل كان مولدا طبيعيا أو كان مولد خارقة وإعجاز ! ؟

ولم نسمع قط أن أحدا تقدم الى جامعة السوربون ببحث فى تدوين الأناجيل ، هل هى من كتابة الرسل،

أو كتابة آخرين معلومين أو مجهولين ! ؟

والجامعات الانجليزية تدرس من تواريخ الأديان ، وتدرس المقابلة بينهـا ، فلم نسمع قـط أنها أجـازت لصاحب رأى أن يطلب منها اقرار قول من الأقـوال يخالف ما تلتزمه أمام جميع المتعلمين .

الى أن يقول الكاتب الكبير الأستاذ العقاد : « ليس بعالم ولا مستحق لأمانة العلم ، من لا يقدر ولا يميز بين ما يقرره باسمه ، وما يطلب من المشرفين على التعليم أن يقرروه ، وقلما يعنينى هنا أمر رسالة بعينها ، وانما يعنينى توضيح الحد الفاصل فى مسألة الحرية ، وهو حد منسى على ما نرى فى حسبان بعض المبتدئين ، بل بعض الأدباء المعدودين ! ؟

ولو لم يكن هذا الحد محتاجا الى التذكير فى مرحلتنا هذه من الحياة الفكرية ، لما رأينا رجـلا كـصديقنا الأستاذ توفيق الحكيم ينساه ، وهـو ينقـد الجامعـة المصرية لأنها رفضت تبعة تلقى عليهـا ، وليس مـن حقها أن تقبلها باسم الدولة ، وليس من مقتضى رفضها أن تحول بـين طالب من الطـلاب ، أو مـدرس من المدرسين ، وبين اعلان ما يراه بغير واسطتها اذا شاء » .

بلغ العقاد فصل الخطاب فى ايضاح الحق ، ودحض

الباطل ، وسكت الأستاذ الحكيم ، فلم يستطع الرد عليه فى شىء ! وقد أثبت كلام العقاد أن الذين ينقدون الجامعة ، ويتباكون على الحرية الفكرية ، لا يعرفون مهمة الجامعة من ناحية ، ولا يعرفون حدود الحرية الفكرية من ناحية ثانية ، فأولى بهم السكوت ! ؟

وبعد .. فتظاهر الأستاذ توفيق الحكيم بالحرص على الحرية والغيرة عليها ، وتقرير ذلك عن نفسه فى كثير مما كتب وقال ، لم يكن مما يعنينا أن نكشفه على وجهه الصحيح، ولو لم يحاول أن ينتقص من أعلام كبار ، هم فى الحقيقة أنصار الحرية الحقيقيون .

فالامام المراغى قد جاهر على رءوس الأشهاد بحياد مصر فى الحرب العالمية الثانية ، معلنا أن مصر لا ناقة لها ولا جمل فى حرب الانجليز والألمان .

وقد قامت الدنيا وقعدت ، وأبرق السفير البريطانى وأرعد ، فى وقت كان هو الحاكم الفعلى بمصر ، فلم يتراجع الشيخ الأكرم عن قوله ، وحينما اتصل به رئيس الوزراء فى منتصف الليل (حسين سرى) مذعورا من تهديد السفير ومحذرا الشيخ الأكبر من أن يعود لمثل ما قال ، ضحك الشيخ متهكما ، وقال له يا حسين نسيت

من أنت ؟ أنا أستطيع أن أقيلك بخطبة واحدة من فوق منبر الأزهر أو منبر الحسين (١) .

ولكن الأستاذ توفيق الحكيم، اعترف بنفسه أنه عاش غائب الوعى عشرين عاما ، لا يعى فظائع الطغيان والكبت والقهر ، وظل يمدح ويقرظ حتى غاب المعتدى، وأمن المؤاخذة فأصدر كتابه « عودة الوعى » لينتقد من دعا الى اقامة تمثال له ، ظانا أن من جاء بعده سيحذو حذوه، حتى اذا انكشف المستور، صاح صاحبنا: لقد عاد الوعى ، ومضى يجمع من قصاصات الصحف ما يحمل تعريضا أليما بزعيم كبير من زعماء الكرامة الأبية ، والرجولة الحقة ، ولم يسأل نفسه أين أنا منه ؟ بل أين العصا من السيف ؟

●●●

---

(١) الشيخ المراغى بأقلام الكتاب ص ١٩٥ المطبعة المنبرية .

عـالـم أزهـرى
يدعو إلى السلام العالمى

فى أوائل سنة ١٩٤٦ م بعـد أن اخـترعت القنبلة الذرية ، وكثر الحديث عن مصائبها الهائـلة ، ورأى الناس بأعينهم فظائعها الرهيبة فى اليابان ، كتب أحد رؤساء الأديان مقالا قويا تحت عنـوان : « يجب أن تختار الانسانية بين الخوف من الله ، والخوف مـن القنبلة الذرية » ، وجعل اهداءه لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله .

وكان شيخ الأزهر حينئذ ، وله من المكانة العلميـة والجلال الدينى ، والنظر الفلسفى ما يستطيع به أن يفهم مغزى المقال فهما ايجابيا يدفع الى العمل قـدر الطاقة لانقاذ البشر من هاوية الفناء المتربص ، وكان الشيخ حكيما رزينا ، فعمل على ترجمـة المقال الى العربية ، وأمر بنشره فى مجلة الأزهر ، بالمجلد السابع عشر فى الصفحات ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ١٣٤ ، ثم اجتمع بذوى البيان من أعضاء هيئة كبار العلماء بالأزهر ، ليدعوهم الى التفكير فيما كـتبه صـاحب المقال ، ولإبداء الرأى من وجهة عقلية تقنع كل قارىء مهما كان مذهبه الدينى ، ومعتقده السياسى ، وموقفه الجغرافى ، ليستطيع صوت الدين العاقل أن ينقـذ

البشرية من أعاصير الرعب وزعازع الفزع ·

وقد شاء الله أن يلقى الشيخ الأكبر ربه قبل أن يجد من كتابات الكاتبين ما يعلن وجهة نظر الأزهر ، فذهب الموضوع بذهابه ، ولكن عالما كبيرا من أعضاء جماعة كبار العلماء ، هو الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ذو الرأى الحر ، والقلم البليغ ، كان قد احتفل بالموضوع وشغل ذهنه المفكر ، فأخذ يدون خواطره فى أوراق متناثرة ، وكان موقفه من الدقة البالغة بحيث آثر التريث المتئد ، آخذا فى حسابه أنه يخاطب الناس جميعا بمنطق العقل وحده ، فلا مجال الى الاستشهاد بالنصوص الدينية التى يؤمن بها فريق دون فريق ، ولا الى عرض أحداث خاصة لا تمثل القاسم المشترك بين ذوى الافهام من أبناء البشر كافة ، حتى استطاع أن يخرج كتابه الرائع « انقاذ البشر من أن يفنوا بعضهم بعضا بالحرب الذرية » ·

وكان الظن بمفكرى العالم العربى ، فضلا عن جميع المفكرين قاطبة ، أن يعطوا للكتاب ما يستحقه من التحليل والنقد ، ولكن العجب العاجب ، أن يهمل الكتاب فى حياة صاحبه ، وبعد أن لقى ربه سعيدا بما قدم من جهاد فى شتى ميادين الاصلاح العلمى والاجتماعى ·

على حين ترى الصحف من يومية وأسبوعية وشهرية ،

حافلة بتحليل كتب معاصرة ، تنحو منحى الأستاذ ، كتبها نفر من مفكرى أوربا وأمريكا ، فلاقت استهواءا جاذبا لدى قوم منا يتلقفون كل غريب بالاحتفاء والتنويه ، ويعرضون عما يقوله علماؤهم دون أن يقرءوه !

ولعلى أرضى ضميرى الناقم ، حين اتحدث عن دعوة شيخنا الكبير الأستاذ محمد عرفة رحمه الله فى هذه السطور •

بدأ الأستاذ كتابه بالحديث عن الحياد الايجابى ، بين الكتلتين المتصارعتين ، فذكر أن الناس يلهجون به ، ويؤيدونه فى مقالات عاطفية ، وندوات خطابية ، دون أن يقيموا له فلسفة نظرية ، تجمع الأدلة المقنعة على ضرورته ، على حين نرى لكل من الشيوعية والرأسمالية فلسفتها المدعمة بالآراء والأرقام والأحداث فاذا شئنا أن نؤيد هذا الحياد ، فلابد من ارتكازه على نظر فلسفى يقف به أمام ما ينازعه من المذاهب ، وفى هذا النطاق يؤلف الأستاذ كتابه •

والحق أن ما كتبه المؤلف لا يقف عند النظر الفلسفى وحده ، لأن الفلسفة تخاطب العقل ، وتنأى عن مؤثرات العاطفة ، وكل دعوة يتوجه بها صاحبها الى الناس لابد أن تخاطب العقل والعاطفة معا ، فلو قصر المؤلف كثيرا من قرائه الذين لا يصبرون على حديثه على الاقناع

الفلسفى وحده لخسر غموض الأدلة وتشابكها ، وهكذا وفق الله الكاتب لأن يكون مفكرا ذا بيان ناصع يمتع ويستميل .

حدد الكاتب وجهته الهادفة ، حين أعلن أنه لا يتحاكم مع رؤساء الدول المتنافسة الى الدين ، إذ يرى فيهم من يجحده ويراه الهية ينخدع بها الصغار وقد شبوا عن الطوق فلا ينخدعون ، كما أنه لا يتحاكم الى الضمير، إذ يرى فى هؤلاء من يقولون إن الضمير من وحى البيئة والتربية ، وانه قد يطمئن الى الشر اذا حسنت لديه بواعثه وغاياته ، فيظن فيه الخير كل الخير ، كما أنه لا يتحاكم الى المثل العليا ، لأنها فى رأى كثرتهم مظنة التبديل والتغيير ، فما يكون رائعا جليلا فى عهد من هذه المثل ، يكون سخيفا مبتذلا فى عهد آخر .

واذا كان الكاتب لا يتحاكم الى الدين أو الضمير أو المثل العليا فانه يتحاكم الى المنفعة وحدها ! لأن الفريقين من المتصارعين يهدفان الى المنفعة العاجلة ، ويخططون لها فى كل خطواتهم ، فاذا كانت المنفعة هذه هى وسيلة الاقناع لدى الكاتب ، فلابد أن يستجيب له من ينشدونها فى كل اتجاه ! وها هو ذا يثبت لهم بالمنطق الصريح أن القنبلة الذرية ستذهب بكل ما يملكون ، فلا نفع من ورائها حين يتحطم بها الغالب والمغلوب .

وقد أعلن الأستاذ إيمانه بالانسان ، وبما يتجه اليه من جوانب الخير لو استمع الى صوت الطبيعة فى نفسه ، واستلهم الفطرة التى تهديه سواء السبيل ، ولكنه قد حاد عن الحق حين أصاخ الى صيحات باطلة ، أخذت تزين له الشر عصرا بعد عصر ، حتى نسى طبيعة الخير ، وأصبح يرى أن العدل ما تنتجه القوة ، فاذا استطاع الوحش أن يصرع ضحيته فهو عادل فى قتلها، لأن القوة قد أمكنته من فريسته الضعيفة .

لقد وجد هذا المنطق الظالم فى كل عصر ، وجد فى عهد الإغريق،واعتنقه السوفسطائيون،وبذلوا جهودهم فى تأييده بخوادع الأدلة .

ومن الحق أن نقول : إنه وجد المعارض ممثلا فى سقراط وتلاميذه ، ولكنه لم يعدم على كر الأيام مؤيديه ، لأن حب الغنائم والافتراس مما يدعو أصحابه الى التمسك بسفسطات تقدم لهم تبريرا سطحيا لما يرتكبون .

وقد جاءت الأديان لتقيم العدالة على قسطاس سوى لا يميل ، ولكن ذوى الشر قد أصموا آذانهم عن هواتف الخير ، ووجدوا من كبار الكتاب من يؤيد اتجاههم الظالم ، وكأنه يؤيد حقا لا مرية فيه .

يقول الأستاذ محمد عرفة ص ١٢٩ : « لقد اعتقد الساسة أن ما يأتون من امتلاك الشعوب ، والسيطرة

على أراضيها وثرواتها ، عدل ليس فيه ظلم ، لأن العدل هو منفعة الأقوى ، وما يفعله الأقوى فى سبيل وجوده، أو فى سبيل وجود أفضل ، فهو عدل ليس بظلم » .

وبهذا الاعتقاد كان الاستعمار بطولة لدى المستعمرين فاذا قاومت الدول الضعيفة من تريد استعمارها فقهرتها الأمة القوية بالحديد والنار فهذا حق لا عيب فيه ، ومن هنا تسابقت أمم أوربا على امتلاك أفريقيا وآسيا ، وأدى هذا الوضع الى تناحر بين القوى والضعيف ، ثم الى تناحر بين الأقوياء طمعا فى الاستلاب ، حين ترى أمة أوربية أن نصيبها أقل من نصيب جارتها ! ! لقد أصبح النزاع بين قوى متكافئة، تملك جميعها القنبلة الذرية ، وأصبح خطر الابادة متوقعا بين حين وحين ! .

فقد يرى المعسكر الشرقى أن بلاده فسيحة الأرجاء، وأن دول المعسكر الغربى ضيقة مكتظة ، فاذا تكافأ التدمير من المعسكرين ، فسيبقى للمعسكر الشرقى ما يعتمد عليه ! وقد يخطىء أحد الفريقين تقدير صاحبه، ويظن أنه سيبدأ بالهجوم ، فبادر هو الآخر الى أن يتغذى به قبل أن يأكله ، وتنفجر القنبلة فتقابل بالمثل، وقد تسقط القنبلة خطأ حين تحملها طائرة من مكان الى مكان ، فتحدث خطرا يقابل بالمثل ، ممن ظن الخطأ متعمدا ، فيحدث الفناء ، وقد ترزق إحدى الدولتين

رئيسا متشائم النظرة، سيى الرأى فى الحياة والأحياء، فيبدأ الهجوم الذرى دون نظر الى العواقب ، ويقابل صنيعه بالمثل فترجف الراجفة ، وكل ذلك يدعو الأستاذ عرفة الى أن يقول فى ص ٥٥ ٠

« ليس الحاجز بين البشر وفنائهم بالقنبلة الذرية حصينا ، بل فيه ثغرات بهذه الاحتمالات المفروضة، وأن واحدة منها لتدك العالم دكا ، وهكذا تقوم الساعة ويفنى البشر » ٠

ان العلاج الحاسم لا يكون بالوعظ وحده ، ولكنه يتغلغل فى رأى الكاتب الى البحث عما سبب هذه الآراء العدوانية ، وأصلها فى النفوس هذا التأصيل ٠

واذا كان المؤلف قد أشاد بسقراط حين واجه السوفسطائيين ، وأنكر مذهبهم فى البطش والاستعلاء، فقد كان عليه أن يأخذ على أفلاطون وأرسطو انكارهم للمساواة بين البشر ، لأن انتشار المذاهب اليونانية فى العالم الأوربى كان مدعاة البطش الظالم ، ممن يظنون أنفسهم أرقى من سواهم ٠

وقد رأت أوربا فريقا من المفكرين ينكرون حق البشرية فى الحرية الشاملة ، ويدعون الى أن يستعبد القوى الضعيف ، وقد بلغوا فى أقوامهم مكان الرئاسة العلمية والتوجيه الفكرى ، حتى صاروا أصحاب مذاهب

ذائعة فى السياسة والاجتماع ، وانتشرت آراؤهم انتشارا ساعد على الظلم والعدوان ·

وقد تعرض المؤلف الى هذه الآراء مندداً مفنداً ، فنقل ما كتبه الفيلسوف الاجتماعى (مونتسكيو) فى روح القوانين حين قال :

« اذا كان على أن أدافع عن حقنا المكتسب ، فى اتخاذ الزنوج ذوى البشرة السوداء عبيدا ، فانني أقول: ان شعوب أوربا ، وقد أفنت سكان أمريكا الأصليين، لم يكن أمامها إلا أن تستعبد شعوب أفريقيا ، لكى تستخدمها فى استصلاح أرجاء أمريكا الشاسعة ، وما شعوب افريقيا إلا جماعات سوداء البشرة ، من أخمص القدم الى قمة الرأس ، ذوو أنوف فطس ، الى درجة يكاد يكون من المستحيل أن يرثى لها ، وحاشا لله أن يكون قد أودع روحا - أو على الأخص - روحا طيبة فى جسد حلك السواد » ·

وهذا قول يهوى بمكانة صاحبه العلمية ، لو نزعت الغشاوات عن العيون ، كما يدل على تحجر انسانى يجعله صخرة صماء لا تنبض بعاطفة ما ، ومثله لا يجوز أن يكتب عن روح القوانين ، فيتصدر مقعد التحليل والتشريح ، وقد فقد نور البصيرة ، ورقة الاحساس !

واذا كانت ألمانيا قد اعتقدت مذهب القوة ، ورأت فى نفسها استعلاء شامخا ، يدفعها الى منافسة استعمارية

تجعلها ذات نفوذ سياسى واقتصادى ، يفوق نفوذ انجلترا المستعمرة الأولى ـ وقت ذاك ـ فى العالم فشنت حربين عالميتين كبيرتين ، أخذت أولاهما سبعة ملايين من النفوس ، وجاوزت الأخرى هذا العدد ، فأضافت مليونين جديدين •

اذا كانت ألمانيا كذلك ، فان اعتناق مذهب القوة الذى بشر به فلاسفتها المتكبرون ، قد كان سبب كارثتيها المتتابعتين ، فى مدى يقل عن نصف قرن ، فلولا دعاة القوة الغاشمة ، ما ظهرت النازية فى ألمانيا ، وما انتقلت عدواها الى ايطاليا ، لتظهر الفاشية مؤاخية لها فى طريق التدمير والهلاك •

لذلك تحدث المؤلف عن « نيتشة » فيلسوف النازية ، وعن دعوته الباطشة الى استئصال كل ضعيف بحيث لا يبقى إلا القوى ! ونقل عنه هذه الأقوال الآثمة :

« إن الضعفاء والعجزة يجب أن يفنوا ، فهذا أول مبدأ من مبادىء حبنا للإنسانية ، ويجب أن نعلم أن من أشد الرذائل حبنا للضعفاء والعاجزين ، إذ الخير فيما يعلى شعور القوة وارادة القوة ، والشر كل الشر فيما يصدر عن الضعف » •

وقد كانت ألمانيا أول من أوذى بهذه الآراء ، ولكنها دفعت الثمن غاليا حتى انكشفت عنها غشاوة الدجل الفوضوى الآثم ، ولو رزقت قادة حصفاء لتجنبوا

مارقها الدامية ، وأدركوا إفك هذا الداعية الأهوج ! وقد كانت حياته الخاصة التى انتهت بالجنون ما يدفع الى مراجعة أقواله : ولكنها صادفت هوى لدى من يريد استعباد الأمم ، فاستعبده هواه ، وخسر نفسه ودولته ، ولحقته لعنات اللاحقين .

ولم يبعد نيتشة عن « لينين » فى شىء ، فكلاهما يدعو الى استئصال العامة ، لينعم نفر محدود بالمال والجاه .

وقد ذكر الأستاذ محمد عرفة رسالة كتبها الزعيم الشيوعى لينين الى مكسيم جوركى الأديب الروسى يقول فيها : « ان هلاك ثلاثة أرباع العالم ليس بشىء ! وانما الشىء الهام أن يصبح الباقى شيوعيين » !

واذا كان المؤلف قد تحدث عن المعسكر الشيوعى المتربص بالعالم أجمعه ، يثير دفائنه ويبعث أحقاده ، ويجعل بأسه مسلطا على نفسه ! فان الكاتب قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال عنها : ص ٥٣ .

« ان العقيدة الشيوعية أصبحت عند معتنقيها دينا ، ففيها ما فى العقيدة الدينية من حماس واندفاع وفداء ، وقد يخطىء فهم ذلك المعسكر الغربى ، ويقيسه على نفسه ، فإذا هو يرى خصمه يقتحم المخاطر ، ولا يحسب حساب الربح والخسران ، وانما يحسب حساب الفداء والتضحية أو تقدم العقيدة » .

نقول إن الكاتب رحمه الله قد أخطأ تقدير الشيوعية حين قال انها تنزل منزلة العقيدة الدينية فى حماس معتنقيها ! لقـد كان ذلك متوهما متخيلا لـدى من يصدقون الشعارات ، ولكن التجربة الواقعيـة بعـد الحرب العالمية الثانية ، أوضحت أن الشيوعية استعمار جديد ، يؤلب الطبقات ليحتل أماكن النفوذ ، وليستنزف الثروات ، ولا يقدم للأمم المستنجدة به غـذاء أو كساء أو تمدنا ، بل يقدم السلاح المدمر بيد ، ليعتصر ثمنه بيد أخرى من دماء الضعفاء •

ولو كانت الشيوعية عقيدة ذات حماس عاطفى ، لوقف الشيوعيون جميعا فى جبهة واحدة، ولكن استبداد موسكو الدكتاتورى ، واغتصابها المادى ، قد كشفها أمام أصدقائها، فحاربها تيتو فى يوغوسلافيا، وانتفضت عليها الصين ، بحيث أصبحت تراها العـدو الأول ، وهاجمتها الأحزاب اليسارية فى أوربا ! وبذلك ظهرت موسكو فى ثوبها المستعمر ، بحيث لا تدعو الى مذهب اقتصادى إلا لتخدع به الفريسة ، حتى تقع وتصبح سهلة الازدراد !

ولعل المؤلف لم يكن يتصور هذه الفجائع حين كتب

مؤلفه ، إذ انتهى منه قبل أن تتناكر الوجوه ويفتضح الخداع ٠

على أن الأستاذ محمد عرفة كان صادق النظـرة ، صائب الفكرة حين تحدث عن خداع الشيوعية ، وفساد أسلحتها أمام التطور الاقتصادى فى المعسكر الغربى، فقال فى وعى أمين : ص ٨٤ ٠

« ان كارل ماركس لم يكن من غرضه أن يذيل الشرق من الغرب ، وانما أن يذيل الضعفاء من الأقـوياء ، والعمال من أرباب الأموال ، فآخى لهم آخية لا يقطعها المهـر الأرز ، والتقطتها روسـيا ، ونجحـت بعض النجاح ٠٠٠ ولكن الغرب بحنكته وبصره بالأمـور ، ومسايرته للزمن ، سبق فأعطى العمال ما يبتغون ، وأصبح العمال يوازنون بين العامل فى الغرب، والعامل فى روسيا ، فيجدونه فى الغرب أنعم بالا ، وأرغـد عيشا ، لأن العامل فى روسيا كان عليه أن يعمل ليلحق بالغرب فى تقدمه وثروته فبدأ مرهقا ، وأقل نصيبـا فى الحياة » ٠

ومعنى هذا أن بريق المساواة الاقتصادية لم يعـد جاذبا لقوم يجدون أنفسهم من ذوى الرفاهية ، علـى حين يرون أصحاب المذهب الشيوعى مقيدين فى آرائهم،

منخفضين عنهم فى مستواهم المعيشى ! فكيف ـ بالله ـ يفرون من السعة الى الضيق ، ولهم عيون تنظـر ، وعقول تفكر وتحكم !

وما كتبه المؤلف الكبير تحت عنوان « على من تقع التبعة » تبعة الواقعة اذا وقعت ! والدمار اذا تبـع انطلاق القنبلة الذرية الحاصـدة للأرواح والمتاجـر والمزارع ، وكل متطلبات الحياة .

أقول ان ما كتبه المؤلف فى هذا الفصل دقيق عميق، حيث يلقى بالتبعية على العلماء العباقـرة ،الـذين اكتشفوا سر القنبلة لتضر الناس لا لتنفعهـم ، وكان عليهم أن يمضوا بجهودهم العلمية الى حيث يفيـدون ويخصبون ويبرئون ، ثم على رجال السياسة ليجلبـوا لهم صيتا مدويا فى العالم دون نظر الى خراب الأمـم وفناء الشعوب ، ثم على رجال الحروب الذين أصبحوا آلات متحركة فى أيدى الساسة والمتصدرين للزعامات، عن انتفاخ متورم يحتاج الى استئصال ، ثم على الأمم الخاضعة للسادة المتصدرين بحيث أصبحوا لا يملكون الاعتراض ، بل يساقون كما تساق النعاج !

على هؤلاء الأربعة من الطوائف تقع تبعات الحرب الذرية ، وقد أفاض الكاتب الكبير فى تحـديد تبعات

هؤلاء ، بما لا يقبل الجدل من منصف ، يرى الحق فيذعن اليه فى استسلام منطقى ، إذ ليس بعـد الحق غير الضلال .

ومن الأبواب الجيدة التى تحدث عنهـا الأسـتاذ محمد عرفة ، ما كتبه عن القومية وخطرها ، فقد كان المؤلف انسانا كل الانسان فى نظرته الرحيمة، وأحكامه العادلة ، إذ أن اعتناق القومية قد جعل الدولة أنانية شرهة ، ترى النفع لها دون غيرها ، بل تجد من أسباب التفوق أن تقهر غيرها لتستولى على ثرواتها، وتستعبد أفرادهـا .

واذا كان البشر قد تطوروا فى الناحية الاجتماعيـة من الأسرة الى القبيلة الى القرية الى المدينة الى الأمة، وهى التى تتمثل فيها القومية ، فان من الواجب أن تتطور القومية الى انسانية عادلة رحيمة ، ترى الكذب والغدر والخيانة نقيصة عامة ، تشين العدو والصديق والقريب والبعيد ، لا أن يصبح الغدر مشروعا مـع دولة دون دولة ، كما نرى فى عالم السياسة اليوم ! إذ يجب أن يبقى ولاء الانسان لأخيه الانسان مهما كان من غير أبناء جنسه ولونه ، ولغته ودينه ، فانه مـع ذلك كله أخوه ، وكلكم لآدم وآدم من تراب .

وقد كان المؤلف متواضعا كل التواضع ، حين قال فى خاتمة كتابه : ص ١٢٦ ٠

« ان بعض من يقرءون كتابى هذا سيشعرون بخيبة أمل بعد قراءته ، لأنهم كانوا يقدرون شيئا يشبه المعجزة أو السحر ، ينقذ العالم قسرا من الحرب الذرية، ولكنهم رأوا مقدمات ونتائج وعللا وأسبابا ، واشارة الى العلة وموضعها ، والى الدواء الذى يزيلها ، وهذا شىء موكول الى رؤساء الدول » ٠

ونحن نقول للرجل الفاضل ، ان عليك إلا البلاغ ، ولست صاحب أداة تنفيذية حتى تجبر الناس على اتباع ما تذهب اليه ، وحسبك أن رأيت الداء فدللت عليه وحللت بواعثه ، وحددت دواءه ، وما عليك أن تلزم المريض بالدواء ! فلن يكلف الله انسانا بما لا يطيق ! وأرجو أن ألتقى مع الباحث الجليل فى مقال تال يكشف عن بعض جهاده العلمى الدءوب ٠

●●●

حـــق مشروع

فى بعض الأحيان تشعر أن عراكا قد نشب فى غـير معترك ، وأن ضجة قد افتعلت دون سبب معقـول ، فتعجب كثيرا لأناس يتناضلون فى غير ميدان، ويزداد عجبك حين ترى من هؤلاء المتناضلين من له اسمـه الرنان ، ودويه الكبير ، وكان الأولى بمن يحتل هذه المكانة المرموقة أن ينأى بنفسه عن أن يتكلم فى غـير موضوع .

لقد كتب مدرس التاريخ بالأزهر مقالا فى جـريدة يومية عن صوم رمضان ، خالف فيه الحقائق الفقهيـة المتفق عليها، ووقع المقال باسمه وبأنه مدرس فى احدى الكليات الأزهرية ، وقرأ الناس المقال فى أنحاء بعيدة وقريبة من العالم الاسلامى ، فاتصلوا بمشيخة الأزهر متسائلين عن حقيقة هذا الرأى الذى يشجع على ترك فريضة من فرائض الاسلام ، التى لا سبيل الى انكارها، فليت شعرى ماذا يكون موقف الأزهر ؟

لقد بادر علماؤه بكتابة ردود شافية على المقال ، ولكن الجريدة التى نشرت المقال ، أخذت تجمع الردود لتقتطف منها بعضا وتترك بعضا ، كما أخـــذت تنشر مقالات مغرضة لاناس يدافعون عن الكاتب ، ويبكون

على حرية الفكر ، لتصور هذا المخطىء فى صور الفقيه العالم المجدد ! حتى التبس الحق بالباطل أمام الناس ! فليت شعرى مرة ثانية ماذا يكون موقف الأزهر ؟

لقد شاءت مشيخة الأزهر أن تدعو الكاتب ليناقشه علماؤها مناقشة فقهية ، وليظهروا له فداحة خطئه ليرجع عنه صريحا فيريح ويستريح ، ولكن الكاتب أبى أن يحضر ، وقال أقوالا تسىء الى أساتذته الذين تصدروا لنقاشه ، وشجعته الصحف المغرضة على التمادى ، فأخذت تنعى على حرية الفكر ، وتصم من يريدون أن يحقوا الحق ويبطلوا الباطل بالرجعية والجمود ، فليت شعرى مرة ثالثة ماذا يكون موقف الأزهر ؟

وأغرب ما يدهشك أن الذين يبكون على حرية الفكر، يعرفون أن الكاتب مدرس تاريخ، لم يدرس من مسائل الفقه الاسلامى غير ما درسه طالب القسم الثانوى بالأزهر فقط ، فهو اذن غير عالم من علماء الفقه الاسلامى ! ولا يجوز له أن يتصدر الافتاء فى أمر لا يعلم عنه غير ما يعلم العامة فحسب .

ونحن ننكر على غير المتخصص فى الطب أن يقوم بعملية جراحية ، وننكر على غير المهندس أن يقوم بتصميم معمارى لعمارة أو جسر على النيل ، وننكر

على غير الصيدلى أن يهيىء دواء من عقاقير يجدها بين يديه ، لا نجد أحدا من العقلاء يرضى لغير الطبيب والمهندس والصيدلى أن يزاول ما لا يعرف من الأمور .

ولكننا نجد نفرا من هؤلاء العقلاء يشجعون غير المتخصص فى الفقه الإسلامى أن يهرف بما لا يعرف ، ويتجمعون لتأييده ، وكأنهم يؤيدون الحق الذى لا شبهة فيه ، وهم حين يتنادون بالحرية يجهلون مدلولها ، ولا يعرفون أنهم يخاصمونها ، حين يدعون الى الفوضى العارمة ، إذ يمارس كل انسان ما لا يحسن، ومن هؤلاء من لا يجهل حدود الحرية وضوابطها ، ولكنه يشجع المخطىء على خطئه لحاجة فى نفسه، فاذا قيل له قف عند حدك ، أنحى على علماء الأزهر باللوم والتثريب ؟

لقد كان من كبار المدافعين عن خطأ الكاتب الدكتور طه حسين ! ومثله فى ذكائه الألمعى لا يجهل أن الكاتب يتحدث فى غير مايعلم ، وأن للحرية حدودا تنتهى إليها، ولكنه كتب بجريدة الجمهورية مقالا كبيرا أعلن فيه أن صاحب الفتوى اذا كان مخطئا فلا مؤاخذة على الخطأ فوق أنه مجتهد ، والمجتهد المخطىء له أجر واحد ، والمصيب له أجران ، واستشهد بقوله تعالى « وليس

عليكم جناح فيما أخطأتم به ، ولكن ما تعمدت قلوبكم » .

كما استند الى مبدأ التيسير ورفع الحرج ، وكأنه فقيه لا أديب ، واطرد به القول فذكر أن مؤاخذة المخطئين فى آرائهم مبدأ لم يكن يعرفه المسلمون من قبل ، ولم يكونوا يأخذون به ، وأن على العلماء فى الأزهر أن يأخذوا صاحبهم بالرفق واللين ،معرضا بهم فى أمورهم أبعد الناس عنها ، ثم استعدى الحكومة كى تقف محاكمة الكاتب حذرا من الفتنة !

وقد رد على الدكتور نفر من شباب العلماء ، ففندوا ما قال تفنيدا صريحا ذا حسم ، ومن هؤلاء فضيلة الأستاذ الدكتور محمد سعاد جلال ، الذى نرجع الى مناقشته الصائبة حين قال (١) عن العنصر الأول من عناصر الدفاع ، التى تقدم بها الدكتور طه حسين :

ان الزعم بأن الخطأ على الاطلاق ليس فيه مؤاخذة غير صحيح واقعا وقانونا ، فان الناس فى الخطأ رجلان، رجل يزاول عملا مشروعا له كالفقيه المتخصص ، والطبيب المؤهل ، يفلت الصواب عن أحدهما فى بعض أمره ، ويقوم الدليل المعتبر على نفى الاهمال والتقصير ، وسوء النية عن كليهما ، فترتفع المؤاخذة

(١) مجلة الأزهر — المجلد ٢٦ ص ١١٢٦ .

عنهما قانونا وشريعة ، ولو تكلف أحد غير متخصص فأبدى رأيا أدى الى سوء العاقبة ، لاستوجب المؤاخذة حين ادعى ما لا يعرف فسبب الضرر ، ليس الخطأ على الاطلاق معفوا من جملة المؤاخذة، ولكنه خطأ المتخصص حين يجتهد فيزل عن غير عمد .

أما قول الدكتور إن المسلمين لم يسبق لهم مؤاخذة المجتهدين من المخطئين ، فقول مردود ، صاحب الفتوى الذى تحدث عن الصوم دون علم ليس مجتهدا، وليست لديه وسائل الاجتهاد ، وقد حدد علماء الأصول فى كتبهم المتداولة - ومعروف - أن الاجتهاد انما يكون من أصحابه الأصلاء فيما لا يصطدم مع نص قاطع ، أو اجماع ثابت ! وفتوى صاحبنا تصطدم بالنص ، وتعارض الاجماع ، فهى ابتداع لا اجتهاد ، وقد عزر عمر بن الخطاب من يبتدع فى أمور لا يعلمها ! فالمؤاخذة حينئذ مشروعة ، ولها سوابق مدروسة !

واذا كان الدكتور قد نصح لشيخ الأزهر أن يرفق بصاحب الفتوى ، قبل الشروع فى محاكمته ، فان الشيخ الأكبر قد فعل ذلك قبل أن يطلب محاكمته ، إذ دعا الكاتب الى النقاش فى لجنة علمية دون محاكمة، لنبين له خطؤه الذى لم يقف عند نفسه بأن تعداه الى الأزهر جميعا ، إذ وقع المقال بما يثبت انتماءه الى احدى

كلياته ! ولكن الكاتب قد اشتط ، ورمى أساتذته بأنهم كرجال الكهنوت ، وأنه لا يعترف بهم ! فماذا يـريد الدكتور من الأزهر بعد ذلك ! أيريد أن يسكت عـن اهدار فريضة نسب اليه التهاون بها ، وتساءل الناس عن صحة هذه النسبة الى الأزهر ، وأرسلوا برقيـات الاحتجاج !

هذا بعض ما ساقه الأستاذ محمد سعاد جلال، واتفق فيه مع غيره فى مقالات ذاعت ورنت ، لأن الموضوع قد شغل الناس وقتا طويلا .

أما لجنة المحاكمة الأزهرية فقد ألفت لتحق الحق ، وكانت المناقشة بمحضر رجال القضاء من وزارة العدل، لتأخذ صيغتها العادلة ، وكان مع الكاتب محاموه الذين يدافعون عنه فى مجلس النقاش ، وسنلم بخـلاصة مـا دار فى المحاكمة ، ليرى القارىء أكان الأزهر مشتطا يحارب الحرية ، أم منصفا يدعو الى الحق بعد أن تعذر عليه أن يأتى الكاتب للنقاش معه دون محاكمة ، حين استمـع لمن أغووه وصدوه ، ولا أصـدق من محضر المحاكمة الذى وقع عليـه المجتمعون من أزهريـين وحكوميين ، إذ هو الصورة المطابقة ، وعنه ننقل مـا كان (١) .

---

(١) مجلة الأزهر ــ المجلد ٢٧ ص ٦١

ان المدعى عليه لم يجادل فى أن هذا المقال قد صدر منه ويتضمن ما يلى :

١ ـ قوله : ومن هنا رخص الله فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الأذى .

٢ ـ قوله : فمن يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا ، فإن لم يجد فلا جناح عليه أن يفطر ولا يطعم .

٣ ـ يدعو الكاتب المفطرين لعذر الى المجاهرة بالافطار .

٤ ـ يضلل العامة بذكر أحاديث توهم القراء أنها أدلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر لأدنى أذى، مع أن هذه الأحاديث واردة فى السفر والجهاد فى سبيل الله .

٥ ـ أفتى المفطرين بعذر بأن عليهم الفدية ، وسكت عما يجب عليهم من القضاء ، ليوهم الناس أن القضاء غير واجب .

٦ ـ استعمل آية شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن فى غير موضعها تضليلا للناس .

٧ ـ قال ان شريعة الصوم لم تفرض إلا على من شغف به ، وقدر عليه ، ممن يؤدونه دون تبرم أو ضجر .

وهذا كله مخالف لما دل عليه الكتاب والسنة ، ولإجماع المسلمين من لدن الصحابة الى اليوم ، ومن قال به غير قائم بأمانة العلم الذى درسه ، ولا بمؤتمن على القوامة على أبناء المسلمين ، ليبصرهم فى أمر دينهم ، ويتضح ذلك من نقض ما قال بالدليل :

١ ـ قوله : ان الله رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا من الأذى ، يؤدى الى هدم ركن الصيام ، والغاء فريضته ، لأن الصوم لا ينفك عن المشقة ، فهو تكليف ذو إلزام ، وحقيقة الصوم هى حبس النفس عن مألوفها ، وذلك مما يشق عليها ، واذا كان الله قد رخص فى الافطار لمن يؤذيهم الصوم ولو قليلا ، كان كل صائم قد رخص الله له فى أن يفطر ، ومعنى ذلك أن الصوم ليس فرضا على كل مكلف ، بل هو أمر جوازى لا وجوبى ، وقد فهمت ذلك من المقال صحيفة انجليزية تصدر بالهند ، ونشرت مقالا تحت عنوان « صيام رمضان غير واجب كما يرى أستاذ مصرى » .

٢ ـ قوله : « من يشق عليه الصوم أو يضايقه فان له أن يفطر ويطعم كل يوم مسكينا ، فان لم يجد فلا جناح عليه أن يفطر » يتضمن أمرين ، الأمر الأول :

ما أفاده الاتهام السابق من أن كل من شق عليه الصوم أو ضـايقه فليس عليه أن يصوم ، والثانى : أنه جعل الواجب على من أفطر لما اعتبره عذرا أن يطعم عن كل يوم مسكينا ، وسكت عن وجوب القضاء ، والسكوت فى معرض البيان يفيد الحصر ، وهذا مخالف لما أجمع عليه الفقهاء من وجوب القضاء على كل من أفطر لعذر يرجى زواله ، ومناف لصريح قول الله « ومن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر » وكيف يعقل أن يوجب الله القضاء على المريض والمسافر مع وضوح عذرهما ، ولا يوجبه على من أفطر لعذر دون عذرهما من كل وجه ، وهو على التحقيق ليس بعذر أصلا ، وسكوته عن القول بالقضاء قد يكون جهلا للأمر الذائع ، والجاهل لا يصح له أن يفتى ، وقد يكون تلبيسا على الناس ، وهذا أفحش وأسوأ .

٣ ـ دعوته المفطرين بعذر الى المجاهرة بالافطار ، واعتبارها شجاعة ايمان ، وقوة دين ، هـذه الدعوة مخالفة لما أجمع عليه سلف الأمة من ضرورة التستر عن الناس على من يفطر بعذر صحيح ، حرصا عـلى حرمة الشهر ، واحتراما للتقاليد الدينية ، وبعدا عن مظان التهم ، فليس إذن ما يدعو اليه من المجـاهرة سنة حسنة ، ولكن بدعة وضلالة .

٤ ـ ضلل الكاتب العامة بأحاديث ساقها فى غير مساقها ، ليوهم أنها أدلة شرعية على ما ادعاه من اباحة الفطر لأدنى أداة أذى من غير أمانة فى النقل ، ولا تحر فى الحقائق مع تحريف فى الأدلة بالزيادة والحذف عن عمد مقصود ، لأن الأحاديث التى ذكرها جميعها قد وردت فى اباحة الفطر للمسافر ، وعنون لها جامعو الأحاديث بعنوان يدل على ذلك ، وتطبيق هذا على الذين يؤذيهم الصوم ولو أقل أذى تلبيس على القراء .

هذا ـ الكاتب مثلا ـ ذكر حديث أنس رضى الله عنه هكذا « وعن أنس رضى الله عنه قال : كنا مع النبى ﷺ فمنا الصائم ومنا المفطر ، فلا الصائم يعيب المفطر ، ولا المفطر يعيب الصائم ، ومن قرأ هذا الحديث بهذا السياق يفهم منه أن المقيم فى بلده لو أفطر ولو من غير عذر لم يكن فى فعله ما يعاب به .

مع أن الحديث فى صحيح البخارى هكذا « عن أنس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى ﷺ ، فلم يعب الصائم على المفطر ، ولا المفطر على الصائم » .

والحديث فى صحيح مسلم هكذا « سئل أنس عن صوم رمضان فى السفر فقال : سافرنا مع رسول الله فى

رمضان فلم يعب الصـائم على المفطر ولا المفطر على الصائم » ٠

والحديث فى تيسير الوصول بهذا النص « عن أنس رضى الله عنه ، كنا نسافر مع النبى ﷺ فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فلا الصائم يعيب على المفطر ، ولا المفطر يعيب على الصائم » فحذف كلمة « نسافر » وهى موضع الاستنباط من الحديث ، دليل على قصد الاتهـــام والتدليس ٠

واستشهد التقرير بنص آخر من الحديث النبوى ، تصرف فيه الكاتب بما يوجب الابهام وذلك غـير سبيل الباحثين ، ولا نطيل بذكره ٠

٥ ـ أفتى المفطرين بعذر بأن الذى عليهم هو الفدية ، وسكت عن وجوب القضاء ، وذلك منابذ لصريح النص القرآنى ٠

٦ ـ استشهد الكاتب بالآية الكريمة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » استشهادا يدل على أنه لا يعرف مدلولات الألفاظ ، ولا طرق استنباط الأحكام ، إذ ليس بها بيان لحكمة مشروعية الصوم من قريب أو بعيد ، وهـــو يسوقها لذلك ، وانما هى تتضمن أمورا ، هى الاخبار

بأن القرآن نزل فى شهر رمضان ، وإيجاب الصوم على من شهده ، وإباحة الفطر لمن كان مريضا أو على سفر مع إيجاب القضاء عليه ، وحكمة جواز الافطار للمريض والمسافر ، فكيف يفهم من النص الواضح غير ما ينطق به فى جلاء .

٧ ـ قال الكاتب : ان الصوم لم يفرض إلا علـى الشغوف (١) به ، القادر عليه ، الذى يؤديه بدون برم أو ضجر ! ومعنى ذلك أن من لم يستوف هذه الشروط الثلاثة فلا يجب عليه الصوم ، واجماع المسلمين منعقد على أن الصوم واجب على المسلم المستطيع ، برم بـه أو لم يبرم ، ضجر أو لم يضجر ، شغف أم لم يشغف ، لصريح قوله عز وجل :

« فمن شهد منكم الشهر فليصمه » ثم ان هذا القول مناقض لقوله فى أول كلامه ، ان الغرض من الصوم هو تعويد النفس الصبر على المكاره ، وقوة الاحتمال فى النوازل ، فأين إذن الصبر وقوة الاحتمال بعـد أن أباح الكاتب الافطار لمن يحس القليل من الأذى ؟

أما التمسك بقاعدة التيسير ورفع الحرج مما أشار اليه الكاتب ، وألمح اليه الدكتور طه حسين أيضا ـ فقد بين الفقهاء مواضع التيسير ورفع الحرج بما لا يتطرق

(١) هذا ما جاء بالتقرير ، والأفصح المشغوف .

اليه الاحتمال ، وقد وضح التقرير معنى الحرج والتيسير بما يشفى الغليل ، وبما نطيل كثيرا لو استوعبناه هنا ، وقد شغل صفحات هامة من مجلة الأزهر هى (٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠) من المجلد السابع والعشرين ، فمن أراد الاستقصاء المتتبع المستوعب فقد عرف المصدر الذى أنقل عنه ليجد ما يشبع من الدليل .

ثم ذكر التقرير فى خاتمته ، أن الكاتب لو سلك مسلك الباحثين فى الاجتهاد ، أو ترك قولا وأخذ يقول ولو كان مرجوحا لاعتبر ذا رأى علمى ، ولكنه سار على غير هدى ، وخالف النصوص الصريحة ، والأقوال المجمع عليها ، دون استناد ما .

وحرية الرأى التى يدعيها ويتشدق بها من أيدوه ، توجب عليه أن ينزل عند رأى الجهة الادارية التى يتبعها ، فيحضر أمام لجنة التحقيق ، التى شكلت لمناقشته ، كى يقرع الحجة بالحجة ، ويناهض الدليل بالدليل ، باسطا وجهة نظره فى جلاء ، ولكنه أبى ذلك، وأصر على موقفه فى الامتناع .

ثم قرر مجلس المحاكمة حضوريا بعد ما تقدم بأن يبتعد بالكاتب عن وظيفة التدريس الى وظيفة أخرى، كيلا ينقل عدواه الى الطلاب !

فاذا أراد القارىء رأيا صريحا فى مجاكمة الكاتب، وقرار المجلس ، فاننا ننقل له رأى محاميه الذى تولى الدفاع عنه أمام المجلس ، ليعلم الناس جميعا كيف دار النقاش فى حرية وأمانة ونزاهة ، وكيف اعترف بذلك محامى الكاتب ، وهو الأستاذ على أيوب وزير المعارف الأسبق ، إذ كتب عقب المحاكمة مقالا بجريدة الأخبار، قال فيه (١) :

« لم أجد أنا وزملائى المحامون من الشيوخ الأجلاء، وأعضاء مجلس التأديب تجهما أو انقباضا ، وكانت ابتسامات التشجيع وايماءات الرضا تطالعنا منهم دائما ، وكان حسن الاستماع مع الحلم والأناة يهون على الدفاع من دقة الموقف وثقل العبء !

وقد اشترك فى ادارة المناقشة ، الأستاذ زكى شرف وكيل وزارة العدل ، وأحد أعضاء المجلس ، فأعاد لنا ذكرى مجالسه بالقضاء ، حيث يتجلى ما يزدان به هذا القاضى من نفاذ البصيرة ، وأصالة الرأى ، وصفاء الذهن ، واشترك الأعضاء الآخرون فى المناقشة ، فلم نجد فى أحد منهم تعنتا أو صلفا أو خشونة ، وتبدت منهم رغبة صادقة فى اقامة العدل واحقاق الحق .

---

(١) اعادت مجلة الازهر نشر المقال بالمجلد ٢٧ ص ٧٢ تحت عنوان (شهادة) .

وقد أسفت للسرية التى فرضها النظام على مثل هذه المحاكمات ، فليت الكاتب حوكم علنا ، وعلى مشهد من الناس ، اذن لتبين للجمهور أن أعضاء المجلس لم يكونوا قضاة تفتيش ، ولم يكونوا ممن يكرهون حرية الرأى أو يضيقون بها ، أو ممن يزعجهم الرأى الطليق من كل قيد ، كما أن المجلس لم ينعقد ليصدر قرارا مبيتا ، أو حكما مفروضا صدرت به الأوامر من قبل .

وقد يكون مجلس التأديب أخطأ أو أصاب ، فهذا أمر لم يقل فيه القضاء الادارى كلمته بعد ، وحسب السادة أعضاء المجلس أنهم استهدفوا الحق ، ولا شىء غير الحق ، وبذلوا فى سبيله غاية الجهد ، فلهم أجرهم عند الله وهو نعم الأجر .

هذا بعض ما قاله الأستاذ على أيوب ، وهو محامى الكاتب الذى تقدم بدفوع شكلية وفرعية ، رفضها مجلس التأديب بالدليل الملزم ! أتكون شهادته تلك كافية لإسكات من يوعون أن حرية الفكر قد وئدت فى الأزهر ، بحيث لا يجد أزهرى منفذا لقول جرىء ! ولا أدرى لم تكون الجرأة عندهم محمودة اذا صادمت الحق الصريح !

ما لم يكتب من تاريخ الأزهر

هل تعلمت المرأة فى الأزهر القديم

قال الأديب الكبير الأستاذ عبد العزيز البشرى فى مقدمة مقال له عن النقد الأدبى :

« لا أزعم أنى استويت اليوم الى مكتبى ، وهـــذا الموضوع الذى أتقدم للحـديث فيه واضـح المعانى فى رأسى ، مجتمع الأقطار والحدود ، وإنما هى خواطر تتطاير من هنا وهناك فى هذا الباب ، وسأحاول بجهدى نظمها ، فاذا اتسق منها موضوع واضـح الشخص ، مستوى المعارف ، وإلا فليأخذها القارىء على أنهــا خواطر تثار » .

هذا ما قاله الأستاذ البشرى قديما ، وأذكر أنى قلت فى نفسى حين قرأته لأول مرة : ما بال الكاتب يقدم على موضوع يصرح بأنه ليس واضح المعالم فى رأسه ، وانما هو خواطر تتطاير من هنا وهناك ! أما كان الأولى أن يتريث فى الكتابة حتى يتضح الموضوع بعناصره وأدلته كل الوضوح ؟ قلت ذلك فى نفسى قديما أنتقد الرجل ،

ثم بدا لى من بعد أنه على حق أكيد ، فقد تكون لدى الكاتب بعض أفكار لم تجد ترابطها الدقيق، وإنما هى أفكار « نثار » ، ومن الخير أن يقدمها للباحثين ، فقد تجد من يضيف اليها الجديد فيستقيم البحث على سننه الصحيح ، وتملأ الفجوات على يد كاتب آخر ، أما اذا أهملت دون قيد فستضيع مع الأيام ويضيع معها حق أكيـد •

وموضوع تعليم المرأة فى الأزهر القديم يجد لـدى بعض الحقائق الواضحة ، وقد انتظرت من يخصــه بالحديث أمداً طويلا ، فلم أجد من قائل ، لا سيما حين أقيم الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، وكثرت البحوث عن تاريخه ، واستفاضت المجلات والكتب الخاصة فى نشر ما يقال بهذه المناسبة ، وقد بحثت عن نصيب المرأة الأزهرية فيما كتب ، فلم أجد إلا إشارات الى ما افتتح من المعاهد والكليات بعد ما يعرف بقانون التطوير ، إذ أنشئت فى ظله معاهد الفتيات وكـليات الدراسة الخاصة بالبنات ، أما تعليم المرأة فى الأزهر القديم ، فلم يقل عنه سطر واحد ، فليت شعرى لمـاذا سكت الدارسون عنه ، أيكون ما لـدى من الحقـائق الثابتة غير مشتهر معلوم ، واذا كان الأمر كذلك ، فمن واجبى أن أذيع •

الخيـــط الأول

ان ما لدى من الحقائق بهذا الصدد ، قد توالى على أبعاد مترامية ، ومن هذه الحقائق ما جاء عن طريق الاستنتاج العقلى ، وما جاء عن طريق النص الصريح، وسأبدأ بتصوير ما توارد على ذهنى من الخواطـر ، العلمية منذ بدأت هذه الخواطر تجد تيارها فى نفسى، إذ كان المبدأ الأول لهذه الخواطر أنى كنت أقرأ ما كتبه (جلال الدين السيوطى) عن تاريخه العلمى فى خاتمة كتابه (بغية الوعاة) فوجدته ينص على أنه قرأ على سيدات من العالمات المتخصصات فى الدراسة الدينية ، منهن :

الســيدة الأصيلة الثقة الخـيرة الكاتبة ـ كما قال المؤلف ـ أم هانىء بنت الحسن الهورينى ، ومنهــن السيدات الفضيليات : هاجر بنت محمد ، وأم الفضل المقدسية ، ونشوان بنت عبد الله، وكمالية بنت أبىبكر ، وأمة الخالق بنت العقبى، وفاطمة بنت على الفسطاطية، وأمة العزيز بنت محمد ، وخديجـة بنت الحسن بن الملقن ، وغيرهن وغيرهن من الفضليات .

فاذا كان السيوطى العالم الأزهرى قـد وجد مــن أساتذته أكثر من عشر سيدات عالمات ! واذا كان الأزهر

منار الحركة العلمية فى آخر عصر المماليك الذى ائتلق فيه كوكب السيوطى ، فأين تعلم هؤلاء الفضليات ممن قرأ عليهن عالم كبير كان صدر العلماء فى زمانه ؟

ان المدارس العلمية كانت تجاور الأزهر إذ ذاك ، ولكن أساتذة هذه المدارس هم الأزهريون ، وطريقتهم طريقة المعهد التليد ! فاذا فرض أن بعض هؤلاء قد تعلمن فى هذه المدارس ، فهن من طالبات الأزهر عن يقين .

وقد كان الطلاب على عهد الأستاذ الامام محمد عبده يتركون الأزهر الى حلقات تقام فى مسجد أبى الدهب، ومسجد الملك المؤيد ، وساحة القبة الغورية ، لضيق المسجد الجامع حينئذ ، والقائمون بالدراسة أزهريون، والمتعلمون أزهريون ! فعلى افتراض أن مدرسات الجلال السيوطى لم يتعلمن كلهن فى الأزهر ، فاليقين كل اليقين أنهن تعلمن فى المدارس التابعة له ! أو المتشبهة به ، وعلى أيدى علماء من الأزهريين !

فاذا تركنا السيوطى الى معاصره الكبير (السخاوى) فاننا نجده يخص السيدات العالمات فى زمانه بجزء أخير من كتابه (الضوء اللامع) وتخصيص جزء من الضوء للسيدات يدل على أن أكثرهن قد برزن فى

الميدان العلمى ؟ فأين تعلم هؤلاء ، ومن أساتذتهن ؟ واذا كانت الدراسة الدينية وحدها هى العامة فى عصر السيوطى والسخاوى ، فأساتذة هذه الدراسة هم الأزهريون !

الخيط الثانى

ظللت أفكر فيما كتبه العالمان الكبيران ردحاً من الدهر ، وأنا أعرف أنى أستنتج استنتاجا له شواهده الدالة ، وأماراته الصريحة وليس له نصه الجازم الحاسم ، حتى وقع فى يدى العدد (٣٩٥) من مجلة (الرسالة) الصادرة بتاريخ ١٩٤١/١/٢٧ وفيه نبذة تحت عنوان (فتيات فى الأزهر) يقول كاتبها الفاضل ما نصه :

« ذكر المستشرق الانجليزى (مستر دون) فى كتابه (الحياة الفكرية والتعليمية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر) ما خلاصته : أن الحملة الفرنسية أثناء قدومها الى مصر ، وجدت فى صحن الأزهر بضع نساء يتعلمن الى جانب الشبان ، ويتفقهن فى الدين ، وكانت هناك عالمة ضريرة يلتف الشبان حولها ، ويتلقون الدروس عنها ، كما أنه كان فى معهد طنطا الدينى جماعة من الفتيات يحضرون الدروس الدينية ، ويستمعن الى التفسير والحديث » .

فماذا يرى الدارس فى هــذا النص ؟ انه اعــتراف صريح بتعليم الفتيات بالأزهــر ، على عهــد الحملة الفرنسية ، يؤيده ما ذكره الأستاذ محمود أبو العون فى مقال له بمجلة الهلال (سنعرض له فيما بعد) حيث قال رحمه الله (الهلال نوفمبر سنة ١٩٣٤ ص ٩٧) : إن النساء كن يتلقين العلم بالأزهر الى عهد غير بعيد، وكان من شيوخهن الأساتذة :

القويسنى ، والسقا ، والصعيــدى ، والعــدوى ، والخضرى ، وهؤلاء جميعا من مشهورى العلماء الكبار، ومنهم من شهد خاتمة العهد العثمانى ، ومن أدرك الحملة الفرنسية ٠

كما ذكر أبو العيون أن الشاعرة الشهيرة عائشــة التيمورية كانت تحضر العلوم اللغوية والشرعية، على أيدى عالمات حضرن فى الأزهر ، منهن السيدة فاطمة الأزهرية ، والسيدة سنية الطبلاوية، وقد درست عليهما جانبا من النحو والعروض ٠

مرة ثانية أقول : ماذا يرى الدارس فى هذا النص ؟ أليس فيه ذكــر لأسماء الأئمة الأعــلام ممن درســوا للسيدات ، ومنهم من عاصر الحملة الفرنسية التى ذكر عن أيامها المستشرق الانجليزى ما يفيد تعليم الفتيات

بالأزهر ، فجاء قول أبى العيون تأكيدا له : ثم من هذه التى كانت أستاذة عائشة التيمورية فى النحو والعروض إن لم تكن أزهرية تعلمت من أزهريين !

الخيــط الثالث

أما الخيط الثالث فهو أقوى الخيوط ، وأثبتها دلالة ، وأرسخها برهانا ، إذ أثبت بالوقائع الملموسة ، أن المرأة تقدمت لامتحان العالمية بالأزهر ! وهى أرقى شهادات الأزهر العلمية ، فى زمن كان لهذا الامتحان روعته المخيفة لدى الرجال ! وفيهم من يقضى عشرين عاما دون أن يجرؤ على التقدم اليه ، إذ كان الممتحنون من كبار العلماء ، ولهم فى الأسئلة الدققة مغاص عميق ، حيث لا يقفون عند دائرة خاصة ، بل يكون السؤال الواحد مزيجا من علوم شتى ، فهو يتضمن الفقه والأصول ، واللغة والنحو والبلاغة فى وقت واحد ، يقول الأستاذ محمود أبو العيون بمجلة الهلال الصادرة فى نوفمبر سنة ١٩٣٤ من مقال مستفيض :

« كانت لجنة امتحان العالمية تطوف على المعاهد الملحقة بالأزهر لامتحان طلبة الشهادة فيها ، فسافرت اللجنة من علماء الأزهر الى معهد طنطا سنة ١٩١١ لامتحان طلبته ، وتقدمت الشيخة فاطمة العوضية للامتحان ، وكان موضوع درسها فى علم الأصول

(لا تكليف إلا بفعل) من كتاب (جمع الجوامع) وهو باب عويص ثقيل وفيه إشكالات وتعاقيد ، وقليل من النابهين من يحذفه أو يجوزه بسلام .

وما إن أخذت الشيخة فاطمة العوضية مقعدها من اللجنة حتى أمطرها أعضاؤها وابلا من الأسئلة المعقدة فى الباب المعين لها ، وناهيك بامتحان الأزهر فى القديم فقد كان مرهقا حقا ، وكان السبيل فى نجاح الطالب أن يكون ملماً بما كتب فى الحواشى والتقارير ، وأن يكون قادرا على الجمع بين الآراء والخلافات، وتصحيح المسائل المختلفة بلباقة وحصافة ، وأن يؤيد المذاهب المختلفة بالأدلة والبراهين الواردة عن العلماء المعروفين ، والعبرة فى ذلك كله بعمق الفهم ، والقدرة على الترجيح ، لا بكثرة الحفظ ، ونقل الأقوال والمسائل .

جعلت الشيخة فاطمة العوضية تجيب عن أسئلة اللجنة ، واللجنة تهاجمها بمعضلات المسائل ، ولقد سألها فضيلة الأستاذ الشيخ دسوقى العربى ـ أطال الله عمره ـ مغالطا : هل الاسم والحرف يكلف بهما كالفعل، فأجابت : دا شىء ودا شىء ! أى أن الفعل هنا فعل المكلف المخاطب بالأحكام وهو غير الفعل قسيم الحرف والاسم . فأعجب أعضاء اللجنة بهذا الجواب الظريف».

مرة ثالثة أقول : ماذا يرى الدارس فى هذا النص، ان الطالبة فاطمة العوضية تقدمت لامتحان الشـهادة العالمية سنة ١٩١١ م ، وقانون العالمية حينئذ لا يجيز الامتحان إلا لمن قضى اثنتى عشرة سنة فأكثر بالأزهر! أى أن الطالبة حضرت اثنى عشر عاما على الأقل ، ودون ذلك فى أوراق رسمية أجـازت لهـا أن تلتحق بالامتحان عن يقين ، كما أن العلوم التى كانت موضع الامتحان (بنص قانون لسنة ١٣١٤ هـ المعمول بـه حينئذ) هى علوم التوحيد والأخلاق والفقه والأصول والتفسير والحديث والبلاغة والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية !

وتحصيل هذه العلوم يتطلب المواظبة على الحضور والنقاش ، وقد ذكر أبو العيـون أن الشيـخ دسوقى العربى كان رأس الممتحنين ، وله شهرة مدوية فى هذا المضمار ، جعلت اسمه مصدر رعب لدى من يتخلفون عن الامتحان عامدين ! وقد كان الشيخ حياً عند كتابة هذا المقال سنة ١٩٣٤ ، كما كان عضوا فى هيئة كـبار العلماء ، والاستشهاد به ليس موضـع شك ، إذ لـو توهم واهم أن الامتحان غير جدى ! ما سكت الشـيخ عن إيضاح ذلك وقد استشهد به ، وذكر أبو العيـــون بعض أسئلته التى وجهها على سبيل المغالطة ! فالأمر من الوضوح بحيث يغنى عن التعقيب .

والذى تدل عليه الشواهد أن الطالبة فاطمة العوضية ليست وحدها دون زميلات فى مجال الطلب بالمعهد الأحمدى ، إذ لا يعقل أن تستمر أكثر من اثنتى عشرة سنة دون من يزاملنها فى تلقى العلم ، وإلا كانت نشازا بين الأزهريين ، فتصبح موضع الاعتراض فى زمن يلتزم الدقة والتشديد .

الخيط الرابع

كنت طالبا بمعهد التربية العالى بالاسكندرية سنة ١٩٤٩ ، وقد سكنت فى منزل بحى باكوس مع بعض الطلاب ، وكانت صاحبة المنزل ذات دراية بالمسائل العلمية المتواضعة ، إذ جعلت تتباهى ببعض محفوظاتها من متون الألفية والرحبية وتحفة الأطفال، وهى متون أزهرية كانت ولا زالت موضع الشرح والدراسة فى حجرات الأزهر ، وقد سألتها عن اتجاهها العلمى ، فذكرت أن والدتها عالمة أزهرية ، كانت تتلقى العلم بمسجد (الشيخ) بالاسكندرية ؟ مع زميلات اسكندريات !

فأخذت أسأل عن هذا المسجد ، فعلمت أنه النواة الأولى للمعهد الدينى بالاسكندرية، وقد كان فى أخريات القرن الماضى (التاسع عشر) وأوائل هذا القرن

حافلا بالعلم والعلماء ، ومن طلابه حينئذ الأساتذة : أحمد الاسكندرى ، وأحمد العوامرى ، وعبد الفتاح شريف ، وحسن منصور ، وعبد الله النديم ، وغيرهم من رءوس العلم فى مصر !

كما كان من بين طلابه النابهين : حمزة فتح الله ، وعبد العزيز جاويش ، وسلامة حجازى ، وكان حديث السيدة عن والدتها العالمة موضع شك لدى ، ولكنى بعد قراءة مقال أبى العيون بالهلال اطمأننت الى أن فروع الأزهر بالأقاليم كانت تضم السيدات ، بل حفلت بمن يتقدمن الى نيل أرقى شهادات الأزهر دون اعتراض.

تعليم المرأة

وقبل إنشاء الأزهر ، كانت المرأة المسلمة ذات نصيب من الثقافة المتشبعة ، ففى مصر كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها ذات حلقة علمية ، يحضرها علماء العصر وفقهاؤه ، وقد سعد بلقائها الامام الشافعى بمصر ، وسمع عنها الحديث ، وفى غير مصر كنت شهدة الكاتبة راوية عالمة تتلمذ عليها أبو الفرج ابن الجوزى، وروى عنها كثيرا من الآثار ، والمحدثات من روايات السنة النبوية كثيرات ، كتب تاريخهن ابن حجر فى الاصابة، وابن سعد فى الطبقات ، كما ذكر الامام مسلم أنه روى

الحديث عن سبعين سيدة فى عصره ، أما علاء الـدين السمرقندى أشهر علماء سمرقند ، فقد كانت فتـــواه الدينية تصدر فيه الى الأمصار النائية ، ومعها توقيعه وتوقيع ابنته العالمة الشهيرة فاطمة العلائية ، فهـــل يستغرب إذن أن يـكون الأزهر حافـلا بالعـــالمات الفاضلات ، إنما المستغرب أن يسكت مؤرخوه عن أنباء السيدات من تلميذاته ، ولى أمل أن يقوم بعض أساتذة التاريخ الاسلامى بالأزهر بدراسة مستأنية فى هـــذا المجال ، وأن يهتم بذلك صديقاى الباحثان الفاضلان الدكتور محمد السعدى فرهود رئيس جامعة الأزهر ، والدكتور عبد اللطيف خليف رئيس الجامعة ليكمـل تاريخ هذا المعهد الجليل على وجهه الصحح .

الأزهــر والـدراسات الفلسفية

أعلن المسئولون عن الاحتفال بالعيد الألفى للأزهر ، فتأهبت الأقلام للحديث عن تاريخه الحافل ، وعمل مجمع البحوث الاسلامية بالأزهر على إقامة مؤتمـر علمى يجمع صفوة المفكرين فى الشرق والغرب ، بهذه المناسبة الرائعة ، وظهـرت المقالات فى شتى الصحف والمجلات تتناول شئون هذه الجامعة الاسلامية العريقة بالبحث والدراسة والتحليل ، ودارت ندوات إذاعيـة تضم رءوسا مشتهرة ، مسهبة فى تعداد مآثر الأزهــر

الشريف ، وقــد استمعت الى ندوة ممتازة فى بعض الاذاعات الأوربية ، تحدث متكلموها عن شئون الأزهر العلمية بإفاضة وإشباع ، وكانوا على درجة من التمكن والإلمام والإنصاف تتيح لهم أن يصدروا الرأى المستقل النزيه فى حيدة ووثوق ولكن اتفاقهم دون معــارض على أن الأزهــر الحديث يجافى الدراسات الفلسفيــة دعانى أن أظهر ما أراه فى هذا النطــاق ، لأن الحق الجهير أظهر من أن يكتم ولو قال هؤلاء الفضلاء ان الأزهر القديم كان يجافى هذه الدراسات ، لكان لهم بعض الشبهة فى اتجاههم ، لأن الأزهر القديم قد اشتهر بين الناس بمجافاة هذه الدراسات شهرة لا تخلو من خطأ ، فالأزهر الفاطمى كانت له فلسفته الباطنية ذات الرمز والوحى والغموض والتأويل ، والأزهر المملوكى كان يدرس المنطق والأخلاق وعلم الكلام ، وهى علوم تمت الى الفلسفة دون حجاز ، وله مؤلفات فى المنطق والبعث وقضايا الألوهية تناقش شبهات المعارضين ، أما الأزهر الحديث فكلياته شاهدة بدراســة فــروع الفلسفة فى شتى اتجاهاتها ، بل إن الفلسفة المــادية تجد موضعها من الدراسة الأزهــرية توضيحــا وردا وتقيدا بالأدلة الملزمة ومؤلفات المتخصصين من أساتذة الأزهر فى هذا المجال صارت موضع الذيوع والاشتهار، مما سيتضح بعد حين .

تقسيم ثـلاثى

حين أخرجت الدراسات العليا بكـلية أصول الدين نفرا من حاملى الدكتوراة الفلسفية اختار الامام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى أعلام العقول الفلسفية فى الجامعة المصرية لرئاسة المناقشات العلمية ، فـكان أحمـد لـطفى السيـد ، ومنصور فهمى ، ومصـطفى عبد الرازق ، فى طليعة رؤساء هذه اللجان العلميـة ، وقد رأس أحمد لطفى السيد ست لجان علمية تناقش الفلسفة الإغريقية والفلسفة المعـاصرة بإزاء الفلسفـة الاسلامية فى تحرر ، وكان آخر رسالة قام على مناقشتها تبحث عن (الإله عند أرسطو) ، ومما سجله كـتاب (المنتخبات) لأحمـد لطفى السيد فصـل قيم تحت عنوان (الفلسفة فى الأزهر) يسجل أحـداث هــذه المناقشات فى إيجاز ويقول فى مباهاة : إننا اليوم فى الأزهر الشريف نتكلم عن إله أرسطو وهو فـكرة لـم يـخلق شيئا ، ولم يعلم شيئا أهلا لذاته ، فهو يـجهل هذا العالم ، وما فيه حتى دوران الكواكب ، ومعنى ذلـك أن الأزهر قد اتسع لأدق المناقشات الفلسفية ، ثـم قال الأستاذ : ان الأزهر الحديث قد انتقل ثلاث نقـلات ، نقلة فى عصر جمال الدين ونقلة فى عصر محمـد عبده ونقلة فى عصر المراغى ، ومضى يتحدث عن طبيعة كل نقلة بما يثبت التطور الفلسفى فى الاتجاه الأزهـرى ،

وسأحاول الآن أن أسلط الضوء على ما أوجزه الرجل الكبير .

نقلة أم نقلتان

جعل الأستاذ لطفى السيد عصر جمال الدين مختلفا عن عصر محمد عبده ، وذكر أن عصر جمال الدين الفلسفى بذر بذور التسامح فى النظر العقلى ولكنها كانت بذورا لم تنتج ، أما عصر محمد عبده فنقلة أخرى أنتجت بعض الإنتاج العلمى، وأنا أرى أن المدة القصيرة لا تحتمل أن تكون عصرين ، بل الأولى أن يكون العصر واحدا بمقدماته ونتائجه ، ونحن نعلم أن صفوة طلاب الأزهر كانوا من تلاميذ جمال الدين الأفغانى ، وفى طليعتهم محمد عبده وسعد زغلول ، وابراهيم الهلباوى ، وابراهيم اللقانى ، كما نعلم أن جمال الدين كان يدرس لهؤلاء المتعطشين كتاب الزوراء للدوانى، وشرح القطب على الشمسية والإشارات ، وحكمة الإشراق ، وهى كتب - كما يقول الدكتور أحمد أمين - تصور الفلسفة فى منهج العصور الوسطى ، وأحب أن أقول إن جمال الدين على فضله الضخم لم يبدأ من فراغ لأن بعض الإجازات العلمية التى ذكرها الجبرتى لبعض شيوخ الأزهر كانت تضم ما يفيد دراسات المنطق والتصوف والفلسفة كما أن الشيخ حسن الطويل كان

يدرس الفلسفة للطلاب من قبل جمال الدين ومن بعده، فإذا كان الأفغانى قد اهتـــم بتوجيه الأزهريين الى الدراسات الفلسفية ، فقد زامله الشـيخ الطويل ، ولا نريد أن نعقد مقارنة بين الرجلين ، لأن شـعلة الحرية التى رفعهـــا المصـلح الأفغـانى الـــكبير فى أكـثر ممالك الإسلام قد جعلت منزلته العظمى رفيعة فى طليعة أعلام العصر ، على حين قد اقتصر الطويل على طلابه فى صحن الأزهر ودار العلوم ، وبين جدران منـــزله ، وقد استمع محمد عبده الى الطويل كمـــا استمع الى جمـــال الدين .

والنقلة التى يعتبرها لطفى السيد ثانية ، ونعـدها متصلة مكملة ، هى جهود الإمام فى البحث الفلسفى ، وقد كان محمد عبده فيلسوفا فى خلقه وسلوكه ، قبـل أن يكون فيلسوفا فى كتبه ومؤلفاته ، والاعتصام بالخلق الفلسفى فى مسلك الفيلسـوف ينبىء عن أن الســـمو الفلسفى طبع غريزى لديه ، لا يتكلفه فى كظم غيظ ، أو تسامح مع عدو فلا يكون الفيلسوف مثلا أعلى إذن إلا إذا كان فى سلام نفسى بين وجدانه وتفكيره فيخلو من الصراع المتأزم بين رغبـــات النفس ، وتراقى النظر السديد ، ومؤرخو الإمام يذكرون مؤلفـــاته الفلسفية فيما كتب من تعليقات على العقائد العضدية ، ومـــا ذكره عن فلسفة ابن رشـــد ، وفى هوامش البصـــائر

النصيرية ، وما اتجه به الى بعض أراء المعتزلة فى قضايا المسئولية الإنسانية ، ولا شك أن دراسة هذا الاتجاه الفلسفى فى تفكير الإمام تحتاج الى تكملة تؤخذ من آرائه الاجتماعية وشرحه الدقيق لكلام الله فى دروس التفسير ، لأن المنهج الفلسفى كل لا يتجزأ ، بل إن حركة الإصلاح الدينى والاجتماعى لا تجد تقويمها فى جهود الإمام دون أن تقرن بنظرته الفلسفية العامة ، وهذا ما قام به النابهون من دارسى فكر الإمام كعباس محمود العقاد ومحمد البهى وعثمان أمين دون محاباة ترجح به شططا ، بل الانصاف الدقيق كان خير ميزان فى يد هؤلاء إذ فى مجافاة هذا الانصاف ، خروج على الطابع الفلسفى للأستاذ الإمام .

نقلة الإمام المراغى

كان الإصلاح الأزهرى الذى تم على يد الإمام محمد مصطفى المراغى أروع خطوة عملية ، أعقبت جهود الدعاة الى التوثب العلمى ، لأن أفكار الإمام محمد عبده قد أئتلقت فى ذهن تلميذه المراغى ائتلاقا صارت به شغله الشاغل ، وتاريخ المراغى لم يكتب بعد على وجهه الصحيح ، ليعلم أبناء اليوم عن رجل الأمس ما قدم من ثمار ناضجة فى حقل التعليم الدينى ، ويهمنا أن نسجل أن دراسة المنطق والفلسفة وآداب البحث

والمناظرة وعلم النفس وعلم الأخلاق ، قد حدد لهـــا المنهج الواضح على ضوء البرنامج الذى ارتضاه الشيخ ، واذا كانت كليتا اللغة العربية والشريعة الإسلامية قد ظفرتا بحظ من دراسة العـلوم الفلسفية ، فإن كليـــة أصول الدين كانت أماً ولودا لهذه الدراسات ، إذ درست بها الفسفة القديمة والفلسفة الحديثة دراسة مستوعبة ، تشهد لها مؤلفات أســـاتذتها المجتهدين من أمثـــال الدكاترة محمد البهى ومحمد غلاب ومحمود حب الله ومحمد يوسف موسى وعبد الحـليم محمود ، وكـلهم أزهريون تخصصوا فى الدراســـات الفلسفية فى أرقى جامعات أوربا ولم يقتصروا على منحى واحد ، بل كان منهم من استقى من انجلترا ، ومن نهل من فرنسا ومن درس فى ألمانيا ، ونطيل القول لو استقصينا الأسمـاء الجهيرة زملاء هؤلاء الأفذاذ ، ولتلاميذهم ممن نهجوا نهجهم الفلسفى ، وقد آتوا أكلهم الشهى ممـــا أخرج طلاب الدراسات العليا من رسائل جامعية ، أشار اليها الأستاذ أحمد لطفى السيد ، وشـاركه الاعجاب بهـــا صديقه الدكتور منصور فهمى إذ رأس بعض المناقشات الجادة ، وأعلن رأيه فى تقرير كتابى أوضح خلاصته فى قاعة المناقشة ونشرت مجلة الرسالة فقرات منه بتاريخ ١٣/٨/٤٦ م حيث كتب الأستاذ الأب قنوانى مقـــالا يصف جلسة فلسفية أزهرية تركت أثرها الحمـــيد فى

نفسه ، حين استمع الى النقاش المنهجى بين الطــالب وأساتذته الفاحصين ، ونقل عن الدكتور منصور فهمى رئيس اللجنة قوله: إننا فى عصر تعاون علمى، وتقارب بين الفلسفات ، وإن هذا التعاون يسير بالإنسانية الى وحدتها المنشودة وآية ذلك ما يشاهد فى مناقشة الليلة بالأزهر من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكرى، ثم قال الدكتور : أما وقد لبى الأزهر حاجة العصر ، وساير روح الزمن ، فساهم فى الوحدة العالمية ، واتصل بالعلوم التى تمكنت فى ميادين أخرى ، بروح التسامح الدينى ، والتآزر الفلسفى ، والتآخى العــلمى ، فإنه سيصل قديمه بحديثه ، ويصبح منبع ثروة فكرية كبيرة فى التوجيهات العلمية والدينية للعالم كله •

وقد اختير من أبنـــــاء الأزهر أساتذة للفلسفة فى الجامعات المماثلة ، فنقلوا معهم حصيلة ما درسوه فى النطاق الفلسفى المستوعب ، واذا كان عالم الأزهر ذا فكر دينى ، فوضح أن هذا الفـــكر هو الذى يضـــع الدراسات الفلسفية موضعها الصحيح فى مجال التقويم الدينى ، ولا خوف من سيطرة الفــكرة الإسلامية على المسائل الفلسفية ، لأن الإسلام دين القعل ، وعـــدو التقليد الأعمى ، وهو بذلك نصير لــكل فــكر فلسفى مستقيم •

شـــيوخ ثلاثـــــة

وأبلغ ما نسوقه دليلا على التشبع الفلسفى فى الكيان الأزهرى أن ثلاثة من شيوخ الأزهر وذوى الإمـــامة الكبرى فى العالم الإســـلامى هـم من المتخصصين فى الفلسفة ! فإذا كان الإمام الأكبر نفسه يحمـــل درجته العلمية فى تخصص فلسفى ، وقد قضى مدة تدريســـه الجامعى أستاذا للفلسفة فكيف يعد الأزهـــر بعدئذ مجافيا للدراسات الفلسفية !

لقد كان الأئمة الكبار الثلاثة : مصطفى عبد الرازق، وعبد الحليم محمود ، ومحمد عبد الرحمن بيصار ، من أساتذة الفلسفة ، فى كلياتهم الجامعية ، وانتاجهم العلمى فى صميمه ينحو المنحى الفلسفى تفكيرا وتصورا وتصويرا ، فمصطفى عبد الرازق ظـل أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية الآداب أكثر من خمسة عشر عاما متوالية وقد أضاف الى الثروة الفلسفية جديدا ، حين ألف كتابه الذائع عن الفلسفة الإسلامية ، إذ رأى أن يكون عـلم الكلام وعلم أصول الفقه الإسلامى دليـلا على الفـكر الفلسفى فى الإسلام ، وبذلك تكون الفلسفة الإسـلامية ذات استقلال نظرى ، عن فلسفة الإغريق ، فإذا كـــان الفارابى وابن سينا وابن رشد يعدون من تلاميذ الفلسفة

الإغريقية فإنهم لا يمثلون الفكر الفلسفى المستقل فى الإسلام ، إنما يمثله واضعو علم الأصول الفقهى ، وأساتذة علم الكلام ممن فلسفوا وسائل النظر الفكرى فى الإلهيات ، وما وراء الطبيعة فلسفة تؤيد الوجهة القرآنية فى مصدرها الصحيح ، ومصطفى عبد الرازق كالمراغى تلميذ محمد عبده ، وقد تأثر به تأثرا واضحا فى الميدان الفكرى وفى السلوك العملى ، وجمع حواليه من نابغى الطلاب فى الجامعتين ، المدنية والأزهرية ، من تأصلت على أيديهم بحوث الفلسفة فى فروعها المختلفة ، وكان الشيخ من التواضع العلمى بحيث أهمل كثيرا مما درس لطلابه ، فلم يقدمه للمطبعة، مستوفيا، انما نشر عدة بحوث تدل على اتجاهه ، ومن ذلك ما كتبه عن الدين والوحى والإسلام وعن الفارابى والكندى ومحمد عبده ، وموسى بن ميمون فى كتب ومقالات .

الفيلسوف المتصوف

أما شيخ الأزهر الإمام الأكبر عبد الحليم محمود فقد تعددت آثاره الفلسفية تأليفا وتحقيقا وترجمة لأن الرجل الموهوب كان مبارك الوقت ، يستطيع أن يؤلف فى كل زمن ، فى مكتبه الرسمى ، وفى مقعد الطائرة، وفى جلسات الاعتكاف بالمسجد،ونمثل فى ناحيةالترجمة بما نقله عن البير ريفو ، وأندريه كريستون وأندريه مور

من كتب تعددت طبعاتها، وفى ناحية التأليف بما كتبه عن الحارث المحاسبى، وعن التفكير الفلسفى فى الاسلام وعن التوحيد الخالص وعن التصوف عند ابن سينا وعن فلسفة ابن طفيل ، وفى ناحية التحقيق بما نشره من كتب ابن عطاء الله السكندرى والغزالى والقاضى عبد الجبار والسهروردى ، والتسترى والطوسى والقشيرى ، وأهم من ذلك كله أن نشير الى أثر الفلسفة فى نفسه ، حين درس التصوف النظرى دراسة منطقية عميقة ، ثم سمت روحه الى التطبيق العلمى فاشرأب الى آفاق الكملة من أصحاب الأذواق والمواجيد، وأصبح الفيلسوف النظرى صوفيا ربانيا يرى أنوار الحقائق، ويترجم لأكثر من نعرف من كبار الأولياء ولن يحكم على إشرافه الروحى غير من سما الى أفقه، إذ أن أرباب التحكم العقلى لا يستريحون لمن يترك مصباح العقل الى نور القلب ، ولكل وجهة هو موليها .

الشيخ الثالث

كان الإمام الأكبر الدكتور محمد عبد الرحمن بيصار ذا تواضع حبيب فى نهجه الفلسفى ، إذ آثر أن يجعل بحوثه الفلسفية مقصورة على طلابه ، دون أن ينتقل بها الى زملائهم فى الكليات المماثلة ، على أنه لم يكن يكرر نفسه بل كان يجعل لكل عام دراسى موضوعا فلسفيا جديدا ، ليرضى نزعاته الفكرية ، وليفتح

ميادين النظر لدى تلاميذه ، ومن هنا كثرت مؤلفاته الفلسفية ، وإن لم تجد نصيبها الـــكبير من الذيوع ، والانكماش العلمى فلسفة متواضعة لدى نفر يعرفون أن العقل البشرى محدود مكدود ، وأن صاحبه لا يجب أن يغتر بما أدركه ، لأن هناك من أدرك فوق ما أدرك واذا كان الشيخ يرى التواضع العلمى مذهبه فاننا لا ننكر عليه حقه الكبير ، على أن الفلسفة فى جـوهرها الخالص لم تعد مقصورة على مادة تعرف بهـــا ، بل امتدت بأسلوبها الى جميع فروع المعرفة ، فلدينا فلسفة للتاريخ ، وفلسفة للنحو ، وفلسفة للفقـــه هى عـــلم الأصول ، ولكل علم فلسفته التى يعرفها المتخصصون، وبذلك أصبحت علوم الأزهر فى الدراسات العليا ذات فلسفة تضع النظرة الشاملة ، وتدرج الجزئيـــات فى الكليات ، وتقيم الحدود الواضحة للتعريفات ، وعلى الذين لا يزالون يعتقدون بعد الفلسفة عن الأزهر أن يقرءوا علوم الأزهر فى كلياتها العامة وحينئذ يعلمون أن الأزهر ينادى الفلسفة من مكان قريب .

●●●

الخـــاتمة :

بين السيـــاسة وحرية الفـــكر

ينطق الأزهــر باسم الاســلام فيما يقوم به علماؤه المخلصون من أعمال هادفة ، حين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر فى ثقة وايمان، وفى الصفحات الماضية الماع الى بعض ما تحملوه من أعبــاء ، حــين واجهوا الطغيان السياسى ، والارهاب الفكرى ، فصدعوا لكلمة الحق دون مواربة أو أستخذاء .

والنضال عن حريــة الوطن ، لا يختلف عن النضال عن حرية الفكر ، لأن الاحتلال السياسى ،لا يجد متنفسه الفسيح الا حين تلجم الأفواه ، وتكمم الأقلام ، وحينئذ يسود الصمت القاتل ، لتمثل خلفه مشاهد الاستبداد ، وليصبح الطغاة آمنين على أنفسهم ، يمارسون عدوانهم المنكر ، دون أن تزعجهم صيحات الاعتراض ، ودون أن يجـدوا من يهتف بدعوة الاســلام الى محاربة الفساد سياسيا وفكريا .

وما كان للأزهر أن يستكين ، وقد ناداه القرآن بقول الله عز وجــل « ولتكن منكــم أمة يدعــون الى الخــير

ويأمرون بالمعـروف وينهون عن المنكر وأولئك هـم المفلحون » .

أن نور الحريـة السياسية ، ونور الحرية الفـكرية ينبعان من مشكاة واحدة ، فلن ترى مناضـلا سياسيا صادق الوطنية الا وهو نصير للحرية الفكرية ، ولن تجد مدافعا عن الرأى الحر إلا وهو عدو للاستبداد السياسى ، والطغيـان الاستعمارى ، وقـد يـكون المناضـل عن الناحيتين زعيم واحد ، يؤدى قسطه السياسى فى مواجهة المستبد ، وقسطه الفكرى فى نصرة الحقيقة !

وهكذا كان الصفوة من علمـاء الأزهـر يحاربـون الفساد فى شعبيته دون أن يحسوا افتراقا فى المنهج ، أو تشعبا فى الطريق ، وقارىء الصفحات السابقة ، يلمس هـذا التواؤم المتسق فى وضوح سافر ، دون أن يحتاج الى من يضع له الخطوط العريضـة تحت السطـور ، ليجذب انتباهه الى معنى قوى يخاف أن يخفى عليه فى سرعة القراءة ، لان الأمر من النصوع بحيث لا يخفى على متأمل دقيق .

وهـذا الكتاب فى نصفه الأول يصور وقفات ساطعة لأعلام الأزهر ، فى مجابهة الطغيان السياسى ، ولعل مما يزيد من تقديرها الأمين ، أنها قرعت الأسماع ، فى

أحلك عصور الاستبداد السياسى ، كالعصر العثمانى ، حين فقدت البلاد استقلالها وحريتها ، وحرص الولاة من الأتراك على أن يخمـدوا كل صوت ينادى بعـزة مصر ! بل حرص هؤلاء على أن يئدوا التعليم وأدا لا رحمة فيه .

ولـكن علمـاء الأزهـر وحدهـم ظلوا من الناحية التعليمية ، يواصلون جهدهم الدراسى عن طواعية ، دون أجر مادى تنفقه الدولة على المعهد العلمى الوحيد ، بل كان العلماء يتعلمون طلابا ، ثم يتصدرون للتدريس شيوخا ، دون أن يمنحوا من الدولة مليما واحدا .

كان العلم فريضة محتومة ، يقوم بها علماء الأزهر أبتغـاء وجه الله ، ثقة منهمأن الأزهـر وحدة مصـدر الاشعاع للعالم الاسلامى فى هذا العهد المضطرب ، وأن عليـه أن يعلم من يفد اليه من شتى البلاد الاسلامية ، ليجعل من الوافدين رسـل علم يتفقهون فى الـدين ، وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم .

هذا من الناحية التعليمية ، أما من الناحية السياسية فقد كان علماء الأزهر ألسنة الشعب المصرى ، حين تهب العواصف ، وتمتد أطماع الولاة والمماليك الى المتاجر والمساكن والحقول ناهبة مغتصبة ، هنا يتجمع الشعب

فى الأزهر ليبلغ شيوخه ما نزل عليـه من بلاء ، وهنـا يتحمس الشيوخ لمحاربة الطغيان ، فيقود الجموع الى مقرالحاكم ، طالبين أن يعود الحـق الى نصابه ، وأن يقصر المعتـدى عن عـدوانه ، وفى مـواقف سليمـان المنصورى وأحمـد الدرديرى ، وعبد الله الشرقاوى ، ونفر ممن ألمعنا الى جهادهـم الباسـل ، ما يدل على زعامـة أصيلة لرءوس الأزهـر فى مواجهة الباطل ، وتتكرر هذه المواقف بتكرار الأحداث ، فنرى فى عهود الحملة الفرنسية ، وعصر محمد على ، وعهد إسماعيل، وزما الثورتين العرابية والمصرية ما قام به الأزهر من توجيـه سياسى ، لم يقصر على القـول ،بل امتـد الى الفعل ، فناضـل الشيوخ ، وتعرضوا للقتـل وللسجن وللنفى وللعـزل ، ولكن ذلك كلـه كان مصـدر فخـر واعتزاز لمن جاهـر بالحق وواجـه العـاصفة ، فأراح ضميره ، وأرضى ربـه ، وضرب المثـل للنـاشئة ، كى يسـيروا على الدرب فى قـوة ، واثقين بسلامة اتجاه ، وعظمة المآل .

فاذا تركنا النضال السياسى ، الى النضال الفكرى ، فاننا نجد جهد الأزهر ، كان أشق وأصعب ، لأن سيطرة الاستعمار قد مكنت لبعض الغلاة من عاشقى الثقافة الغربية ، أن يهاجموا أصولا إسلامية ، قام الأزهر على

حمايتها ، بل ما أنشىء الأزهر منذ بدء حياته الا ليذود عنهـا ، فصدرت كتب تمس المقـررات الاسـلامية فى أصولها الصميمة ، مدعية سعة الأفق وشمول الثقافة ، وتغلغـل النظر ، ومواكبة الحضارة ، ومؤاخاة الرقى الفكـرى .

فكان لابد للأزهـر من أن يقـرأ هـذه الكتب ، وأن يقـوم بتفنيـد ما يراه موضع التفنيـد ، ولـم يفسح معارضوه صـدورهم للرأى المخالف ، بل ذهبـوا الى إتهام العلماء بالرجعية والتخلف ، وضاقوا بمعارضة الأزهر ضيقا يدل على أنهم يكرهون الحرية الفكرية اذا اتجهت غير ما يتجهون .

وعاشق الحريـة الصادق ، هو من لا يقصرها على نفسه وحدها ، بل يراها خالصا للناس جميعا ، فلكل دارس أن يفصح عن رأيه فى جهارة وسطوع ، وقد سلك الأزهـر سبيل الحق فى نقض ما يراه مخالفا لمقررات الاسلام ، فأخذه الرعد من كل مكان ، وامتنع معارضوه أن يقارعوا الحجة بالحجة ، والمنطق بالمنطق ، واندفعوا الى سخرية ماكرة ، وتهكم مسخف .

ولو أخلصت النيات ، لسار الجدل فى طريقه الهادىء

دون اسفاف ، وقد مضت الأيام ، فتمحصت الحقائق ، وذهب الزبد جفاء ، وبقى ما ينفع الناس ، ورجع كثير من المغالين عن شططهم ، فسلكوا فى بحوثهم وجهـــة مطمئنة ترضى الأزهر ، فاعترف لهم بسلامة العودة ، وحسن العقبى ٠

ولنا أن نثق فى عدالة السماء ، حين أخذت بناصر الحق ، وبددت سحب الباطل ، فسفرت الحقيقة دون حجـــاب ٠

وقد عرض هذا الكتاب لبعض ما ناضل به الأزهر فى حومة الرأى ، فجلا وجهة نظره فى صـدق ، وترك للقارىء أن يتأمل فى حيدة بعض ما دار من العراك، وكنت آمل أن يتسع المجال لمناقشة قضايا مماثلة ، ولكن الحيز المحدود يحول دون الكمال ، ولعل المستقبـل القريب يسمح بالعودة الى الاستيعاب فى كتاب آخر، لتنتظم الحلقات فى سلسلة وافية تدنى البعيد ٠

أما دور الأزهر فى الدعوة الى السلام العالمى ، ولقاء الأديان على صفاء تحتمه أمانة العقيدة ، وسمو الهدف، فقد كشف المؤلف عن حقائق صريحة فى هذا المجال ، ولعل فى تسجيلها ما يؤكد أهميتها البالغة ، وما يدعو رجال الأديان فى شتى البلاد أن يتعاونوا تعاونا تاما

فيما بينهم ، لينقذوا الانسانية مما يتهددها من أخطار الشقاق ، وليقفوا أمام دعـــاة الحروب ، ومخترعى الأسلحة المدمرة ، وقفة من ينذر بالخطر الماحق وهو على وشـــك الوقوع .

أما الصفوة من أعلام الأزهر ممن ترددت مواقفهم الرائعة فى هذا الـكتاب ، فقد استحقوا خلود الذكرى بما قدموه من نضال ، وهم بعد قدوة حسنة للناشئة فى دور العلم على اختلاف فروعه ، إذ تجاوزوا القول الى العمل ، فنزلوا الى الميدان مجاهدين ، وحسب هذا الكتاب أن يكون حافزا على اقتفاء الأثر الصـــالح ، داعيا الى المسعى الحميد ، وذلك كله هدف رشيد .

●●●

الأزهـر فى عـيده الألفى

ألـــف عــــام يا سرعة الأيـــام
كيف يحصى مـــــداك بالأعــوام ؟
سوف يبقى الإســــلام ما بقى الد
هر وتبقى منـــارة الإســـلام
سيظـل القـــرآن فى أبـــد الـــكو
ن شــــفاء لـــكل داء عقـــام
هو وحى الرّحمـــن قام على تفســ
ــيره منك صـــفوة الأعـــلام
شرحــوه ففـــاض نوراً عليـــهم
فيضـــان العقـــول بالإلهـــام
قورنوا بالزمخشـــرى وبالفــر
اء والفخـــر ، والرءوس العظـــام
سيظـل الحديث بالأزهـــر المعمو
ر وردا منضـــر الأكمـــام
حيث أشـــياخه رواة ثقـــات
كــل حــبر له مــكان الإمـــام

سبروا غـور مسـلم والبخـار
ى وما فى الصحـاح من أحـكام

سوف تبقى شريعة الله نهجـا
أوحـديا عليـه سـير الأنـام

يفتـديها فى مصر كل فقيـه
رائم بالقيـاس أسـمى مـرام

يفقـه النص حينمـا يصـدر الفتـ
ـوى أمينـا فى النقض والإبـرام

لغـة الضـاد ألبست بكتـاب
الله أبهى ما شـفّ من هنـدام

عشـق الأزهـر المبـين فنـون
القـول فيـها بخـافق مستهـام

ويح أعـلامه الألى منحـوها
كـلّ ما يملـكونه من حطـام

بذلوا النـور من عيـون كليـلا
ت وضـحوا بقـوة الأجسـام

درسـوا فنهـا اشتقاقا ونحـوا
وبيـانا ينـير وجـه الـكلام

إن ذكرت الخليـــل فى مسجد البصـ
ـرة فاذكر بالأزهـــر ابن هشـــام
قرنوه بســيبويه كـــلا القطبـــين
يـــرعى تـــراثـه ويحـــــامى
لا لجـــاه ومنصـــب بل لوجـــه
الله ما أعـــربا من الإعجـــام
خـــالد خـــالد على الأيــــام إذ
مضى من تاريـــه ألـــف عـــام
حفلت بالخطـــوب تلقى من الأزهـ
ـر جهـــد المنـــاضل البســـام
سحب غـــالت الســـنا وادلهمت
مرعـــدات بكل خطب جســـام
فسيـــول التتـــار تغمـــر بغـــدا
د وجيش الصليب ملء الشـــام
وعيـــون الموحـــدين تدجـــت
لا ترى النـــور فى مثـــار القتـــام
أين طب الإيمـــان يسـعف فى الرّو
ع نفـــوسا تهـــددت باجـــترام

صلصل الأزهــر الشريف مــرنا
هاتفــا بالليــوث فى الآجــام
وترامى أشــياخه فى زحــوف
خــلف عزّ الدين بن عبد الســلام
يقرعون القــرآن يؤذن بالنصــر
ويفــرى فى الروع فــرى الحســام
يرســلون الســهام فى مهــج الأ
عــداء خواضــة وراء السهــام
يذكــرون الأمجــاد من يوم بــدر
فتــؤج الذكرى أجيــج الضرام
كن شهيــدا كحمــزة لا تسوف
محجمــا فالبــلاء فى الإحجـام
خصمك المعتــدى عليك فأقــدم
كــل نصر يتــاح بالاقــدام
حوصر الهاجمون فاندحــر البغى
وآل الهجــوم لاستســلام
وتجــلى الســلام فانبعث الأز
هــر يرعى أشــباله فى ســلام

أوغل الدارسون فى العلم لا يثنيهمـ
ـو عنـه زخـرف الأوهـام
فاذا الأزهـر الشريف شـروح
تترامى مثـل السـنا المتـرامى
فجـواب يتـاح غب سـؤال
وجواب يفضى الى استفهـام
وصيـال بالرأى رنّ صـداه
كرنـين التـكبير بالإحـرام
فاقـرأ الموسـوعات فى مدهـا الزا
خـر تشـهد نفائس الأفهـام
كل موسـوعة بأجـزائها العشـ
رين صـبح الأعشى وبدر التمـام
لا أوالى التقريظ فالنـاقد الصـا
دق قد ينتحى شعـاب السـلام
رب متن دهـاه إيجـازه الـكز
بشـح يفضى الى الإبهـام
رفـدته شـروحه وحواشيـه
بفيض يتيـح مضـغ الـكلام

وتـوالى المعقبـــون عليــــه
يتبـــارون فى لهيــب حــــام

واستطـــالوا بالجنس والفصـــل
والرســـم وسـلوا رماحهم لالتحام

ذاك عهـــد مضى وأقبـــل عهـــد
فاض فيه الأســـلوب فيض الغمـام

تجد القـــول واضحـــا كقـــوافى
الشـعر تمضى فى رقـــة وانسجـــام

تقرأ الباب مثلمـا تقـــرأ القصـــة
ما بين بدئهــــا والختـــام !

إيه مهـــد الابـــاء يسـتشرف العـ
ـــز ويأبى معيشـــة المستضـــام

أَوَحتـــم عليـــك فى كـل عصر
صرعة البـــغى واندحـــار اللئـــام

تفجـأ الهـــول راسخ العـــزم صبـــا
راً وتـرمى حمـــامه بحمـــام

حـار نابليـون انتصـــارا بأوربا
ولاقى لديك شـــر انهـــزام

زأرَ الأزهــر الشريف فهــاجت
كالبراكــين ثائــرات الأنــام
ما ثنــاها قــذف القنــابل بل زا
د لهيــب النفــوس برح اضــطرام
أحـرقوا الدور والمســاجد لـكن
أشـعلوا فى الورى لظى الانتقـام
وكمـا أقدموا بخــــزى توارو١٥
وعليــهم مــذلة الإرغـــام
وتوالى الزمــان لا الفــكر ساه
لا ولا العــين هوّمت فى منـــام
كل جيــل يمضى ليخــلف جيــلا
مستطيلا بعـــزة الإســـلام
يبعث الأزهــر النجيب داركـــا
بهمـــام يشـــد أزر همـــام
خطبـــاء المســاجد اتخذوا المنــ
ـبر أقوى وســائل الإعـــلام
رفعـــوا الراية الشريفـــة لمـــا
أسقطتهـــا صحـــافة الأقـــزام

اتخـذوا المنـبر الحصـين عرينـــا
جلجلت منـــه زأرة الضـــرغام
لن يمـــل الإمـــام منهم زئـــيرا
يدفع التـــائهين نحـو الأمـــام

محمد رجب البيومى

●●●

الفـــــهرس

الموضـوع	الصفحة

رقم الايداع ٨٦٢٨ / ١٩٩٣

I. S. B. N. 977 - 5001 - 07 - 2



مطبعـــة الأزهـــر الشريف

٧٠٠٠ / ٩ / ١٩٩٣

الكتاب القادم :

أقباس من نور الحق

لفضيلة الشيخ

محمد مصطفى الحديدى الطير

الجزء الأول



طبع بمطابع الأزهر

الثمن ٤٥٠ قرشاً